صلاح الدين

ومكائد الحشاشين

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن انتقال مصر من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية
في اواخر القرن السادس للهجرة على يد السلطان صلاح الدين وما
تخلل ذلك من المساعي . ويدخل فيه وصف طائفة
الاسماعيلية المعروفة بجماعة الحشاشين وما اشتهر
عنها من غرائب الفتك والقتل

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الطبعة الثانية

مطبعة الهلال بشارع نوبار بمصر
سنة ١٩٣٠

المقدمة

هذه هي الحلقة السادسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام (غير رواية الانقلاب العثماني) وقد اختلفت فيها المظاهر والصور الاخلاقية والاجتماعية عما كانت في الاعصر الماضية لاختلاف الاشخاص القائمين بها عن أهل تلك الاعصر

وابطال هذه الرواية من الاكراد وزعيمهم السلطان صلاح الدين المشهور . وهي تتضمن سعيه في استخراج مصر من الدولة العبيدية أو الفاطمية باسم السلطان نور الدين زنكي صاحب الشام . لكنه ارادها لنفسه فاشرنا الى ما اقتضاه ذلك من المساعي وما تخلله من الحوادث الغريبة ومن جملتها أعمال الحشاشين أو الاسماعيلية الذين تكاثروا في ذلك العصر برئاسة امامهم الشيخ راشد الدين سنان . وكان لهم شأن في قتل كثير من الملوك والامراء غيلة مما ادهش العالم

وبذلنا الجهد في درس احوال تلك الطائفة وتمثيلها للقارىء كما يستفاد من مجمل ما كتبه عنها المؤرخون وهم على تناقض واختلاف ليس هنا محل تحقيقها . وانما جمعنا في هذه الرواية أغرب ما يروى عنها من المعجزات

ونحن الآن في الحلقة ١٦ من هذه السلسلة واذا أضفنا اليها ما نشر من رواياتنا المستقلة الاخرى مما يدخل في تاريخ الاسلام — نعني استبداد المماليك والمملوك الشارد واسير المتمهدي والانقلاب العثماني — بلغ عدد رواياتنا التاريخية الاسلامية ٢٠ رواية ١٦ منها في تاريخ الاسلام من ظهوره الى اواخر القرن السادس للهجرة واربع في تاريخه من اواسط القرن الحادي عشر الى اعلان الدستور العثماني . فاذا وفقنا الى اصدار الحلقات الموصلة بين هاتين المدتين تمت السلسلة . وكانت من خيرة ما تمضى به اوقات الفراغ لذة وفائدة والله الموفق

الفصل الاول

مذاكرة تاريخية

انتهت رواية « فتاة القيروان » بدخول مصر فى حوزة الفاطميين أو العبيديين سنة ٣٥٨ ﻫ على يد القائد جوهر و بادت دولة الاخشيد وخرجت مصر بذلك من حوزة الدولة العباسية لأنها كانت في زمن الطولونيين والاخشيديين مع استقلال هاتين الدولتين بالحكومة تحت رعاية الخليفة العباسى فى بغداد وهو ينتدبهم على الامارة و يبعث اليهم بالخلع او بكتاب التولية (الفرمان) نحو ما يفعل السلطان العثماني بامراء مصر لهذا العهد. ولكن ادارة الحكومة الداخلية وسائر أعمالها كان يجريها الامير الطولوني أو الاخشيدي مستقلاً بدون مراجعة بغداد . وهو شبيه ما يعبر عنه كتاب هذا العصر بالاستقلال الاداري على تفاوت بدرجات ذلك الاستقلال

فلما دخلت مصر في حوزة الفاطميين تغيرت حالها السياسية واصبحت دولة مستقلة بنفسها استقلالاً تاماً لا تراجع احداً ولا تعترف بسيادة احد غير الخليفة الفاطمي المقيم في القاهرة

وهي اول مرة استقلت بها مصر بالسيادة السياسية بعد الاسلام . و بقيت الخلافة العباسية في بغداد كما كانت وظهرت الخلافة الاموية بالاندلس فى بني مروان فاصبحت المملكة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء كل منهم يزعم لنفسه الحق بالخلافة الحقيقية و ينكرها على الآخرين وكان النزاع على أشده بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة و بينهما اختلاف في المذهب ايضاً لان الخلافة العباسية كانت سنية والفاطمية شيعية . وهو في أصله تنازع سياسي ادخلوا فيه الدين وسيلة لتأييد دعواهم

والدولة الفاطمية اول دولة شيعية تسمى ملوكها بالخلفاء . وعاصرته دولة اخري شيعية في العراقين وفارس نعني الدوله البويهية لكنهم لم يسموا انفسهم خلفاء ولا ادعوا نسباً قرشياً يؤهلهم لذلك . وحافظوا على الخلافة العباسية مع اعتقادهم أن اصحابها اغتصبوها من مستحقيها — وانما استبقوها ليحكموا بها العامة . واشار بعضهم على معز الدوله البويهي بعد قيام الدولة الفاطمية أن ينقل الخلافة الى الفاطميين أو الى غيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلا « ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة لو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدوله عن عزمه [1]

استقرت الخلافة الفاطمية بمصر والخلفاء العباسيون فى بغداد واتباعهم السنيون فى انحاء العالم ينكرون على الفاطميين صحة انتسابهم الى فاطمة الزهراء وهم لا يبالون . وانما كان يهمهم تأييد سلطانهم بالسيف والدهاء ولا سيما في اوائل دولتهم . فان المعز لدين الله لما بنى له جوهر مدينة القاهرة ودعاه اليها خرج الناس للقائه واجتمع به أناس من الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » فقال له « سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

ولما استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال « هل بقي من رؤسائكم احد » فقالوا « لم يبق معتبر » فسلّ نصف سيفه وقال « هذا نسبي » ونثر عليهم ذهبا كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعا « سمعنا واطعنا »

---

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨

فتوالى على مصر من الفاطميين أحد عشر خليفة حكموا نيفاً ومئتي عام (من سنة ٣٥٨ — ٥٦٧ ﻫ) اولهم المعز لدين الله وآخرهم العاضد لدين الله . مرت الدوله في اثنائها في ثلاثة ادوار . كانت في اول امرها قائمة بالعرب والبربر وهم الذين فتحوا مصر مع جوهر فكان النفوذ مشتركا بين هذين العنصرين . ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك (١) كما انتقل النفوذ في الدولة العباسية من العرب والفرس الى الاتراك

وكان السبب في تكاثر الاتراك بمصر انه لما مات الخليفة الحاكم بامر الله وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ ﻫ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة فانحط جانب البربر وما زال عددهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ ﻫ بعد الظاهر كانت امه سوداء فاستكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود . وكان ابنها يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ فآل التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار صاحب الشام فاتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو ارمني الاصل فقتل اهل الدوله واقام بمصر جنداً من الارمن والاتراك وصار من حينئذ معظم الجيوش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهها واكابر اهلها

وكان السلاجقة في اثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس وذهبت دولة آل بويه وضعف امر الشيعة هناك وولى السلاجقه مماليكهم وقوادهم (الاتابكة) على الولايات واستقل كل منهم بولايته ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد منهم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٢٠ ج ٤

نجم الدين ايوب وأخوه اسد الدين سركويه وقد نالا عنده منزلة رفيعة .
وكانت خلافة مصر قد افضت سنة ٥٥٦ هـ الى العاضد لدين الله بن يوسف وكان ضعيف الرأي وقد غالب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً

وكان في جملة المتنافسين وزير اسمه ساور غلب امره فذهب الى نور الدين زنكي واستنجده على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للقبض على مصر وانجده باسد الدين سركويه في جند من المماليك فردّ الوزارة الى ساور وصار هذا يدفع نابت خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت فزاد دخول نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها سركويه ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين الايوبي الشهير . ومات سركويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وسمي وزيراً

فاتخذ صلاح الدين ذلك وسيلة للاستقلال بسلطة مصر لنفسه —
وهو ما نطالب بسطه في اثناء هذه الرواية

الفصل الثاني

موكب الخليفة العاضد

انهض يا اخي .. اما كفاك نوماً ؟ والقاهرة صحت والناس يتراكضون ؟
قم وانجُ بحمارك
الى اين ؟ ولماذا ؟ هل احرقوا القاهرة كما احرقوا الفسطاط ؟ ام هناك سرية جديدة علينا ؟ تركت مواقف القاهرة وأتيت بحماري الى هذا

الموقف خارج باب الفتوح لأتخلص من تعدياتهم وتعديات هؤلاء الاتراك والاكراد و . .

اسكت ياعمر ان هؤلاء الاكراد كل الخير منهم .. هل نسيت ما كنا نقاسيه من العذاب قبلهم ، حتى ان احدنا لم يكن يتحرك ما لم يضربوا عليه ضريبة . ومن كان يجسر ان يذكر ابا بكر او عمر رضي الله عنهما ؟

صدقت . ان والديّ ندما على تسميتي بهذا الاسم .. وماذا جرى الان يا عم حسن ؟ هل نقدر ان نتحرك ؟ ها انت تقول لي قم ابج بحمارك

اقول لك ذلك لان الخليفة العاضد لدين الله خارجٌ من قصره في موكبه وستتبعه طائفة من الاتراك وغيرهم وربما سطا أحدهم على حمارك فيركبه . . وربما اخذه لنفسه

الخليفة خارج من قصره ! واين نحن وقصره ؟ انما خارج القاهرة

انه آت الى هنا وسيخرج من باب الفتوح هذا

من هذا الباب ؟ الى اين ؟

انه خارج لاستقبال نجم الدين أيوب

الخليفة خارج من القاهرة لاستقبال نجم الدين ؟ ومن هو نجم الدين هذا

هو والد الوزير صلاح الدين يوسف جاء من الشام لزيارة ابنه

الله الله يا دنيا — الخليفة امير المؤمنين ابن بنت الرسول وظل الله على الارض يخرج من قصره الى خارج بلده لملاقاة والد وزيره — متى كان الخلفاء الفاطميون يفعلون ذلك يا عم حسن ؟

تغيرت الاحوال يا صاحبي . . ان الخليفة لم يبق له من الخلافة الا الاسم . وصار النفوذ الى هذا الكردي .. مسكين العاضد

مسكين ليه ؟ بل نحن المساكين ويمكن هذا الكردي يكون احسن منه

الكردى احسن من الخليفة ؟ لا ....

وما الذي نصيبنا من هؤلاء الحكام ، انهم يختصمون على الاستبداد بينا ومادا يهمني ان كان حاكمي كرديا او عربيا أو هنديا انما يهمني ان لا يظلمني .. مش كدا ؟

اسكت انهم قادمون ألا تسمع الابواق والصنوج ؟ اربط حمارك حته في مكان وتعال

ها انا داهب وسارجع اليك على عجل لأرى موكب الخليفة . . ان دلك حسرة في قلبي منذ ولدت طالما سمعت بهدا الموكب وما يحف به من الفرسان وما يلبسه الخليفه من الجواهر والحرير و ...

انا في انتظارك . استعجل يا عمر

لا . . لا . . الاحسن بان تتبعني انت لنضع الحمار في هدا البيت ونصعد على سطحه فنكون أقدر على المشاهدة وابعد عن الخطر

طيب .. هيا بنا

نحن الان على هدا السطح مشرفون على الموكب

انهم قادمون من القصر وبعد قليل يصلون الى باب الفتوح هذا فنراهم وهم خارجون .. ألا تسمع الضوضاء وقرقعة اللجم

نعم اسمع واخاف أن نكون علىنا خطر

لا ما فيش خطر . . أراك تخاف من خيالك

لا تؤاخذني يا عم حسن ان الملدوغ يخاف من جره الحبل . وهؤلاء الجنود لم يخرجوا بمثل هده الحركه الا تعدوا علينا وأخدوا دوابنا . .

اتي الموكب انظر نظرة عامة اليه في الشارع الداخلي قبل خروجه

انى أرى الاعلام تخفق والخيول تصهل والرماح تتلألأ والسيوف تلمع والشارع يموج بمن فيه كالنيل فى فيضانه . يا حفيظ ! اشكرك يا عم حسن على هذه الفرجة . . قل لي الان وقد اخذوا يخرجون من باب الفتوح من هو الخليفة منهم هل هو هذا الراكب على هذا الفرس الاشهب وعليه الثياب القصبية ؟

يظهر انك لم تشاهد احداً من رجال الدولة في حياتك . . ان الذين يتقدمون موكب الخليفة كثيرون . وهل تظن الخليفة يلبس القصب ؟ انه لباس بعض اتباعه . اما الذين تراهم في مقدمة الموكب فهم الامراء واولادهم واخلاط من العسكر وراءهم ارباب القصب ثم ارباب الاطواق الى الاساتذين المحنكين وهم اكبر رجال الدولة . انظر الى المستهم الفاخرة التي تأخذ بالابصار والى سروج خيولهم المقصصة ومن في ركابهم من الخدم الاتراك وغيرهم ان ذلك كله ليس شيئاً بالنظر الى موكب الخليفة . انظر . . انظر . . هذا هو موكب الخليفة عند تلك المظلة

ان المظلة تغطيه فلا أراه جيداً . وانما أرى فرسه وما يحدق بها من الاعلام والفرسان بجانبه من هم ؟

لا تستعجل في الاستفهام ان الموكب يسير ببطء وانا شارح لك كل شيء — هل ترى فرس الخليفة ؟ تأملها جيداً ان سرجها من الديباج الاحمر مصوغ بالذهب ومعول فيه المينا ولو تأملت مقدم السرج لرأيت عليه احجاراً كريمة . وفي عنق الفرس قلائد الذهب ولو استطعت النظر الى قوائم الفرس لرأيت حولها الخلاخل الذهب . ويقدرون كل فرس بما عليها من العدة بالف دينار (١) وافراس الوزراء والامراء ايضاً في مثل هذا الترتيب وهي كلها في الاصل هدية من الخليفة يهبها لامرائه في الاعياد

---

(١) المقريزي ٤٤٧ ج ١

هنيئاً لك يا عم حسن لا بد انك ذقت الركوب على هذه الافراس وأنت من غلمان القصر الكبير

ذقت يا بني أشياء كثيرة كدت انساها الآن. ورأيت مجوهرات ومصوغات تبهر العقل. فكيف بما يلبسه الخليفة؟ انظر الى هذه المظلة فانها تشبه الهرم بشكلها وهي من الديباج الازرق السماوي وثوب الخليفة تحتها في هذا اللون أيضاً. ولو كانت حمراء لكان ثوبه أحمر. وانظر الى الاهلة الذهب التي تتدلى من حواشي المظلة وكيف ان اضلاع المظلة او قوائمها ملبسة بالذهب. وفي قمتها رمانة ذهب كبيرة فوقها رمانة ذهب صغيرة مرصعة بالجوهر — انظر الى لمعانها فانه يخطف البصر

صحيح. ولكنني لا ارى حامل المظلة. وكيف يستطيع حملها وهي ثقيلة؟

ان حاملها راكب فرسه بجانب فرس الخليفة. والمظلة قناة يركزها ذلك الفارس في قربوس فرسه وهمه في اثناء الركوب ان يراقب موقف الخليفة من جهة الشمس بحيث لا تقع اشعتها عليه

وماذا يحدث اذا وقعت الاشعة عليه؟ . ها ها . . اني أرى رأس الخليفة فان صاحب المظلة انحرف عنه . . يا سلام ما هذا الذي على رأسه

الفصل الثالث

العاضد وصلاح الدين

مهلاً لا تتم حديثي. انظر الى هذه العمامة على رأس الخليفة فانها بيضاء وشكلها اهليجي. وفي اعلاها فوق الجبهة جامة باشكال الهلال من ياقوت احمر ليس له مثال في الدنيا وفي وسط الهلال جوهرة عظيمة مستديرة دالى

لها اليتيمة لا يعرف لها قيمة . ويقال ان وزنها ٧ دراهم ووزن الهلال كله ١١ مثقالاً وبدائرة اليتيمة قصبة زمرد دبابي له قدر عظيم

يا حفيظ ! يا حفيظ ! أيكون مثل هذه الجواهر عند هذا الرجل بلا فائدة والناس في مملكته يتضورون جوعاً وهو يأخذ اموالهم ظلماً ? آه يا عم حسن قد وجعني قلبي من هذا المنظر

اسكت يا شيخ ان النعم من عند الله يؤتيها من يشاء . . ولعلك لو عرفت ما في قلب هذا الخليفة لم تحسده على هذه الجواهر . . ما لنا ولهذا الآن . . اسمع . . ألا ترى الفارس الى يسار الخليفة وفي يده منديل ابيض ?

نعم أراه ماذا يوجد في هذا المنديل ?

في هذا المنديل الدواة الثمينة التي هي من أعاجيب الزمان فانها من الذهب وحليتها مرجان . انظر الى الجانب الآخر من الخليفة ترَ فارساً آخر يحمل سيفاً حليته من الذهب مرصعة بالجوهر وهو مغمد لا يظهر الا رأسه وحامله يقال له « حامل السيف » وهو من اصحاب الرتب العاليه . وانظر الى حوالي فرس الخليفة فانك تجد عشرات من الصبيان وعليهم المناديل الطبقات وفي اوساطهم السيوف وأوساطهم مشدودة بمناديل وفي ايديهم الحراب مشهورة وهم بجانبي الخليفة كالجناحين . وبينهما فسحة امام وجه الفرس ليس فيها أحد . وبالقرب من عنق الفرس صقلبيان يحملان المذبتين وهما مرفوعتان كالنخلة لذب ما يسقط من طائر او غيره

اني أرى فارساً فخماً يذهب ويجيء الى يسار الموكب ويأمر وينهى من هو ?

هذا والي القاهرة يحافظ على ترتيب الموكب ليسهل مروره ويمنع الازدحام . . انظر الى الذين هم وراء دابة الخليفة . . هنالك جماعة من الصبيان يقال لهم صبيان الركاب يحملون الصماصم المصقولة المذهبة مثل

السيوف المحدبة و بايديهم الدبابيس الكيمخت الاحمر والاسود ورؤوسها مدورة مضرسة . وبعضهم يحملون عمد الحديد ومن ايديهم لواء الحمد المختص بالخليفة وحوله ٢١ راية على كل منها كتابة بالحرير تخالف الوانها وهذا نص الكتابة « نصر من الله وفتح قريب » ألم تقرأه ؟

فضحك عمر وقال «من أين لى ذلك ، ان أهلى لم يضعوني فى الازهر لان التعليم فيه على مذهب الشيعة وأهلى سنيون »

فقطع العم حسن كلامه وقال « فالا ن صرت تقدر تتعلم لان صلاح الدين جعل التعليم فيه عاماً لكل المذاهب . . »

قال عمر لقد تأخر عليّ بهذه النعمة وهل بعد الاربعين من العمر تعليم . . . فلنترك ذلك لاولادنا . من هذا الذى أراه ، ان موكبه لا يقل عن موكب الخليفة في شيء وارى عليه لباساً افخر من لباسه

هذا هو يا صاحبى صلاح الدين الوزير وهذا الثوب الذى عليه هو خلعة السلطنة خلعها عليه هذا الخليفة منذ ثلاث سنوات . وهي كما ترى عمامة بيضاء من نسج تنيس . لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديبقى بطراز ذهب . وكذلك الجبة التي عليه فان طرازها من الذهب وفوق ذلك طيلسان مطرز بالذهب . وانظر في عنقه هل ترى العقد ؟ انه من الجوهر يساوي عشرة آلاف دينار . والى جانبه سيف محلى بخمسة آلاف دينار وتحته حجرة (فرس) قيمتها ثمانية آلاف دينار . وعليها سرج مذهب وسرسار ذهب مجوهر وفى رأسها مائتا حبة جوهر وانظر الى قوائمها فان حولها أربعة عمود جوهر وعلى رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض باعلام بنص (١)
هذا هو صلاح الدين .. ان منظره يدعو الى الهيبة اكثر من منظر الخليفة. انظر الى هيبته وكيف أن الشجاعة ظاهرة في وجهه ولا يراه انسان الا احترمه

---

(١) حسن المحاضرة ٢٥ ج ٢

وخافه . والحق يقال ان الامور الآن في يديه وهو الآمر الناهي كما قلت لك وانظر الى الرجال المحيطين بموكبه وفيهم قوم يقال لهم صبيان الزرد من أقوياء الاجناد يختارهم لنفسه وهم مئات يمشون الى الجانبين و بينهم فسحة امامه مثل فسحة الخليفة . و وراءه الطبول والصنوج والصفافير ألا تسمع صوتها يدوى به البر . ووراء موكب الوزير يأتى حامل الرمح فأمله فانه رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية من الذهب . ومعه درقة بكوامخ يقولون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

كان عمر الحمار يسمع كلام صديقه العم حسن وقد أخذته الدهشة فلما سمع قوله درقة حمزة بغت وقال « درقة حمزة ! حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلعم ؟ »

قال « نعم هكذا يقولون . وقد آن لى ان اختصر لك بالوصف لان الموكب لا يزال طويلاً . . فانظر الى ما وراء موكب الوزير انك تجد فرقاً من الاجناد المختلفة زمرة زمرة في عدة وافرة تزيد على أربعة آلاف . ثم اصحاب الرايات و وراءهم طوائف من المعسكر على اختلاف اجناسهم الاتراك والاكراد والديلم وغيرهم

فقال عمر « قف بالله قليلاً واخبرني عن فارس أراه راكباً بجانب صلاح الدين وعليه ثياب فاخرة »

قال انه من بعض خاصته ولكنه فارس يحبه صلاح الدين كثيراً ولا صبر له على فراقه واسمه عماد الدين

فبغت الحمار عند ذلك وقال « ما بال هؤلاء لا يسمون اسماً الا منسوباً الى الدين هؤلاء ثلاثة ذكرت لي اسماءهم هم نور الدين وصلاح الدين ونجم الدين وهذا عماد الدين

فقال العم حسن تلك عادتهم في التسمية — ها قد انتهى الموكب

وقصصت عليك خبره فاذن بانصرافى

وقال « مع السلامة كثر الله خيرك » وانصرفوا

هذا هو موكب الخليفة العاضد وصفناه باختصار دفعاً للملل الفارئ، فان الكلام فيه يطول

سار الموكب على هذه الصورة بعد خروجه من باب الفتوح والناس في أثره ركوباً أو مشاة وآخرون وقوف على اسطحة المنازل يسرحون على ذلك الموكب وقد تصاعد الغبار حتى حجب وجه السماء وغشى الرؤوس والمناكب . ولم تبق فتاة ولا غلام الا خرج الى الشارع أو صعد الى السطح والعقلاء يستغربون خروج الخليفة لاستقبال ذلك الكردي والعارفون لا يرون فيه غرابة لضعف امر الخلافة

الفصل الثالث

قاعة الذهب

ما زال الموكب سائراً على هذه الصورة حتى وصل الى مسجد التبر (في آخر الحسينية) واتت البشائر باقتراب نجم الدين فالتقوا به هناك . وحالما تقابلا ترجل نجم الدين احتراماً للخليفة وكذلك فعل رجاله الذين معه وفيهم اخوه شمس الدين . وترجل صلاح الدين وقبل يدى والده وقبله والده ولما رأى ذلك الموكب وما على ابنه من الخلع لم يتمالك عن البكاء من الفرح وشكر الله على نعمته . وكان نجم الدين عاقلا مدبراً فتراى على يد الخليفة يقبلها و يظهر امتنانه من ذلك الاكرام والخليفة يجيبه بلطف لكنه لم يتحول عن فرسه

و بعد السلام والاكرام عاد الموكب بجلاله نحو القصرين و ركب نجم

وكان حديثهما في لغة لا يفهمها رجال العاضد يعني اللغة الكردية . وكان اكثر الحديث عن نور الدين صاحب الشام وعن العاضد صاحب مصر

اما الخليفة العاضد فلو دنوت منه تحت المظلة وتفرست في عينيه لرأيت الدمع يترقرق فيهما . ولو جسست قلبه لسمعت خفقانه الشديد من الاسف والغم لاضطراره الى الخروج في هذا الموكب لتكريم رجل يخافه على حياته كما يخافه على منصبه . ولكنه لم ير بدًّا من مسايرته فكظم غيظه وخرج لاستقبال والده . وذلك اثقل على قلبه من الجوع والعري . ولعله تمنى ان يكون من بعض العامة ولا يحمل ذلك الضيم

ووصل الموكب قبيل الغروب الى القصر الكبير الشرقي من قصور القاهرة . وهو مجموع قصور ربما زاد عددها على بضعة عشر قصر منها قصر الزمرد وقصر المظفر وقصر الاقبال وقصر البحر وقصر الحريم وقصر الشوك ودار الوزارة ودار الضيافة ودار الضرب وخزانة السود وخزانة الكتب وحجر الصبيان الحجرية وغيرها . وتسمى كلها معاً القصر الكبير الشرقي . كما تسمى قصور عبد الحميد في الاستانة قصر يلدز وهو مجموع قصور

وموضع القصر الكبير الشرقي الآن في شرق القاهرة القديمة وشماليها في ما بين الازهر وباب الفتوح ويدخل في ذلك خان الخليلي وبيت القاضي والجمالية والنحاسين . وقد سمي هذا القصر بالشرقي تمييزاً له عن قصر آخر غربي اصغر منه كان غربي القصر الشرقي وبينهما ساحة يقال لها الميدان بين القصرين . ووراء القصر الغربي نحو الغرب متنزه كبير يقال له البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة وعلى هذا الخليج كانت متنزهات الخلفاء الفاطميين

وكان في جملة ابنية القصر الكبير الشرقي بناء يسمونه قصر الذهب

كان الخليفة يجلس فيه للناس في يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ـ فوقف الموكب عنده

وترجل الخليفة ودخل القاعة المعدة للاستقبال وتسمى قاعة الذهب يدخل اليها من باب يسمى باب الذهب (تحت المارستان المنصوري في النحاسين) فجلس على سرير من الذهب في صدر القاعة ذكروا ان وزنه الوف من المثاقيل وحوله ستر محلى بالطراز الذهب المرصع بالجواهر فيه خمسمائة وستون قطعة جوهر على اختلاف الوانه [1] وفوق السرير سمسية من ذهب وزنها ثلاثون الف مثقال واكثر جدران الغرفة مغطاة بستور الديباج المزركش . حتى ان الناظر اليها يحسب نفسه في حلم ولا سيما متى نظر الى ما فوق عمامة العاضد من الجواهر المتلألئة

وبعد جلوس الخليفة على سريره دخل الوزير صلاح الدين فجلس في مرتبة خاصة به . ولم يؤذن في الدخول يومئذ لاحد من رجال الدولة وانما جعلت الجلسة خاصة باكرام نجم الدين . فامر صاحب الباب باستقباله وادخاله عليه فدخل نجم الدين وكان بهي الطلعة عظيم الهيبة فوقع من نفس العاضد موقعاً عظيماً فاشار اليه بالجلوس ورحب به فقعد نجم الدين باحترام . وكانت العادة اذا دخل الوزير على الخليفة الفاطمي قبل يد الخليفة ورجله ولم يفعل صلاح الدين ذلك ولا جعل والده يفعله ولم يستغرب به الخليفة

وكان في جملة الحضور في تلك القاعة كهلٌ ربعة دقيق العضل ممتقع اللون قاعد في مجلس اقارب الخليفة قعود من يريد الاستتار ويود ان لا ينتبه له احد لكن صلاح الدين لمحه فعلم من مجلسه انه من بعض الامراء ولم يكن رآه من قبل

(١) المقريزي ٣٨٥ ج ١

ولما استقر بالجلوس المقام بدأ العاضد بالكلام وهو يومئذ شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره مع انه تولى الخلافة منذ عشر سنين (سنه ٥٥٦ هـ) لانه كان عند مبايعته في الحادية عشرة من عمره والذى يراه الآن يحسبه في حدود الاربعين لكثرة ما كابده من الهموم وتحمله من الاحن . وكان لا يقع نظره على صلاح الدين الا ندم على استنجاد نور الدين زنكى صاحب الشام

الفصل الرابع

المداجاة

ولما جلس القوم وجه الخليفة كلامه الى نجم الدين قائلاً « عسى ان لا يكون القائد نجم الدين قد تعب في أثناء الطريق »

قال « كلا يا سيدي ان سفري كان في غاية الراحة ولاسيما لاني اتوقع التشرف بلقيا الامام اعزه الله .. »

فابتسم الخليفة ابتسامة اغتصابية وقال « أهلا وسهلا بكم قد نزلتم على الرحب والسعة . وقد امرت زمام القصر أن يعد لمقامكم منظرة اللؤلؤة وهي اجمل قصورنا بل احد متنزهات الدنيا فعسى أن تجدوا فيها راحة »

فتأدب نجم الدين في مجلسه وابدى الاحترام واثنى على الخليفة ثناء كثيراً فقال صلاح الدين « ان تنازل مولانا الامام بالخروج للقاء والدي نعمة لا انساها له ونحن جميعاً كما قلنا ندعو له بطول البقاء »

فحك الخليفة عثنونه بسبابته وتناول قضيب الخلافة عن الوسادة الى جانبه (وهو قضيب مغشى بالذهب) وجعل يتلاهى بالنظر اليه . ثم سعل والتفت الى نجم الدين وقال « كيف فارقت صديقنا الاتابك نور الدين ؟ »

فاحاب وهو يتلطف ويتحمل « فارقته في خير وقد حماني سلاماً كثيراً ومودة لمولانا العاضد حفظه الله وهو يدعو بطول بقائه ودوام سلامته »

قال « اني مسرور من صداقته وارجو دوامها »

قال « ان ذلك شرف عظيم له وقد كلفني ان ابلغ المولى اعزه الله انه هو ورجاله في خدمته ... لنصرة الحق »

ووقع هذا الكلام موقعاً مؤلماً من نفس العاضد لانه ذكره بالسبب الذي جرّه الى هذه المتاعب فانها تبدأ من استنصاره نور الدين . . لكنه تجلد وكظم والتفت الى نجم الدين وقال « لقد نصرنا غير مرة جزاه الله خيراً .. وقد كفينا الآن مؤونة الاستنصار بوجود ولدكم الملك الناصر .. » وأشار الى صلاح الدين

فقال نجم الدين « ان ولدنا من مواليكم يا سيدي ولا يدخر وسعاً في خدمتكم والآخذ بناصركم »

فمد العاضد يده الى عنقه استخرج عقداً من الجوهر يشبه العقد الذي حول عنق صلاح الدين وقدمه الى نجم الدين وهو يتبسم وقال « هذه هدية مما تتذكرون بها هذه الزيارة ايها الوالد الباسل . وقد استحققت عندنا ان ندعوك « الملك الافضل » وستحمل اليك الالطاف والهدايا الى قصر اللؤلؤة . ونوليك الاقطاعات السنية فانك أهل لاكثر من ذلك .. » [1]

فوقف نجم الدين وتناول العقد وهو يقبل يد الخليفة . ثم قبل العقد ووضعه في عنقه وهو يقول « لقد غمرتني يا مولاي بنعم لا استحقها . ان اللقب الذي خلعته عليّ فوق قدري و . . . . »

---

(١) كتاب الروضتين ١٨٤ ج ١

فقطع الخليفة كلامه قائلا « بل انت الملك الافضل كما ان نجلك الملك الناصر » فكرر نجم الدين شكره وجلس متأدباً

ولاحت من صلاح الدين التفاتة الى الكهل المتقدم ذكره فرأى في وجهه اهتماماً وقد ابرقت عيناه وكادتا تتقدان من التفكير فسعله امره لحظة

فادرك الخليفة انشغاله بذلك واراد تحويل الاذهان عن هديته فوجه خطابه الى صلاح الدين وقال وهو يشير بيده الى ذلك الجالس « اظنك لا تعرف الشريف ابا الحسن . انه من اعمامنا كان في سفر وقد جاءنا من عهد قريب » والتفت الى ابي الحسن وقال « لا أظنك تحتاج الى التعريف بوزيرنا الباسل ابي المظفر صلاح الدين »

فاشار ابو الحسن بعينه ورأسه وكتفيه انه شاكر لهذا التعريف وانحنى كأنه يهم بالقيام . فقال صلاح الدين « سررت كثيراً بمعرفة هذا الشريف ويكفي انه متصل النسب بمقام الخلافة »

وكان نجم الدين في أثناء ذلك ينظر الى ابي الحسن نظر المتفرس ولم يعجبه ما في سحنته من الدهاء وما في عينيه من المكر . لكنه تجاهل وتوجه بكليته الى الخليفة يبدي شكره على هذا التعريف

ثم وضع العاضد قضيب الخلافة من يده على الوسادة ففهم القوم انه قد آن الذهاب فاستأذن نجم الدين بالانصراف وهم بوداع الخليفة . ثم تقدم صلاح الدين وودع الخليفة وأظهر انه يهم بتقبيل يده . فاجتذب الخليفة يده تلطفاً

خرج نجم الدين وابنه من مجلس الخليفة ورجالهما ينتظرونهما خارج القصر بالافراس والسلاح وفيهم الشاب عماد الدين الذي كان راكباً بجانب صلاح الدين في الموكب وكان صلاح الدين يختصه بالالتفات لما يراه فيه من المروءة والبسالة . وهو شاب في مقتبل العمر قلما يفارق ركاب

صلاح الدين الا لامر هام . ولم يكن يراه أحد الا أحبه لجماله و بسالته مع ذكاء وفصاحة . فلما صار صلاح الدين خارجاً صاح « اين عماد الدين ؟ »

فتقدم الشاب وعيناه تتكلمان قبل لسانه وقد لبس ثوباً من أثواب الحرس الخاص لصلاح الدين وهو السراويل القصيرة وحول الخصر منطقة من جلد فيها عروة مذهبة وفوقها دراعة مطرزة بالقصب وعلى رأسه عمامة صغيرة كالطاقية مزركشة بالقصب . وقد علق بمنطقته سيفاً قصيراً وغرس فيها خنجراً فلما وقف بين يدي صلاح الدين قال له « هلم بنا الى منظرة اللؤلؤة فقد أمر الخليفة أن ينزل والدي هناك وانا انزل معه الآن »

فاهتم عماد الدين بارشاد الركب الى المكان وركبوا جميعاً الى المنظرة المشار اليها وكانت على خليج القاهرة . فقطعوا الميدان بين القصرين ومروا بجانب القصر الغربي الى البستان الكافوري احد متنزهات القاهرة وانتهوا منه الى المنظرة على ضفة الخليج الشرقي اى من جهة قصور الخلفاء المقدم ذكرها . وهي تشرف على الخليج من الغرب ووراء الخليج غرباً بركة كان يقال لها بطن البقرة ووراءها ارض الطبالة و بستان المقسي (الفجالة وباب الشعرية وما يليهما الآن) ووراءها بركة الاربكية الى مجرى النيل

الفصل الخامس

منظرة اللؤلؤة

وكانت المنظرة المذكوره من اجمل منتزهات القاهرة لها حديقة تتصل بالخليج فيها الاشجار والرياحين والازهار . وفيها القاعات والمقصورات في اجمل ما يكون من الفرش الثمين اشبه ما كان للخلفاء في قصورهم من ستائر الديباج المطرز بالذهب والبسط المحوكة بالذهب وسائر الآنية من العاج وخشب الصندل وفيها الارائك والوسائد . وقد سرح في البستان مئات من الطيور الداجنة على اختلاف انواعها والحانها بعضها في الاقفاص والبعض الآخر مطلق . وعلى ضفة الخليج مجالس من الخشب كالشرفات قد فرشت بالسجاد عليها المساند المزركشه وفوقها مظلات من الخشب تعرش على النبات وكل ما في المنظرة ثمين يستوقف النظر وناهيك بانها كانت منتزهاً للخلفاء الفاطميين في ابان دولتهم

وصل نجم الدين وابنه ومن في ركابهما من الحاشية فتلقاهم غلمان المنظرة بالاطياب والبخور فدخلوا الى قاعة كبيرة للاستراحة ومعهم بعض الخاصة من رجالهم جلسوا ساعه لم يدر فيها من الحديث غير العام المتعلق بالاسفار وما قد يراه المسافر في طريقه من التعب او الراحة وتخلل الحديث طبعاً ذكر الافرنج (الصليبيين) الذين كانوا يومئذ اصحاب السيادة في نواحي سوريا وفلسطين وكثير من مدنها

ثم مالت الشمس الى المغيب وقد اعدت مائدة العشاء فتناوله معهما طائفة من الخاصة وفيهم شمس الدين . فلما فرغوا من الطعام انصرف الخاصة كل منهم الى فراشه في المنظرة وتركوا نجم الدين وابنه على حده

لعلمهم ان نجم الدين لم يأت مصر الا لامر هام يريد ان يسره الى صلاح الدين

اختلى نجم الدين بابنه في غرفة انيقة بالسجوف الضخمه وفيها ما تورن الشمعة منه عدة ارطال وقد رأى نجم الدين في قصور القاهره ما لم يره مثله في دمشق الشام . وما صدق انه خلا بصلاح الدين فاتكأ على وسادة واشار اليه ان يقعد بين يديه وقد تحففا ملابس الرقاد . وفي يد نجم الدين انبوبة حرص عليها منذ بدل ثيابه

ولما قعدا قال نجم الدين « سرني يا يوسف ما رأيته من منزلتك عند هذا الرجل ولكني رأيتك لا تحترمه كثيراً وهو يرى نفسه خليفه وملكاً »

فضحك صلاح الدين وقال « هل يكفي يا ابي ان يرى نفسه كذلك ونحن نعلم انه اسيرنا .. وصنيعتنا .. »

فقطع نجم الدين كلامه قائلاً « نعم ولكن الامر لم يتم لنا بعد فلا ضرر من المجامله ومراعاة العادات الجاريه .. على اني أراك من الجهه الاخرى تحاذر غضب رجاله وانصاره رغم ما يأتيك من لدن نور الدين في أمر البيعة والدعوة للخليفة العباسي »

قال « وكيف ذلك يا ابتي »

قال « الم نكتب اليكم منذ عام ان تدعو للخليفة العباسي على منابر القاهرة ولماذا هذا التأخير ؟ »

فاطرق صلاح الدين لحظة وقد ظهر الاهتمام في محياه .. ثم رفع بصره الى ابيه وقال « تدعوني الى المجاملة ثم تعاتبني على تأخير الدعوة . وليست تلك الدعوة الا اعلان العباسيين على مصر وسقوط دولة الفاطميين . ولا يخفى عليك ما يكون من تأثير ذلك في نفس هذا الخليفه المسكين وما الذي يهمنا من مصر غير ان يكون لنا الكلمة النافذة والصوت المسموع

والربع المطلوب؟ ولنترك هذا الخليفة الساب يفرح بالقاب الخلفاء ومجاملاتهم حتى نرى ما يأتي به القدر . . ان اعلان سيادتنا على مصر امر ميسور متى تشا . . وعهدي بك انك تحب التؤدة »

قال « نعم يا بني ولكن نور الدين يلح في دلك وقد وعد الخليفة العباسي المستنجد بالله ان يدعو له على منابر مصر . فلما تأخرت الدعوة بعث الخليفة اليه يستبطئه فكتب نور الدين اليك كتابا يستحثك فيه على دلك . وقد اوفدني لتبليغك هده الرسالة وهدا هو كتابه » ودفع اليه الانبوبة

فتناولها صلاح الدين واستخرج منها لفافة قرأها واكثر من الامعان في فحواها ولا سيما قوله بعد التحريض على اعلان الدعوة « وهدا امر تجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت . لا سيما وامام الوقت متطلع الى دلك بكليته وهو عنده من اهم امنيته »

واطال صلاح الدين النظر في دلك الكتاب وابوه يراقب ما يبدو في وجهه من التغيير وقد ادرك ما في خاطره فقال « ما بالك يا يوسف . . ما الذي تحدثك نفسك به ؟ »

قال « تحدثني نفسي بامر لا تجهله يا سيدي »

قال « لا بد من اعلان الدعوة العباسية . . هل دلك صعب عليك؟»

قال « كلا . . ولكنني اراك تتجاهل امراً آخر اضمره »

قال « فهمت مرادك انك تفكر في امر نور الدين . . وهل ادا اعلنت الدعوة في المساجد للعباسيين تكون مصر ملحقة بالشام تابعة لنور الدين ام . . ؟ »

فابرقت اسرة صلاح الدين ولمعت عيناه واتم كلام ابيه قائلاً « ام لصلاح الدين وحده ؟ »

فابتسم ابوه وقال « انك تتعجل امراً لا بد من التؤدة فيه انما يهمنا الآن الدعوة »

قال « اما الدعوة فسأنظر في امرها ولكنك لم توضح لي رأيك من الوجه الآخر »

قال « وما هو ؟ »

قال « أنت تعلمه ولكنك تريد أن تسمعه من فمي فاسمع انى قد دبرت أمر مصر وضبطت شؤونها بسعي وتدبيري وسيف عمي من قبلي . ونور الدين قاعد في قصره بدمشق ومملكته واسعة ومماليكه كثيرون . فهل من العدل أن تكون مصر له أيضاً ونحن من خدمه أو قواده ? ما الذي يمتاز به نور الدين عنا ألعله اشجعنا بماله ? نحن اسنا مماليكه . انما قواد . . وهذه مصر يستحيل عليه اخضاعها بدوني . فانا لا ابايع للخليفة العباسي الا على أن أكون انا صاحب مصر وليس نور الدين . . »

وما اتم كلامه حتى بان الغضب في جبينه مع الاهتمام وتفرس في وجه أبيه ليرى رأيه في ذلك فابتسم نجم الدين وقال « بورك فيك يا يوسف انك تطلب السيادة . وأنت أهل لها . ولكن لكل أجل كتاب »

قال « أحب أن اعلم رأيك . ألا ترى لي حقاً في ما أقول »

فضحك نور الدين ضحك استخفاف وعبث بلحيته يتخللها باصابعه ثم قال « ان الحق يا بني للقوة — تلك هي قاعدة أصحاب السياسة . والا لوجب علينا أن نخرج من هذا البلد ونتركه لاهله لان مجيئنا انما استنجد نور الدين لينصره على رجل من خاصته تمرد عليه فانجده بعمك أسد الدين وانت معه . وكان ينبغي لكما ان تخرجا من مصر بعد الفراغ من تلك المهمة

وقبض ما تستحقانه من الاجر على نصركم . فبقاؤك هنا سواء كان باسم نور الدين أو باسمك حسبع . وانما تعده حماً اذا كنت قادراً على تنفيذه والحق هو القوة يا بني — تلك هي سريعة الفاتحين »

وكانت حجه نجم الدين قوية الى درجة لم يقوَ معها صلاح الدين على المدافعة وكاد يفحم . لكنه طامع في البلد ويريد ان يتذرع باية وسيلة كانت لنيل مرامه . فنهض وهو يتشاغل باصلاح عمامته الصغيرة ثم أخذ في فتل شاربيه وهو ينظر الى احد جدران الغرفة التي هم فيها ويتأمل صوراً ملونة مرسومة هناك لم يشاهدها من قبل . وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب . فتقدم نحو الجدار وتفرس في الصور فرأى تحت كل صورة اسم صاحبها . واذا هم من شعراء الدولة الفاطمية الذين كانوا يمدون على الخلفاء في ايام مجدهم . وقد ذكر حادثاً سمعه عن الخدمة الآمر باحكام الله الفاطمى انه لما بنى منظرة بركة الحبش صور الشعراء على جدرانها كل شاعر وبلده ونظم كل واحد منهم يومئذ قطعة من الشعر في المدح نقشوها عند رأسه فى الصورة . وبجانب صوره كل منهم رف مذهب . ولما دخل الآمر وقرأ الاشعار أمر ان يضع على كل رف صره مختومة فيها خمسون ديناراً وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده (١)

وقف صلاح الدين هنيهة عند تلك الصور وهو غارق في الهواجس . فادرك ابوه ما يجول في خاطره فسكت ليرى ما يكون منه وتشاغل بالنهوض ايضاً ثم أظهر انه يهم بالذهاب الى الفراش وصلاح الدين لا يستطيع رقاداً قبل أن يوافقه ابوه على الطلب . فالتفت اليه وقال « تمهل يا ابتاه . . ان هذا الخليفة دعانا الى نصرته على الافرنج وأهل القاهرة انفسهم راسلوا نور الدين وبذلوا له ثلث بلاد مصر اقطاعاً وأن يقيم عمي أسد الدين عندهم

---

(١) المقريزي ٤٨٦ ج ١

وله الاقطاع هو ورجاله أيضاً — لا أن يمضي مهمته وينصرف كما تقول . ثم نكث وزيره ساور ولم يف بما وعد فقتلته انا بيدى فصفا لنا الجو . ولو لم اقتله لم يكن لنور الدين اقطاع ولا .. »

فقطع نجم الدين كلامه وهو يمشي نحوه وقال بلهجة الشيخ الوقور « انك تخاصم نور الدين على غنيمة لا تزال في حوزة اصحابها ولا يحق التنازع بينكما عليها الا بعد اخراجها من قبضتهم . وهذا لا يكون الا بنقل الدعوة من الفاطميين الى العباسيين ثم نرى بعد ذلك . وهذا يكفي الآن ... »

وكان نجم الدين يعود على أنه مثل يعود السحر فاكتفى صلاح الدين بما سمعه وتحول وهو يقول « انك في حاجة الى الرقاد يا ابتي » وأمر الخدم ان يهيئوا الفراش وذهب كل الى منامه

الفصل السادس

العاضد وابو الحسن

اما الخليفة العاضد فقد تركناه في قاعة الذهب بعد خروج نجم الدين وابنه ولم يبق معه الا ابو الحسن فلما خرج الكرديان أمر الخاجب أن يأتي بصاحب اللباس لينزع عنه ثيابه وحلاه لانه في حاجة الى الراحه وأن لا يأذن لاحد في الدخول . فأتى صاحب اللباس واشتغل في نزع العمامة وما عليها من الجواهر ووضع كل قطعة في علبة خاصة بها وجاء الوصائف يحملن الثوب الآخر ليلبسه الخليفه وقد تغيرت سحنته وانقبضت اسرته واحمرت عيناه وشعر ببرد طقطقت له أسنانه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فبادر ابو الحسن اليه فاسنده والح في التخفيف عنه ،

ولكنه حالما لمس يده أحس بحرارتها فعلم أن الخليفة مصاب بالحمى لكنه لم يشأ ان يخوفه

ولما فرغ الخليفة من تبديل الثياب القى نفسه على السرير وقد أحس بانحطاط عزائمه فقال له ابو الحسن « بماذا يشعر مولاي أمير المؤمنين ؟ »

قال « أشعر بارتعاد مفاصلي وبرد يمشي في ظهري . . لا أظنه الا من عواقب الكظم وتحمل الضيم .. آه يا ابا الحسن . » قال ذلك بصوت مختنق وتلألأ الدمع في عينيه

فبادر ابو الحسن الى التهوين عليه عنه فقال « انكل احل كتاب يا مولاي ولا بد من زوال هذه الازمة »

فقال وهو يلهث من شدة الحمى « شعرت بهذه القشعريرة منذ ركبت في هذا الموكب لملاقاة هذا الكردي . آه كيف اقوى على احتمالهم وقد سلبوني ما في يدي سيادة وثروة ؟ وانا مع ذلك لا اقدر الا ان احاملهم والاطفهم وارحب بهم »

فبسط ابو الحسن لحيته أمامه ثم قبض عليها وهو يتمتم كأنه يدعو او يصلي ويظهر التقوى وسعة الصدر وقال « لا بد من الصبر يا مولاي ولا شك ان الله سامع دعاءنا . فاني اصلي ليل ونهار واطلب اليه تعالى ان ينصفك من هؤلاء الظالمين . . »

فقال « الى متى الصبر يا ابا الحسن . كأنك لم تعلم بما فعلوه معي . . ولم تسمع الا مجاملتهم لي بالكلام ومخاطبتي بالامارة . . . انهم لم يتركوا لي من هذه الامارة الا لفظها . ان يوسف صلاح الدين هذا قد منع المؤذنين الاذان « حي على خير العمل » كما كانوا يفعلون في دولتنا وعزل قضاة مصر لانهم من شيعتنا وولى قضاة شافعية [1] على مذهبه — وقبض

(١) حسن المحاضرة ٢٥ ج ٢

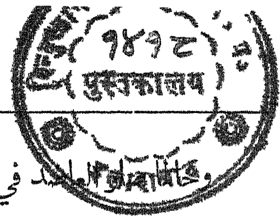
على مرافق البلاد بيد من حديد . . . . وتقول لي اصبر ! اين الصبر ؟ »
قال ذلك وعض بر بقه

وكان ابو الحسن صفراوي المزاج لمفاويه لا يبدو في سحنته شيء من التأثرات مهما بلغ من تأثيرها في قلبه . أو لعل قلبه لا يتأثر الا بما يريده . او هو قادر على التظاهر بما يشاء من غضب او فرح أو حزن بغير ان يكون ذلك ناتجاً عن تأثر قلبي . فلما سمع قول الخليفة تنحنح واظهر الاهتمام وقال « لا ازال اقول لك اصبر . اتكل عليّ فاني باذل نفسي في سبيل هذا الامر وهو يهمني كما يهمك . أليست الدولة دولتنا والسبعة سبعتنا وفي حياتها حياتنا وفي موتها موتنا لا سمح الله . ... ان فاعل ما تريد ولولا خوفي من التثقيل عليك لذكرت لك التفاصيل . ولكنك الآن في حاجة الى الراحة فامض الى فراشك اذا شئت . وسأقص الخبر على الشريف الجليس وهو يقصه على مولاي ؟ »

فقال وهو يتململ من السعر بره والسحوبه « افعل . انى ذاهب الى دار النساء » قال ذلك ونهض فاعانه ابو الحسن على القيام واتى بعض الخصيان تعاونوا على حمله على محمه في دهليز يؤدي الى دار النساء وودعه ابو الحسن وقال « انا ذاهب بامرك الى الشريف الجليس أقص عليه ما يسرك ثم يلحق هو بك الى دار النساء

فاشار الخليفة برأسه ان افعل

وكانت دار النساء قصراً قائماً بنفسه لكنه يتطرق اليه من دار الذهب بدهليز مسقوف لانتقال الخليفة اليه متى شاء والقصر باب خاص عليه الحرس من الخصيان وكان رئيسهم من عهد غير بعيد خصياً اسمه مؤتمن الخلافه فاتى عملاً اغضب صلاح الدين فقتله وجعل مكانه الطواشي بهاء الدين قراقوش احد رجاله الخلصين



وحاشية العاضد في تلك الدار انزلوه من المحفة فمشى وهو يتوكأ على بعض الغلمان وهم يظنونه يطلب الذهاب الى حجرة احدى نسائه . فاذا هو يسير اليهم أن يأخذوه الى حجرة اخته سيدة الملك. وكانت امرأة عاقلة حازمة يرتاح العاضد لحديثها ويستأنس بآرائها . كانه وهو في تلك الحال احس بحاجته الى رأيها

الفصل السابع

سيدة الملك

فساروا به في رواق يؤدي الى غرفتها وهي منفردة عن سائر غرف القصر ولما بلغ السيدة قدومه خرجت لاستقباله ورحبت به واعانته على الدخول الى غرفتها فجلس على مقعد وهي تقول له « ما بال أخي امير المؤمنين ممَّ يشكو ؟ روحي فداه »

قال « اشكو من برد وقشعريرة .. اصرفي الخدم .. فاني أحب السكينة وأن لا يبقى في هذه الغرفة غيرنا »

ففعلت . وكانت سيدة الملك جميلة الخلقة طويلة القامة صبوحة الوجه ذهبية الشعر جذابة النظر اذا نظرت في وجهها شعرت بهيبة تتجلى في عينيها . وهي اكبر من أخيها الخليفة ببضع سنين أي انها في الخامسة والعشرين من العمر

فلما خلت به جلست بجانبه على السرير وطوقت عنقه بيدها وهي تقول « ما بال أخي؟ ممَّ يشكو ؟ حماه الله من كل أذى . اذا اعتلَّ أمير المؤمنين اعتلّ الناس جميعاً »

فاسند رأسه الى كتفها وتنفس الصعداء وهو يقول « أشكو حسب

الطاهر من حمى تنتابنى .. لكن العلة الحقيقية فى [illegible] وأشار الى صدره . ثم أرخى يده من شدة الحمى فجستها فرأتها شديدة الحرارة فقالت « هل ادعو لك الطبيب ؟ »

قال « كلا . . ان هذه الحمى ستنصرف الليلة . ولكن اذا كنت تعرفين طبيباً ينقذني من أولئك الاكراد ادعيه »

فاظهرت انها تمازحه وقالت « لو عرفت طبيباً فى الهند وعلمت انه يشفيك لذهبت اليه بنفسي ولكن .. »

فرفع رأسه عن كتفها ليعانقها بنظره . فوقعت عمامته فمد يده ليتناولها فتناولتها هي ووضعتها على رأسه فقال « انك تتجاهلين يا سيدة الملك . . انك أفطن من ان تنتبهي الى مرادي بالطبيب »

فضحكت وقالت هب انى فهمت مرادك فانا لا أرى الامر يستوجب الاهتمام الى هذا الحد .. اصبر لا بد من الفرج . »

فتنهد وهو ملق رأسه على كتفها وحوّل عينيه نحو وجهها ازورارا وقال « لم أجد بين رجالي من يسعفني فى هذا الامر الا ابن عمنا ابا الحسن فانه تقي غيور . وقد اكد لى انه باذل جهده فى هذا السبيل »

فلما سمعت اسم ابي الحسن اجفلت وكادت البغتة تظهر فى وجهها لو لم تبادر الى التجلد ولو انتبه العاضد وهو مستلق على صدرها لشعر بتسارع ضربات قلبها حالما سمعت ذلك الاسم لكنه كان في شاغل من أمر نفسه . أما هي فتجلدت وقالت « كيف أكد لك ذلك ؟ »

قال أكد لي اليوم [illegible] لا يريد الا [illegible] وهو [illegible] علينا ذلك متى جاء بعد قليل .. »

قالت « هل تنتظره [illegible] الليلة [illegible] [illegible] في عينيها

قال « كيف لا أصدقه . انه رجل محب مخلص ومن ذوي قرابتنا وأنت تعلمين غيرته على دولتنا »

هزت رأسها وسكتت ولسان حالها يقول « انه منافق مرائي »

فاعتدل العاضد في مجلسه لان الحمى اخذت في الهبوط واسندت عرائمه وقبض على يد اخته وهو يقول « أرى الحمى تخف وطأتها عني أليس كذلك ? .. أنت يا سيدة الملك سيئة الظن في هذا الرجل منذ عرفناه لغير سبب أو دليل . . فانه من ابناء عمنا . . نعم انه ليس من أحفاد الحافظ لدين الله جدنا . ولكنه من أحفاد الآمر باحكام الله فهو من اعمامنا .. »

قالت « طيب . فليكن ما شئت » وتشاغلت بطرف ضفيرتها الذهبية تفتلها بين انامل‍ها وبان الغضب في وجهها

فقال « وما الذي يغضبك من ذكره ? انك تكرهينه بلا سبب وهو بعكس ذلك لم اسمع منه الا التعلق بك . . انه يتفانى في سبيل ارضائك »

فنظرت اليه سراً نظر العاتب وقالت « كثر الله خيره..انى لا التمس هذا الرضى »

قال « لا حاجة بنا الى التمسك بالرفض وهو ابن عمنا »

فقالت بصوت المرتاب « ومن يؤكد لنا صدق انتسابه الى الآمر . ليس عنده دليل غير شهادته لنفسه . . دعنا منه انه لا يستحق هذا الاهتمام »

قال « انك تظلمينه بهذا الحكم » واراد ان يتم كلامه فاذا باحد الغلمان دخل ووقف فعلمت سيدة الملك انه آت بخبر فقالت « ما وراءك »

قال « ان الشريف الجليس بباب القصر يطلب المثول بين يدي

مولانا أمير المؤمنين — والطواشي بهاء الدين قراقوش يمنعه »

فالتفت الى الخليفة وسأله اذا كان يشعر براحة تؤهله لمجالسة الشريف فقال « انى اشعر براحة فليأت »

فالتفتت الى الغلام وقالت « امض الى الطواشي وقل له ان أمير المؤمنين انما يريد أن يرى الشريف الجليس فلا يمنعه من الدخول »

فمضى الغلام . واحست سيدة الملك باشياء اخيها من معاملة بهاء الدين ولكنها تجاهلت . وبعد قليل جاء الجليس وهو شيخ طاعن في السن يجالس الخليفة ويؤانسه ويحادثه وهو مستودع اسراره

فلما رآه الخليفة هش له وأمره بالجلوس بين يديه . ولم تحتجب سيدة الملك عنه لانه من المقربين وقد تعودته من صغرها فاكتفت بتغطية شعرها والالتفاف بطرف من الخز فوق أثوابها وجلست على كرسي تجاه سرير أخيها

اما الخليفة فنظر الى الجليس نظر الاستفهام عما جاء به فادرك غرضه فقال « جئت للسؤال عن صحة مولاي . . فقد بلغني من الشريف ابي الحسن انك أصبت بحمى . لا اصابك الله بسوء واراحنا فداك »

فابتسم وقد استلطف عبارة الجليس وقال « انى بدعائك وحسن نيتك قد زال عني كل بأس حسب يدي . . قد ذهبت الحمى . . . ما الذي جئتنا به غير ذلك ؟ »

فحس يده واشار هنيهة اشارة الاقتناع وان لم يقتنع لان الحمى لا تزال وقال « نحمد الله على ذاك »

فقال الخليفة « وما الذي جئتنا به »

قال « خيراً ان شاء الله » وظهر في ملامح وجهه انه يكتم شيئاً لا يستحسن ذكره بين يدي سيدة الملك

فادركت دلك ونهضت وقالت « اذا كان وجودي يمنع الجليس من الكلام فانى خارجة »

فامسك اخوها بثوبها وقال « اجلسي . . لست ممن يكتم عنهم . . تكلم يا عماه قل ما الذي جئت به ؟ »

قال « اني جئت بامر ذي بال . . هل تأذن ان اقول كل شيء ؟ »

قال « قل . . لا تخف ما الذي اطلعك عليه ابو الحسن من مساعيه في سبيل مصلحتنا ؟ انه محب غيور ؟ »

قال « اصبت يا سيدي ان ابا الحسن شديد الغيرة على منصب امير المؤمنين وهو ساع في انقاذنا من هذا العدو المقيم »

قال الخليفة « سمعته يقول ذلك اكثر من مرة وعد بتفصيله . فهل فصله لك ؟ »

قال « فصله تفصيلاً اعجبني »

فتوجه الخليفة نحو الجليس باهتمام وقال « وما هو ؟ »

الفصل الثامن

الحشاشون

قال الجليس وهو يخفض صوته و يتطاول بعنقه كأنه يحاذر ان يسمعه احد « يرى ابو الحسن يا مولاي ان العقدة التي يطلب حلها انما هي يوسف صلاح الدين هذا . فاذا ذهب تخلصنا من كل هذه الشرور . . وابو الحسن يسعى في انقاذنا منه »

فقال العاضد « وكيف ينقذنا ؟ »

واسار الجليس بكمه على عنقه اشارة الذبح يعني انه يقتله . فمان

الاستغراب في وجه الخليفة وقال « من يقتله ؟ ليس في مصر كلها من يجسر ان يمد يده اليه »

قال « ليست هذه حكاية . . انه سيقتل هذا الرجل بدون ان يعرف القاتل »

قال « وكيف يمكن ذلك ؟ »

قال « ألا يعرف مولاي جماعة الباطنية او الاسماعيلية ؟ »

فاجفل العاضد عند سماع ذلك الاسم وقال « نعم اسمع بهم . واسمع انهم من انصارنا »

قال « اصحابهم من شيعتنا ولكنهم الآن قوم شعارهم القتل

فقطع الخليفة كلامه وقال « ليس هـذا شأنهم اليوم فقط . ابي حدثني عن افعالهم غير مرة . ألم تقل لي انهم قتلوا الملك الافضـل امير الجيوش وزير الآمر باحكام الله وكان رئيسهم يومئذ بهرام . وهم قتلوا نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي وقتلوا غيره ؟ »

قال « نعم يا سيدي وقتلوا كثيرين غيرهم — هذا هو شعارهم »

فقال العاضد « من هو زعيمهم الآن ؟ وأين هم ؟ »

قال « ان اصحابهم يا سيـدي من اتباع الحسن بن الصباح في زمن جـدك الحاكم بامر الله رحمه الله اي منذ اكثر من مئة وخمسين سنة فقام حسن هذا في قلعة ألاموت قرب قزوين وانشأ جمعية من الفدائيين الذين لا يخافون الموت . ويعرفون بالباطنية او الحشاشين نسبة الى تعاطيهم مخـدراً يتناولونه يسمونه الحشيش وتولى شأنهم رؤساء كثيرون في بلاد فارس والعراق والشام وزعيمهم الآن يقال له راشد الدين سنان ويقيم في جبال السماق من اعمال حلب [illegible] يطيعونه حتى الموت اذا امر احدهم بقتل ملك او [illegible]

حالاً . وقد قتلوا كثيرين كما ذكرت . وللشريف ابى الحسن صداقة شخصية مع سنان هذا بالنظر الى نسبه الشريف وله عليه دالة فاذا امره ان يبعث رجلاً يقتل هذا الرجل فعل . . »

فبان الشر في عيني العاضد لخالطه الاستغراب وقال « وكيف يستطيع القاتل ان يدنو من هذا المعسكر . وكيف يتصل الى عمله ودون الوصول اليه جنود وعراقيل كما تعلم »

قال « ان هؤلاء الفدائيين يتنكرون عادة بالبسة السياس او الخدم ويختلطون بالخدم ريثما يترقبون الفرص فاذا سنحت فرصة فعلوا فعلهم ثم لا يهمهم ماذا يصيبهم بعد ذلك ولا يبالون بالموت لانهم يرون القتل في هذا السبيل حياة سعيدة »

فالتفت الخليفة الى اخته يلتمس مشاركتها اياه في الاعجاب فرآها مطرقة تفكر فقال لها « أرأيت اهتمام هذا الشريف في مصلحتنا ؟ »

فظلت ساكتة ولم تجب

فالتفت الى الجليس وقال « هل اخبرك متى يباشر هذا العمل ؟ »

فتشاغل الشيخ بحك عثنونه وسعل وتنحنح وبان الارتباك في عينيه فلم ينتبه الخليفة له . اما سيدة الملك فلم يفتها ما ينطوي تحت تلك الحركات واخذت تختلس النظر وتصيخ سمعها فاذا هو يقول « انه يا مولاي يشترط على هذا العمل شرطاً واحداً »

قال « وما هو ؟ اظنه يعني الفروج باختي . »

فاجفلت سيدة الملك عند هذا التصريح الفجائي لكنها حولت وجهها الى ستارة معلقة بالحائط مطرزة بألوان بديعة فيها صور الطيور والاشجار تأخذ بالابصار وأظهرت انها تتفرس في بعض صورها

اما الجليس فقال « لم يذكر ذلك لي ولكن . . مولاي يعلم . .

ان ابا الحسن عريق فى النسب الشريف . . وهو . . أكبر ابناء عمكم المرشحين لولاية العهد سناً . . و و . . . »

فلحظت سيدة الملك غرضه فبادرت الى الانتقام من تأمر سمارة اخيها عن زواجها فقالت « أظنه اشترط أن يكون وليا للعهد بعد أمير المؤمنين »

فاجاب الشريف بسرعة كأنه يعتذر عن تطاول ابى الحسن قائلاً « ان ظنه هذا من قبيل الجنون . . ولا معنى له لان مولانا أمير المؤمنين اطال الله بقاءه وعجل موتنا قبل ان يصاب بسوء لا يزال شاباً في مقتبل العمر وابو الحسن فى حدود الكهولة . ولكنه يشترط ذلك ترضية لنفسه على تحمل تلك المشقة . . مع ما يحدق بها من الخطر . ومن يدرى هل يبقى حياً يوماً واحداً بعد تمهيد مهمته ؟ »

فقال الخليفة « يشترط أن يكون ولى عهد الخلافة بعدى ؟ »

قال « أطال الله عمر أمير المؤمنين ان الرجل لا يرجو ان تتم لى الملك ولكنه يجب أن يتمتع بولاية العهد فقط على ما يظهر »

فاطرق الخليفة وهو يعمل فكرته والتردد ظاهر فى عينيه ثم رفع بصره الى الجليس وقال « وما رأيك ؟ »

قال « اذا اذن لي مولاي أرى ان يوليه الولاية و يشترط فى عقدها ان يكون بعده الى الحاكم سيدى الحامد لله الامير داود ولى العهد الحقيقى فاذا استطاع انقاذنا من هذا الكردى واعادة العهد الى مولاى أمير المؤمنين ، فانه يكون قد استطاع ما لم يستطعه سواه ويكون ولاية العهد رغبة معقودة له »

الفصل التاسع

حرية الفكر

ولحظت سيدة الملك ان اخاها أوسك أن يقبل وظهر لهـا من خلال حديثه انه راض أن يزوجها به وهي لا تقدر أن تتصوره بل هي تكرهه كرهاً شديداً لغير سبب غير الشعور الذاتي . فانها تتصور فيه الخبث والخيانة وهي منصفة لا ترى صلاح الدين يستحق القتل لأنه لم يعمل عملاً استوجب ذلك وانما هي تعزو السيادة تحمل طلابها على انتحال الاسباب الباطلة — فنظرت الى اخيها وقالت « تريد ان نقتل صلاح الدين وتستبدله بابي الحسن هذا ؟ »

قال « لا أستبدله .. لكنه اذا استطاع قتله سميته ولي العهد »

قالت « وماذا تفعل بداود ابنك ؟ »

قال « يكون ولياً للعهد بعده »

قالت « ولماذا هذا العمل لماذا تريد التخلص من صلاح الدين ؟ وترتكب كل هذه الآثام والاخطار في سبيل قتله . ماذا فعل ؟ »

قال « تسأليني عما فعله ؟ كأنك لا تعلمينه ؟ »

قالت « ربما كنت اعلمه لكني أحب ان يقول ذلك أمير المؤمنين من فيه »

قال « انه جعل كل النفوذ اليه ولم يبق لي من السيادة غير الاسم »

قالت « وهل كان النفوذ اليك قبله ؟ ألم يكن الوزراء هم اصحاب النفوذ ؟ وكلهم من الاجانب الارمن أو الاتراك . وهذا كردي وما الفرق بينهم ؟ »

فقال « لكنه استبد وغير وبدل و . . . »

فأحست أنها فازت عليه بالبرهان فلم تصبر حتى يتم كلامه فقالت « إذا كان قد استبد فإنما استبد في رفع المظالم عن الناس . كانت المكوس لا تحتمل فرفعها أو خففها . . ألأجل ذلك تدس الدسائس حوله وتكيد المكائد لقتله ؟ إن الساعين في ذلك هم طلاب السلطة يحسدون الرجل على مكانته ويثيرون غضب أمير المؤمنين عليه . وإذا شاء أخي أن يعرف حقيقة منزلة هذا الكردي فليتذكر الطريقة التي استنجدنا بها سلطانه نور الدين ألم ترسل شعورنا مع كتاب إلى نور الدين تقول فيه « هذه شعور نسائي في قصري تستغيث بك لتنقذهن من الصليبيين » ؟ فأرسل إلى الطالب وانجدك بأسد الدين وابن أخيه هذا يوسف صلاح الدين . . هل استنجد فاتك بطريقة أذل من هذه ؟ إن شعري لا يزال ينقص طول الخصل التي قطعتها منه . قالت ذلك وجست ضفائرها كأنها تتحقق ذلك . ثم عادت إلى الحديث فقالت « ومع ذلك فقد اشترط أسد الدين أن نعطيه ثلث البلاد إقطاعاً غير إقطاع رجاله . ولما أنهم أنقذونا من الإفرنج نسينا جميلهم وشاء وزيرك شاور يدافعهم ويماطلهم فقتلوه . فأشهد الله أن صلاح الدين أحسن قياماً وأشد إخلاصاً لك من شاور هذا . لكننا لم نستفد من هذا الحادث فسمعنا الخصي مؤتمن الخلافة ثم هذا الأمير على مناهضة صلاح الدين ورجاله حسداً منه ألا تعلم يا مولاي وأخي ماذا فعل مؤتمن الخلافة ؟ إنه تآمر مع جماعة من المصريين على [illegible] الصليبيين [illegible] صلاح الدين . وهل فعل ذلك عن [illegible] الدولة [illegible] صلاح الدين [illegible] حصان القصر [illegible] [illegible] واهتموا رجال صلاح الدين [illegible] لا [illegible] [illegible]

يشرف على المقاتلة وهواه مع السودان . فاشتدت عزائمهم وخاف صلاح الدين أن تعود العائدة عليه وعلى رجاله فأمر النفاطين أن يرموا قوارير النفط المشتعل على المنظرة وعلى القصر و . . »

فقطع الخليفة كلامها قائلاً « ولكني شجعت رجال صلاح الدين فارسلت زعيم الخلافة يقول « دونكم والكلاب العبيد أخرجوهم من بلادكم» فامتنعوا عن ارسال النفط »

قالت « ولكنك لم تقل ذلك الا خوفاً على المنظرة من الحريق » وكانت سيدة الملك تتكلم بحماسة وكل جوارحها تتكلم معها وقد توردت وجنتاها وابرقت عيناها . فلما وصلت الى ذكرى الحريق امتقع لونها وتغيرت ملامحها كأنها فوجئت بذكرى محزنة فتوقفت عن الكلام . فاستغرب أخوها تغيرها فجأة والتفت الى الجليس فرآه ينظر اليها أيضاً

أما هي فتجلدت وعادت الى الكلام قائلة « ولم يكن كلامك وحده الذي أوقفهم . . »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « دعنا من هذا الموضوع الآن . . لان في تذكاره ما يؤلمني ويؤلمك . . وأنت احوج الى الراحة والسكينة » وتشاغلت باصلاح نقابها على رأسها

فحس العاضد يده وقال « اني في خير ولا بأس بي وقد زالت الحمى والحمد لله قولي ما هو السبب الآخر »

قالت « هل أقول ؟ »

قال « قولي . »

الفصل العاشر

خصلة الشعر

فمدت يدها الى جيبها واستخرجت خصلة من الشعر ذهبية من لون شعرها ودفعتها اليه وهي تقول « هل تعرف هذا الشعر ؟ »

فاجفل وقال « هو شعرك » هذه هي الخصلة التي قطعتها من شعرك وارسلتها في حملة شعور نسائي الى صاحب دمشق .. من أين أتتك ، وكيف وصلت اليك ؟ »

قالت « وصلتني في ذلك اليوم الذي انشبت فيه الحرب بين عبيدنا ورجال صلاح الدين »

قال « وكيف ذلك »

قالت « قد ذكرت انت الآن ان صلاح الدين منع رجاله من ارسال قوارير النفط قبل ان يطلق منها شيء على القصر .. قد يكون هذا هو الواقع لكنني اعلم اننا ونحن في هذا القصر وقلوبنا ترتجف هلعاً والسهام تترامى علينا من رجال صلاح الدين رأيت قارورة مشتعلة وقعت في الدار قرب حجرتي هذه لا أدري من أين أتت فذعرت وصحت بالخدم أن يتلافوا خطرها فلم يسمعني أحد لاشتغال الرجال برمي النشاب بعيداً عني . وأنا في ذلك وأهل القصر كل منهم في شاغل من نفسه رأيت رجلا متنكراً بثوب الخصيان قد غطى وجهه باللثام وثب من داخل الدار ـ لا أدري كيف دخلها . فذعرت ولكنني طاوعته أسرع الى نجدتي فما عتمت ان رأيته امسك بيدي وجذبني نحوه كأنه يريد ان اتبعه فابتعدت منه فعاد وامسكني ثانية وجذبني اليه كأنه يريد أن يحملني ويطير بي ولم يكن في هذه الغرفة

أحد يراني فصحت واستغثت فلم يسمع صوتي لان الضوضاء كانت قد ملأت هذا الفضاء ثم جاء رجل آخر اعان الاول على اجتذابي وهما يشيران الي أن اتبعهما حالا وهددني احدهما بخنجر استله من منطقته فأثر في ذلك المنظر وخارت قواي . وكدت أغلب على أمري وقد ذهب نقابي وانحل شعري . وانا في ذلك رأيت شابا وثب نحوي يظهر من لباسه انه من رجال صلاح الدين فأيقنت انه سيعين ذينك الرجلين علي واذا به صاح بهما صيحة الجبارين وخنجره مسلول في يده وأوشك أن يقتلهما جميعا فلما رأياه خافا وتركاني واركنا الى الفرار . وظل هو واقفا كالاسد ونظر الي بلطف وقال « من هم اولئك الانذال ؟ »

قلت « لا أعلم . ومن أنت وماذا تريد مني ؟ »

فقال « لا تخافي يا سيدتي اني من رجال صلاح الدين المحاصرين لهذا القصر ورأيت ذينك الرجلين يعذبانك وحالما رأيت شعرك الذهبي علمت انك من نساء الخليفة فبادرت الى انقاذك واحمد الله اني قد فزت »

فسألته اذا كان علينا بأس من الاحراق فأكد لي انهم لم يلقوا نفطا علينا وانما كان ذلك من بعض اللصوص رموا النفط من جهة أخرى لغرض لهم . ولعلهم أرادوا ان يشغلوا الناس بالنار ويختطفوني »

ولما وصلت سيدة الملك الى هذه العبارة تغيرت سحنتها وتوردت وجنتاها وبلغت ريقها وهي تاهت من التأثر

وكان الخليفة والجالس يسمعان كلامها ويراعيان الحماسة التي كانت تتجلى في محياها ولحظا التغير الذي طرأ عليها عند ذكر ذلك الشاب ولم ينتبها لما يخالج قلبها من جهته . فلما سكتت قال العاضد « من هو هذا الشاب وكيف عرف انك من نساء الخليفة ؟ انه لامر غريب كيف يعرفك

شاب غريب وأنت لا تخرجين الا محجوبة ؟ وهذا مع ذلك من رجال صلاح الدين .. قولي الحق »

قالت وهي تنظر اليه شزراً « انك تتهمني يا امير المؤمنين ولا مكان للريب . قد سألت هذا الشاب كيف عرفني فمد يده الى جيبه واستخرج هذه الخصلة ودفعها الي وقال . أليست هذه من شعرك « وادناها من شعر رأسي فاذا هما بلون واحد »

فابتدرها الخليفة قائلاً « مس شعرك بيده ؟ »

قالت « لم يمسه ولكنه ادناها من شعري انه شاب غير منهم وانا مدينة له بحياتي وشرفي ولولاه لذهبت فريسة ذينك الخائنين .. » وخرقت اسنانها

قال « ألم تعرفي من هما ؟ »

قالت « لم أعرفهما يقيناً ولكنني استدهت لواحد منهما »

قال « من هو ؟ . قولي »

قالت « لا أقول .. لاني اخاف ان يخطىء ظني فأورث الاذى لرجل بريء . ولولا ذلك لاطلعتك على هذا الحادث من ذلك اليوم وقد مضى عليه الآن اكثر من سنة ولم أذكره لك اتلافاً الى الشك في خاطرك »

فصاح العاضد وقد امتقع لونه من شدة الغضب « لماذا لم تخبريني حتى الآن أيصيبك مثل هذا الامر وتكتمينه طول هذه المدة ؟ من تجاسر على هذا العمل ؟ . من تطمس هذا الرجل ؟ قول »

قالت « لا تغضب يا أخي . اني لم اقل ولا اقول الآن خوف الوقيعة بالابرياء وقد نجوت والحمد لله . ولكني قد عرفت حق ذلك الشهم الذي انقذني » وحالما ذكرته ابرقت عيناها وقد تمحص احوتها صدرها تأى وانا

يخفق خفقاناً سريعاً . لكنه لم يعقه وقال « ألا تعرفين اسم الذي انقذك..
من هو ؟ »

قالت « لم أسأله عن اسمه وكنت اتوقع ان يأتيك في اليوم التالي ويقص عليك الواقع فتكافئه فالظاهر انه لم يفعل . وانا لم أتمل من رؤيته أما هو فبعد ان اطمأن عليَّ وتحقق نجاتي من الخطر دفع اليَّ هذه الخصلة وهو يقول « خذي يا سيدتي هذه الخصلة من شعرك .. صيانة لها من أن يمسها غير مستحقيها . ولم يكن يحذر بالخليفة أن يرسلها وسيلة للاستغاثة » قال ذلك وانصرف مسرعاً سرعة البرق ولم اعد أراه من ذلك الحين

الفصل الحادي عشر

من تهمين

فاصبح صدر الخليفة يغلي من شدة الحنق ونسي ضعفه في ذلك اليوم ولم يتمالك عن النهوض بسرعة حتى قبض على الخصلة واختطفها من يد سيدة الملك وجعل يتفرس فيها ويقابلها بسائر الشعر فاذا هو هي فالتفت الى الجليس وقال « ماذا ترى يا عماه ؟ . كيف يدخل الغرباء قصري ومعهم شعور نسائي . ولكن آه ! انا المذنب لاني تسرعت في الاستغاثة فارسلت شعورهن الى صاحب دمشق .. ولكن كيف وصلت هذه الخصلة الى هذا الشاب وكيف احتفظ بها حتى عرف صاحبتها ؟ لا ادرى »

وكان الجليس يسمع ويرى وقد أخذته الدهشة لما رأى غضب الخليفة وشدة تأثره قال « خفف عنك يا سيدي . لكل شيء سبب ولا يهمنا سبب وصول هذه الخصلة الى ذلك الكردي بقدر ما يهمنا معرفة الرجل المتنكر الذي اراد اختطاف مولاتي سيدة الملك . من يجسر على ذلك ؟ »

فالتفت العاضد الى أخته وقال « قولي . . قولي من تتهمين ؟ من هو ذلك النذل الذي تجاسر على دخول قصري وخرق حرمي . . » قال ذلك وهو يلهث وقد احمرت عيناه وارتجع الحصلة اليها و رجع الى مقعده وقد احس بانحلال عزائمه

فتقدمت أخته نحوه وأخذت تخفف عنه وتمسح جبينه وتقول له « لاتغضب يا اخي . . اسمح لي ان لا اذكر اسم الرجل الذي اتهمه لاني اتهمته بمجرد الظن وبعض الظن اثم . وانا واثقة أن هذه التهمة مهما كانت ضعيفة تكفي لايقاع الاذى بصاحبها . فحرام عليّ ان اعرض نفساً للهلاك »

قال « وحياة رأسي الا قلت من هو ذلك الخائن واعدك ان لا اسارع الى الانتقام الا بعد التبصر »

فاطرقت وهي تصلح نقابها على رأسها ثم جعلت تلاعب خصلة الشعر بين اناملها واخوها شاخص فيها ينتظر نطقها فلما استبطأ جوابها قال « ما بالك لا تقولين ؟ »

قالت « بالله دعني . . سأقول لك ذلك بعد الآن دعني افكر قليلاً . . »

فالتفت الشيخ الجليس الى العاضد وقال « دعها يا مولاي الآن ولا تغضبها وسنعود لها . وليس في الامر ما يدعو الى العجلة وارجع الآن الى ما كنا فيه من أمر النجاة من هؤلاء الاكراد . . اذا رأى مولاي في ما عرضه علينا ابن [illegible] ابو الحسن »

فلما سمعت سيدة الملك ذلك الاسم [illegible] وتكلفت [illegible] وصبرت لتسمع ما يقوله اخوها فالتفت الى الجليس وقال « هو هذا رجل الرجال و بطل ولابد العهد [illegible]

قال « وعد أمير المؤمنين يكفي وقوله حجة لكن ابا الحسن لا يصدقني فهل تكتب له كلمة ؟ »

قال « لا .. لا .. يكفي ان تقول له ذلك سماعاً »

وقال « حسناً .. سأقول له .. ولكن هناك .. » وسكت وهو يتشاغل بحك لحيته كأنه يكتم امراً آخر يخاف المجاهرة به

فقال العاضد « ولكن هناك ماذا ؟ قل »

قال « اخاف ان تغضب سيدتي الاميرة لانها .. » وسكت

فقالت « ما الذي يغضبني — كيف عرفت انه يغضبني ؟ »

فتبسم وقال « قد ادركت من خلال حديثك انك لا تحبين ابا الحسن »

فابتدرته قائلة « ولماذا احبه وهل هو يتطلب مني ذلك ؟ »

قال « لا . لكنه يلتمس التقرب من امير المؤمنين والتشرف به .. »

قالت « بماذا ؟ »

فالتفت الجليس الى العاضد وقال « هل اقول يا مولاي ؟ »

قال « قل بماذا يريد ان يتشرف ؟ أظني علمت مراده لانه طالما لمح الى ذلك في حديثه معي .. والحق يقال انه كفء لما يطلبه .. » وتنحنح وحوّل وجهه نحو سيدة الملك

فادركت ما يعنيه وكان قد ذكر لها مرة قبل هذه رغبة ابي الحسن بالزواج بها فرفضت . فلما سمعته يشير الى ذلك تجاهلت وقالت « لم افهم مرادك . ماذا تعني ؟ »

فقال « اظنك فهمت ما اعنيه » والتفت الى الجليس وقال « ما هو رأيك في هذا الامر يا عماه . اني لا أرى اكفأ من ابي الحسن لاختي »

فاعتدل الجليس في مقعده وقال « لا ريب انه حر كفء لما يتصل

به من النسب الشريف فضلاً عن تعقله ودهائه . ويكفي ما رأيناه من تفانيه في مصلحة مولاي لانفاذه من هؤلاء القوم . والذي اراه ان نوافقه على هذا الطلب فيهون عليه السكوت عن الشرط الآخر - أعني اذا كان جواب مولاي من حيث خطبة مولاتي له بالايجاب لا أظنه يشدد في طلب الشرط بولاية العهد بل يكتفي بهذا لأنه تشديد الاحترام لسيدة الملك ويعد حصوله عليها منة كبرى . وعند ذلك يكون هو عوناً لنا في ما نريد بلا شرط »

فلما سمعت سيدة الملك ذلك التصريح قالت وهي تتصنع خفض صوتها « هو يطلب ان يتزوجني وأن تستحسن ذلك ؟ وأحب أن أعرف رأي اخي أمير المؤمنين ايضا »

وظنها تعني ما تقوله حقيقة وهو يريد ان تقبل طمعاً بالنجاة من صلاح الدين فقال « وهذا هو رأيي أيضاً كما تعلمين من قبل »

فأجابت ببرود « لكنه ليس رأيي انا .. » وحولت وجهها عنه

فقال العاضد « يظهر انك لا تزالين على خطتك .. ان ابا الحسن ليس في أهلنا جميعاً من هو اكفأ منه لك .. فضلاً عن تفانيه في خدمتنا »

فقالت « اني لا أطلب كفوءاً ولا غير كفء . قلت لك من قبل اني لا أطلب الزواج . دعنا من هذا الآن وليطلب المصيب من طريق آخر .. »

فقال الجالس « ولكن يا سيدتي . اذا قبلت فانك تخدمين مصلحة مولانا أمير المؤمنين لان ابا الحسن أقدر انسان في الدنيا على انقاذه .. »

قالت وهي تنظر اليه نظر الاستخفاف « ان ابا الحسن كاذب .. انه لا يستطيع شيئاً من ذلك »

وضحك الجالس ضحك استعطاف وقال « ان طاعته بهذا الحكم

يا سيدتي .. لأني على يقين من تفانيه في خدمة مولانا وهو صادق الغيرة على شرف آل البيت لأنه من محبيهم »

فقالت « وهو كاذب في هذا أيضا — ان آل البيت عرفوا بصدق اللهجة والاخلاص وهذا رجل منافق وكذب »

فامتعض العاضد من حكمها بهذه الصراحة وقال « لا دليل على ما تقولين غير قولك .. قد عرفت الرجل منذ بضعة أعوام ولم أر منه الا كل مودة واخلاص . . ولا أعلم كيف جاز لك الحكم عليه بالكذب والنفاق »

قالت « اما انا فاعلم وستبدي لك الايام صدق قولي . . أظنك قد تعبت يا اخي واتأسف لاننا شططنا بالحديث الى هذا الحد . . وأنت منحرف المزاج فاذهب الى فراشك وسترى في الغد اني أقول الحق »

وكان العاضد قد تعب فعلاً وكان لقولها عليه تأثير شديد . فرأى ان يطيعها ويؤجل الامر الى فرصة أخرى . فنهض ونهض الجليس وذهب كل الى فراشه والخليفة احوج الجميع الى الرقاد

الفصل الثاني عشر

دار الاضياف

اما الجليس فكان اقلهم رغبة في الرقاد لما اصابه من الفشل في المهمة التي كلفه ابو الحسن بقضائها . وكان الجليس شيخا حسن الظن قد استهواه ابو الحسن بدهائه ومواعيده واقنعه ببرهانه وبلاقة لسانه ان انتقال ولاية العهد اليه خير للدولة وله ولكل واحد . ولم يكن عند الجليس شك في اقتدار أبي الحسن على انقاذ الدولة من صلاح الدين . فلما كلفه بهذه المهمة

سعى فيها من كل قلبه وصمم على ترغيب العاضد فيها وهو يعتقد انه يخدم بها مصلحته

فلما عاد بالفشل اصبح لا يدري كيف يبلغ ابا الحسن نتيجة تلك المهمة واعمل فكرته في تلطيف الاسلوب حتى لا يثقل الامر عليه

وكان ابو الحسن نازلا في دار الاضياف على مقربة من القصر الغربي وهي دار كبيرة كانت في الاصل قصراً للمظفر بن أمير الجيوش اقام فيها حتى توفي فجعلت دارا للاضياف برسم الرسل الواردين من الملوك [1] يتولاها نائب يسمى عدي الملك ينوب عن صاحب الباب في لقاء الرسل الوافدين على مسافة وينزل كلا منهم في دار تصلح له ويقيم له من يقوم بخدمته . ثم صار صاحب دار الاضياف يسمى في الدولة التركية مهمندار ولكنه كان في زمن روايتنا يسمى عدى الملك

وكان عدي الملك كثير العناية بابي الحسن لما رأى من تقربه الى الخليفه ومنزلته عنده وافرد له داراً خاصة وامر الغلمان بخدمته . وكان ابو الحسن قد سحره بتظاهراته وبما يقصه عليه من اقتداره وعلو منزلته-

والدولة في اواخر ايامها تروج فيها السفاسف والمظاهرات ويعلق احكامها بالاوهام دون الحقائق وبالقشور دون اللباب يصيرون الى ذلك لما يتولى الدولة من الهرم وتزعزع احكامها وتفسح فرصة للآخرين [illegible] احكامها ويشتغل كل منهم بنفسه ويسعى في الاحتفاظ برزقه ورزق أهله وهو يتوقع زوال الدولة فلا يرجو [illegible] الناس [illegible] ويتعلق باضعف الاسباب واوهى المواعيد . والانسان اذا تولاه [illegible] أمر صدق كل قول يلقى اليه [illegible] ذلك [illegible] . وسحر أهل الدولة [illegible]

(١) [illegible] ٦٦١ [illegible] ١

ويزوقون الاعمال فيصبح اكثر معول الناس على الظواهر

وكان أبو الحسن من أولئك الصيادين وهو من اهل الدهاء والذكاء قوي الحجة لا يبالي بما قد يرتكب في سبيل الوصول الى غرضه من قتل أو كذب أو تملق أو تزلف . والذكي الداهية اذا اغضى عن مراعاة الذمة وصدق النية لا يعجزه الوصول الى ما يبغيه من الاغراض . وكان ابو الحسن طامعاً بالخلافة أو بولاية العهد على الاقل كما تبين لك من حديث الجليس الشريف . فاتخذ كل وسيلة تؤديه الى ذلك الغرض . ومن جملة ذلك طلبه التزوج بسيدة الملك لعلمه بنفوذها على أخيها ولان انتسابه الى العلويين يتأيد بزواجها . حتى انه يحصل التزوج بها أولاً فيسهل عليه رواج كل ما يدعيه لكنها لم تكن تحبه ولا تخلص له ولا كانت تعتقد صحة نسبه . وقد خطأت أخاها لانه سلم بصحة ذلك النسب ولا شاهد له عليه الا دعواه

على انه رأى ان يستعين بالجليس الشريف لما يعلمه من منزلته عند العاضد لكبر سنه فكلفه تلك المهمة واقنعه بصدق نيته فصدقه وأخذ جانبه . لكنه لم يستطع اقناع سيدة الملك فعاد في ذلك المساء آسفاً لفشل مهمته وقضى ليلته وهو يفكر في الاسلوب الذي سيبلغ فشله به لابي الحسن

وفي الصباح التالي بكر الى ابي الحسن في دار الاضياف قبل أن يطلبه الخليفة لمجالسته وكان ابو الحسن في انتظاره على مثل الجمر لكنه حالما جاءه الغلام ينبئه بمجيئه نهض لاستقباله ورحب به واظهر انه لم يكن يتوقع مجيئه واهتمامه الى هذا الحد فابتدره بالسؤال عن صحة الخليفة فقال « فارقته مساء الامس أحسن حالاً »

قال « ارجو أن يكون العارض قد زال بحول الله بزوال السبب »

وادرك الجليس غرضه فقال « ارجو أن يزول السبب تماماً وعند ذلك نرجو زوال المصاب »

قال « ان السبب لا بد من زواله باذن الله .. وهل تظنني أرجع عن هذا الامر ؟ اني أفعل ذلك لمصلحة أمير المؤمنين . . وانا أحبه واحترمه لا لغرض يهمني .. »

واعجب الخليس بطيب عنصره وازداد خجلاً من التصريح له بما جرى بالامس . ولحظ ابو الحسن سبب ارتباكه لانه كان يتوقع رفض الخليفة طلبه ويعلم أن سيدة الملك لا تقبل به من أول طلب فتجاهل ونظر الى الخليس وهو يظهر السذاجة وسلامة النية وقال « انما ارجو ان يطمئن مولانا أمير المؤمنين منذ الآن انه ناج من كل شر اذا ارتاح خاطره ويسترجع صحته .. هل أقنعته بذلك ؟ »

قال « اكذب له عزمك وهو يعتقد اقتدارك على هذا الامر لكنه .... » وتساءل يحك لحيته وقد ارتبح عليه

فابتدره ابو الحسن قائلا « أود انك لم تفاتحه بما كنا تحادثنا به البارحة من حيث ولاية العهد لئلا يظنني اعلق أهمية على هذا الشرط .. اني لم اعن اشتراطه ولا جعلت نجاة الخليفة متوقفة على انفاذه لكنني متى وفقت الى انقاذه لا أظنه الا فاعلا ذلك من تلقاء نفسه — وانا أؤكد لك اني اذا فعل هو ذلك ابادر الى رفضه لان مشاغل الخلافة ثقيلة . . وافضل أن اكون من بعض المشيرين المقربين و ... »

ولم يصبر الخليس الى اتمام كلامه فقاطعه قائلا « بارك الله فيك وهذا ما كنت اتوقعه من أريحيتك ولكنني لم أتمالك أن صرحت بالامر البارحة و .. »

فاسرع ابو الحسن قائلا « ولا شك أن الامام شق عليه طمعاً لانه عرف على خاطره ولا أستغرب رفضه اني ... لا أقول الا الحق .. »

قال « لا .. لا .. لم يرفضه ولكن .. »

قال « هل ذكرت ذلك بينك و بينه في جلسة سرية ؟ »

قال « لا . لم اوفق الى ذلك .. ولكن الاحوال قضت ان اذكره له وهو في دار الحريم و »

فقال ابو الحسن مسرعاً « وفي حضور اخته على ما اظن . . »

قال « نعم .. هكذا حصل »

فقال « لابد انها كانت اكثر استغراباً منه .. انا لا الومها على ذلك كما اني لم ألم اخاها ... واملك ذكرت لهما شيئاً آخر غير ولاية العهد . . » قال ذلك وهو ينظر في عيني الجليس و يظهر المداعبة

فابتسم الجليس وقال « نعم ذكرت لهما وتكلمت بما يمليه عليّ اخلاصي لك .. » و بلع ريقه

فعلم ابو الحسن ان جوابها لم يكن بالرضا ولولا ذلك لانتهج الجليس اسلوباً آخر في التبليغ فرأى ابو الحسن ان يعطي مثله بالدهاء فقال « اخشى أن تكون قد ترددت في اجابة هذا الطلب أيضاً »

فاستغرب تمييزه وقال « نعم ترددت قليلاً . . اظنها اجلت الحكم في ذلك الى ما بعد انقضاء هذه الازمة أو ... لا أدرى . »

قال « قل صريحاً يا عماه . . انهـا رفضت وقد تكون عالقة القلب بأحد . أو .. فالمكن ما تريد .. انا لا أعتب عليها ولكني اعتب على اخيها الخليفة .. فانه مطالب بسيرة أخته وسمعتها »

فتوجه الجليس بكليته اليه وقال « أؤكد لك ان أمير المؤمنين لم يقصر من جهتك فانه حسن الظن بك . »

فقال ابو الحسن وهو يتشاغل بمتشيط لحيته « يكفي ... كنت احسبها عاقلة كما هو الظن لكن ظهر انها لا تعرف مصلحة ها ولا ادم الى بعد

الآن .. لا اعي اني اكف عن فداء أمير المؤمنين بدمي . . ولكنني لا أرى وجهاً للرفض .. واسمح لي ان أقول ما فى خاطرى — وان خرجت به عن الاحتياط المطلوب — ان سيدة الملك لا يطلبها من هو احذر مني بها .. الا أن تكون مشغولة ببعض الرجال فهذا شيء آخر »

قال « كلا لكنها قالت انها لا تريد الرواج »

فضحك ابو الحسن وهو ينهض من مجلسه وقال « لا تريد أن تتروج ! هذا كلام غير معقول . ولكنها سترى نفسها مضطرة للرواج بغيرى ويندم لأنها لم تقبل بي »

فنهض ابو الحسن لنهوضه وصبر ابرى ما يريده فقال ابو الحسن « أظنني اخرتك عن مجالسة أمير المؤمنين وقد يكون فى حاجة اليك فارجو أن تؤكد له اني مقيم على ولائه افديه بروحي — ولا تذكر له شيئا عن سيدة الملك .. انما اقول سامحها الله لانها لم تحسن المعاملة »

فودعه الجالس وهو معجب بطيب سريرته وعلو همته وسعة صدره وعاد الى منزله ينتظر أمر الخليفة

الفصل الثالث عشر

عيسى الهكاري

اما ابو الحسن فلما خلا بنفسه رفس الارض برجله من الغضب وقد أخذ الحنق منه مأخذاً عظيما ومشى في الغرفة ويداه متعانقتان وراء ظهره وهو يعمل فكرته ويتلاهى حينا بالنحنحة أو السعال أو بحك ذقنه أو بمصالح عمامته . ثم وقف وقال يخاطب نفسه « رفض العاضد ان اكون ولي العهد ... اكون ... سراب جافة ... فأما تلك الملعونة أخته فلا تزال ترفض

الزواج بي — ان رفضها هذا أسد وطأة على نفسي من رفض الخليفة لكنها ستندم وتعود صاغرة .. متى رأت ما يبلغ من كيدي . . . سوف تأتيني صاغرة باكية .. واظنها تحسبني مغرماً بها واني اريد التزوج بها عن شغف بجمالها . لست ممن يتعلقون بهذه الاوهام — ليس في واني حب لاحد . لا احب احداً ان حب النساء من الاوهام الباطلة التي تصرف الرجل عن المطالب العاليه .. اني اطلب ما يقصر عنه احوها الخائنة نفسه .. سأقتل صلاح الدين ولكن ليس اكراما لها ولا لاخيها . . سأقتله ليخلو لي الجو سأقتله واقتل العاضد واقتل كل من يقف في سبيل وصولي الى الخلافة .. انها حق لي .. وقد اختلسوها مني .. » قال ذلك وكاد صوته يرتفع من عظم التأثر فانتبه لنفسه وسكت

ثم مشى الى غرفة داخلية اقفل بابها وراءه وقال وهو يشير بيده اشارة التهديد « اما تلك الخائنة فسأذيقها مر العذاب . . . سأجعلها تندم ولات ساعة مندم .. »

ثم اشتغل بتبديل ثيابه وهو يعمل فكرته في تدبير الحيله لاغاظة سيدة الملك قبل كل شيء . فلما فرغ من اللبس امر بالبغلة فاتته وركب الى حيث يقيم صلاح الدين ووالده ورجال حاشيته . وفي جملتهم رجل يقال له ضياء الدين عيسى الهكاري من الامراء الصلاحيه كبير القدر كان صلاح الدين يعول عليه في الآراء والمشورات . وكان في مبدأ امره يشتغل بالفقه بمدينة حلب فاتصل بالامير أسد الدين عم صلاح الدين وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس . فلما توجه أسد الدين الى مصر مع بهاء الدين قراقوش صحبهما عيسى هذا وكان مخلصاً لصلاح الدين فلما توفي اسد الدين اتحد عيسى وقراقوش على تنصيب صلاح الدين موضعه في الوزارة ودققا في الحيلة

حتى بلغا المقصود [١] فلذلك كان لعيسى داله على صلاح الدين يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره . وكان من الجهة الاخرى علوى النسب فكان له مع ابى الحسن صداقه . وكان عيسى يجاسن ابا الحسن وفي نيته أنه سيحتاج الى استخدامه في مصلحة صلاح الدين فكان يكرمه ويرحب به وصلاح الدين لا يعلم . لان ابا الحسن كان يجتنب الاجتماع بصلاح الدين . وكان عيسى الهكاري في ذلك الحين في منظرة اللؤلؤة يجالس صلاح الدين ويباحثه ويرشد اباه نجم الدين الى ما يسهل عليه المهمة التي جاء من أجلها الى مصر

ركب ابو الحسن الى منظرة اللؤلؤة لا يريد دخولها ولكنه كان يعلم أن ضياء الدين الهكاري يختلف الى هناك فى تلك الايام فتوقع أن يراه فى الطريق فيظهر أنه التقى به صدفة ليهون عليه جره في الحديث عفوا الى الغرض المطلوب وكان يعلم أيضاً انه يتردد الى دار العلم بجوار القصر الصغير . ودار العلم هذه انشأها الحاكم بأمر الله وجمع فيها الكتب وجعلها مباحة لطلاب العلم للمطالعه أو النسخ . وفيها الحبر والاقلام والمحابر — اوقف على ذلك اوقافاً كي ينفق على دار العلم من ريعها وكان يجتمع فيها العلماء للمناظرة والمجادله فاصبحت في ايام الافضل بن أمير الجيوش مجمعاً للمجادله الدينية الخطرة فأمر الافضل بإبطالها أي اقفالها على الجمهور منعاً لفساد المذهب لكنها ظلت تحتوي على كثير من كتب الفقه والتاريخ فمن أحب من الخاصة ان يطالع شيئاً منها اذن له فكان الهكارى من جملة المترددين الى هناك

فلما دنا ابو الحسن من منظرة اللؤلؤة سأل بعض الخدم عن الهكارى فقيل له انه ذهب الى دار العلم . فحول شكيمة البغله الى هناك وأظهر انه ذاهب لغرض آخر غير ملاقاته — فلما وصل الباب منعه البواب من الدخول

---

(١) ابن خلكان ٢٩٧ - ٦

لانه لا يعرفه فلم يعرّفه بنفسه بل قال « احب الاطلاع على بعض الكتب واعود »

فقال « ذلك لا يجوز يا سيدي »

فقال « كيف لا يجوز وقد علمت أن رجلا دخل هذه الدار منذ هنيهة »

فقال « هو الفقيه ضياء الدين . . »

فاظهر الاستغراب لوقوع هذه الصدفة وقال « الفقيه ضياء الدين هنا ؟ »

قال « نعم »

قال « هو صديقي . . استأذنه بالدخول اليه »

قال « من اقول له ؟ »

قال « قل له ابو الحسن يطلب الدخول »

فذهب البواب ثم عاد ومعه ضياء الدين . فلما وقع نظره على ابي الحسن اسرع اليه ورحب به فتحول ابو الحسن عن البغلة ودخل معه الهكاري وهو يتظاهر أنه فرح بهذه الصدفة . وكان ضياء الدين يلبس زي الاجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فجمع بين اللباسين فلما التقيا قال ابو الحسن مداعباً « انك قد جمعت بين زي الجند وزي الفقهاء فهل أنت فقيه الآن أم جندي ؟ »

قال « اني فقيه في زي الجند »

قال « اما انا فقد طلقت الفقه وانما جئت للمطالعة في بعض الكتب لغرض علمي » قال ذلك ومشى فدخل ضياء الدين معه وهو يقول « تفضل ادخل . . ألعلك تبحث في مسألة لغوية »

قال « كلا انى لا ارى ذلك نافعاً الان ولكننى اطلب مسأله تاريخية ... احب الاطلاع على تاريخ السلاجقة فان هؤلاء القوم اشداء ولهم تاريخ مجيد »

فالتفت ضياء الدين اليه وقال « اظنك تحب البحث عن سبب مقتل نظام الملك ... مسكين .. »

قال « لا فان قاتله من الاسماعيليه اصحاب شيخ الجبل .. أليس كذلك ؟ . ليس لهذا جئت . ولكنى اريد الاطلاع على أصل هذه الدولة »

قال « اتبعنى الى خزانة كتب التاريخ »

الفصل الرابع عشر

طغرل بك

فمشى ابو الحسن في أثره حتى ادخله فى غرفة فيها رفوف عديدة رتبت فيها الكتب حسب المواضيع والعصور وساعده ضياء الدين حتى جمع له بضعة كتب تبحث في الدوله السلجوقية ومبدأ امرها فتناولها ابو الحسن واحد يقلب فيها وهو يقول « فتش معى عن كتاب فيه ترجمة طغرل بك مؤسس هذه الدوله انه كان رجلا شديداً »

وبعد البحث وقف ضياء الدين على كتاب فيه سيرة طغرل بك دفعه اليه فناوله ابو الحسن وهو يقول « اظنى شغلتك عما جئت لاجله »

قال « كلا بل انا في غاية السرور من هذه الصدفه لانى احب ان اعرف تاريخ هذا الرجل مؤسس هذه الدوله التى ملأت الدنيا فتحاً . تفضل اقعد » واشار الى طراحه على مقعد بالقرب منه فقعد ابو الحسن وقعد الهكاري بين يديه وأخذ كل منهما كتابا آخر دفعه اليه ابو الحسن لحمل يقلب

اوراقه وعيناه في الكتاب الذي يقرأ ابو الحسن فيه فرآه وقف عند صفحة وجعل يقرأها ويعيد قراءتها ويهز رأسه اعجاباً او استغراباً ثم قلبها وقرأ غيرها حتى فرغ من الكتاب فوضعه بجانبه وتناول غيره فاشتاق ضياء الدين الى مطالعة الصفحة التي رأى أبا الحسن يحدق فيها فتناول الكتاب وهو يتوهم انه فعل ذلك خلسه وابو الحسن لا يعلم . ففتح تلك الصفحة فاذا هي تبحث في خطبة طغرل بك لابنة الخليفة القائم بامر الله العباسي سنة ٤٥٤ هـ وكيف ان السلطان طغرل بك وهو تركي طلب ان يتزوج بابنة هذا الخليفة مما لم يجسر عليه احد قبله وان بعض القصاة اخبر الخليفة يومئذ ان غرض السلطان من تلك الزيجة ان يأتيه من بنت الخليفة غلام فيه الدم العباسي فيوليه الخلافه بهذه الحجة وتتولى الخلافة في اعقابه وتخرج من العباسيين وان الخليفة انزعج لهذا الطلب واستعطف السلطان أن يعفيه من الاجابة الى طلبه . فأبى الا أن يجاب بحيث اضطر الخليفة الى اجابته وزوجه ابنته . لكن طغرل بك مات في تلك السنه ولم يرزق من امرأته هذه اولاداً (١)

وكان ضياء الدين يقرأ ذلك وابو الحسن يظهر انه يقرأ في كتاب آخر وعيناه تختلسان النظر الى الهكاري . فلما علم انه فرغ من قراءة ذلك الفصل رفع نظره اليه وقال « أرأيت شجاعة طغرل بك وكيف انه استطاع بحكمته وتعقله تأسيس هذه الدوله التي لولاها لم يكن صاحب الشام ولا صاحب العراق ولا غيرهم »

قال « نعم انه رجل ذو بطش غريب وأنا استغرب الآن ما قرأته في هذه الصفحة عن مطامعه في الخلافة ما لم يطمع به احد سواه من غير القرس في ما اظن »

(١) تاريخ الاول الداخورمة ١٨

فتوجه ابو الحسن نحوه باهتمام وقال « طمع بها قبله عضد الدولة بن بويه فاراد أن يزوج الخليفه الطائع لله بابنته اتلد من الخليفة ولداً فيه من دمه فيجعل الخلافة فيه فلم يوفق الى ذلك [1] واما هذا فانه خطا خطوة اكبر من تلك . اراد أن يتزوج هو بنت الخليفة ليكون ابنها فيه دم العباسيين .. ولكن هل علمت كيف نجا الخليفه من هذا الخطر فحفظ الخلافة في العباسيين ؟ »

فقال « انه نجا بالصدفة »

قال اتظن موت طغرل بك كان صدفة ؟ أبالصدفة يموت على اثر ذلك العقد المغتصب ؟ لا اشك في انهم سقوه السم ولولا احسن الاسلوب لاحتاط لنفسه ونجا من ذلك الخطر ولم يذهب سعيه عبثاً »

فقال « وكيف يحتاط ؟ »

قال « يحتاط بان لا يعرض نفسه للقتل بخطبة ابنة الخليفة فيظهر غرضه اعني لو طلب أن يتزوج اخت الخليفه او احدى بنات اعمامه مثلاً لا اظنهم كانوا يفهمون اغرضه . فاذا ولدت له ولداً ذكراً كان فيه من الدم العباسي ما يكفي لادعاء حق الخلافة ولكن ذلك التركي كان قصير النظر . »

ونظراً لاهتمام ضياء الدين بصلاح الدين وشغفه بتثبيت دولته كان كلما قرأ تاريخاً أو سمع حادثة هامة طبق معراها على حال صلاح الدين لعله يستفيد منها ما يؤيد دولته . فلما سمع كلام ابى الحسن انتبه ان صلاح الدين يقدر ان يفعل ذلك بالتزوج من اخت العاضد وكان سمع بجمالها وعقلها والعاضد اضعف من ان ينكر على صلاح الدين طلبه وبذلك تصير الدولة اليه حتى نور الدين قد يدخل فى سلطانه فاشرق وجهه لهذا

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٨٧

الفكر وصمم أن يفاتح صلاح الدين به في ذلك اليوم ولكنه تظاهر انه لم ينتبه لشيء وجعل يتشاغل بقراءة فصول اخرى وابو الحسن يظهر من الجهة الاخرى انه يتكلم بكل سذاجة . ثم غير الحديث فسأل ضياء الدين عن نجم الدين وهل هو مسرور من الاقامة في قنطرة اللؤلؤة فاجابه بما يقتضيه المقام واصبح ضياء الدين شديد الرغبة في انصراف ابي الحسن ليمضي في مهمته الجديدة

وبعد قليل استأذن ابو الحسن بالانصراف وودع صديقه الهكاري وعاد على بغلته الى دار الضيافة وهو يهمهم في اثناء الطريق ويكاد يخاطب البغلة من فرحه بانطلاء حيلته اذ لم يشك أن الهكاري ذاهب حالا الى صلاح الدين ليحرضه على خطبة سيدة الملك وهو يعلم يقيناً أن ذلك سيقع وقوع الصاعقة على رأسها ورأس اخيها ولا يجدان سبيلا لرد طلب ذلك الخاطب القاهر الا اذا ادعيا بان الفتاة مخطوبة لابن عمها (أي هو) فينال غرضه على اهون سبيل

الفصل الخامس عشر

سيدة الملك

اما سيدة الملك فانها ذهبت الى غرفتها فلقيتها هناك خاصتها الخصوصية واخذت في مساعدتها على نزع ثيابها استعداداً للرقاد ولم تفاتحها بشيء من الحديث الذي جرى لها مع اخيها رغم شدة رغبتها في ذلك — والخدم من اكثر الناس ميلا الى استطلاع الاسرار لفراغ رؤوسهم من المشاغل الهامة مع اطلاعهم على مجريات تجري في منازل اسيادهم ووقوفهم امام ا

وقوف المتفرج ينتقدون ها او يحسبون عمل ذاك على ما تسوقهم اغراضهم أو مداركهم فيلذ لهم التحدث فيما بينهم كل واحد عما يعلمه من احوال مخدومه ويندر فيهم من يحافظ على سر مولاه و يغار على سمعته و يسعى في درء الشبهات عنه وكانت حاضنة سيدة الملك من هذا النادر واسمها ياقوتة

ربت ياقوته في دار الخلافه وسيدة الملك طفله وكانت لها عناية خاصة بها فشبت سيدة الملك على الاركان اليها والوثوق بها حتى جعلتها مستودع اسرارها فلم يكن يفوتها شيء مما يخالج ضميرها وذلك طبيعي في مثل حال هذه المرأة من الحجاب في ذلك العصر فانها لا تختلط بالناس ولا تجد من تحادثه الا الخدم وكانت ياقوتة قد علمت منذ جاء الخادمة انه يشكو احراقا وتلصصت من وراء الستر لتسمع ما يدور من الحديث على عادة امثالها من حب الاطلاع ورغبة في خدمة سيدتها ولم تتوقع أن يدور بين الخليفه واخته ما دار فلما جاءت سيدة الملك اسرع نحوها كانت ترجو أن تسمع شيئاً جديداً ولحظت وجهاً متغيراً يدل على قلقها واضطرابها

فلما فرغت سيدة الملك من تبديل الثياب قعدت على سريرها وقد حلت شعرها الذهبي وارسلته ضفيرة واحدة الى ظهرها وتنهدت الصعداء واطرقت ولحظت ياقوتة في عيني سيدتها ما يشبه الدمع فترامت على قدميها واخذت تقبل ركبتيها وتقول « ما بالك يا سيدتي ؟ لماذا تبكين ؟ ما الذي يبكيك ؟ » واطرقت انها لم تبكِ دمعة على مرء

فرفعت سيدة الملك بصرها اليها وبان الدمع فيهما وتنهدت تنهداً ثانياً وقالت « تسألينني يا ياقوتة عن سبب بكائي ؟ واستغربين حزني ؟ ألست حزيني عرساً وانما الغريب ان لا اقضي يومي باكية نادبة . » وقالت ذلك وغصت بريقها

فشاركتها ياقوتة بالبكاء لكنها اظهرت التجلد وقالت « ماذا جرى يا سيدتي ؟ هل حدث سيء جديد ؟ »

قالت « ألا يكفي ما جرى مما تعلمينه . آه ويلاه أنت عاقلة لا يخفى عليك شيء ألا تعلمين حالنا مع هؤلاء الاكراد واستبدادهم في الدولة هذا اخي جاءني اليوم وقد اصابته الحمى من شدة الغيظ لما صارت اليه الخلافة ـ وكيف لا أبكي ؟ »

قالت « لا بأس من البكاء ولكن لا فائدة منه وانما الفائدة بالصبر والحكمة . حتى يقضي الله بما يشاء ـ لكل امر نهاية ولا بد لهذه الكارثة من نهاية باذن الله . وانما . . »

فقطعت كلامها قائلة « لا . لا . ليس لهذه الكارثة نهاية الا بالموت من ينقذنا من هؤلاء الاكراد وقد وضعوا ايديهم في كل شيء حتى دارنا هذه فان عليها حارساً من رجالهم » وبلعت ريقها ومسحت دموعها وهي تستعد لاستئناف الحديث ثم قالت « وهذا كله هين يا ياقوتة . ؟ كله هين بالنظر الى امر آخر جاءنا به الجليس الشريف في هذا اليوم »

فتطاولت ياقوتة بعنقها وقالت « وما هو يا سيدتي ؟ »

قالت « جاءنا بمهمة يزعم أنها تحيينا من هذا الضنك ولكنها اذا صحت اوقعتنا في ما هو اشد وطأة واصعب مراساً »

قالت ياقوته « وهل اشد وطأة من هذه الحال يا سيدتي »

قالت « نعم . اشد وطأة منها أن يكون ذلك الكهل الوقح . ولياً للعهد بعد اخي حفظه الله »

فاظهرت انها لم تفهم مرادها فاستفهمتها فاوضحت لها شروطه التي تقدم بيانها ثم قالت « ولم يكن ولو فرض قدرة ذلك الشريف الكاذب على قتل

صلاح الدين فان صيرورة ولاية العهد اليه بدل ابن اخي اصعب عندي من البقاء في حوزة صلاح الدين »

فقالت ياقوتة وهي تظهر عظهر الاهتمام « لا أرى رأيك في ذلك يا سيدتي بل أعد سعي ابي الحسن هذا باباً للفرج لانه اذا لم يستطع قتل صلاح الدين لا بال سيئاً . وان استطاع فان ولاية العهد لا تصير اليه لان مولانا أمير المؤمنين شاب في مقتبل العمر أطال الله بقاءه . ومن يعلم المستقبل »

فلم تعد سيدة الملك تصبر على سماع هذا العذر فنهضت فجأة ونهضت معها ياقوتة وهي تنتظر ما تقوله فاذا هي تقول « ولكنه يشترط ايضاً شرطاً آخر الموت أهون عليّ من قبوله »

وكانت ياقوتة تعلم رغبة ابي الحسن فيها فاظهرت انها فهمت مرادها فقالت « انك تكرهين هذا الرجل كرهاً شديداً يا سيدتي . . . طولي بالك يا سيدتي حتى أتمم كلامي اذا نظرنا في مطاليبه وشروطه لا نجد ما يبعث على هذا القلق . . ان الرجل من أبناء عمك ويعرض أن يقتل اعدى عدو لنا وينقذ هذه الدولة من الخطر الذي لم يقدر عليه أحد سواه فاذا فاز صار ولياً للعهد وتروج باخت الخليفة لا اظنك تستنكفين ان تكوني زوجة رجل انقذ الدولة من الموت وهو مع ذلك شريف النسب . تبصري في ما أقول . » قالت ذلك واكبت عليها وجعلت تقبلها وتضمها للتخفيف عنها

فانفرت سيدة الملك من بين يديها وحولت رأسها عنها نحو ستارة معلقة على الحائط عليها صور غريبة وظهرت انها تتأملها ولكنها لم تكن ترى شيئاً لفرط اضطرابها وغضبها . وظلت ساكتة وظنتها ياقوتة تستسيغ رأيها فعادت الى الموضوع واحاطت عنق سيدتها بذراعيها وهي تقول

« لا تتعجلي يا سيدتي برأيك — فكري بالامر ملياً — أن عليه يتوقف بقاء هذه الدولة ورد على ذلك انك لا تجدين من ابناء عمك من يستطيع هذا العمل . . فلا باعث على هذا النفور منه »

فقطعت سيدة الملك كلامها وتحولت نحوها وقد بان الغضب في عينيها وقالت « تقولين لا باعث على هذا النفور ؟ »

قالت نعم أقول ذلك لاني لا ارى باعثاً . والا قولي ما يبعثك على رفضه ؟ »

قالت « يبعثني على ذلك اني لا اطيق ان ارى هذا المنافق . . اذا رأيته ارتعدت فرائصي من رؤيته . . تباً له كأن عينيه من نوافذ جهنم . . اذا نظر الي خيل لي أن الشيطان يطل من حدقتيه ويهم أن يأخذ بتلابيبي دعيني لا اقدر أن اتصوره . . »

فهزت ياقوتة رأسها هز الانكار وقالت « يا للعجب انك تكرهين هذا الرجل عفواً . اظنك تظلمينه . لم ار منه ما يبعث على شيء من ذلك . »

قالت « ألا ترين الشر في سحنتـه ؟ اني ارى ذلك واضحاً يكاد يلمس باليد . . دعيني منه »

قالت وهي ممسكة يدهـا تجلسها على السرير « اقعـدي يا سيدتي لاخاطبك كما تخاطب الام ابنتها وان كنت لا استحق هذا الشرف . . »

الفصل السادس عشر

الشكوى

فقعدت وهي تنظر في عيني ياقوتة فقـالت ياقوتة « انك يا سيدتي شابة في مقتبل العمر وقد منحك الله جمالاً وتعقلاً ولا بد من ان تتزوجي

بمن هو كفء لك . وأنا لا ارى اكفأ من ابي الحسن فانه عريق في النسب العلوي الشريف »

فوثبت سيدة الملك من السرير وقد تغيرت سحنتها وعلت عليها الغضب وقالت « ليس الزواج ضرورياً لي . واذا كان لا بد منه فلا يهمني أن يكون ذلك الزوج من النسب العلوي . . » قالت ذلك وتنهدت تنهداً عميقاً وامتقع لونها ثم احمرت وجنتاها فجأة وبان الحياء في عينيها فحولت وجهها عن ياقوتة وغطت عينيها بكفيها فاستغربت ياقوتة حركاتها وادركت أن ذلك لا يبدو الا من فتاة عالقة القلب برجل يمنعها الحياء من ذكره . فغيرت لهجتها في الحديث وضمتها الى صدرها وقبلتها بين عينيها وقالت « فهمت الان شيئاً لم اكن اعرفه من قبل أنت عالقة القلب برجل آخر »

فمرت سيدة الملك من هذا التعبير الصريح وتراجعت وهي لا تزال مطرقة وظلت ساكنة فتبعتها ياقوتة وهي تقول « لعلي بالغت في التصريح فوقعت عبارتي ثقيلة على سمعك اعذريني لكنني اتقدم اليك ان تصدقيني هل اصاب ظني ؟ ـ انا معك كل يوم وكل ساعة لا افارقك ولا يدخل علينا احد من الرجال غير اخيك و بعض الاطفال من ابنائه وابناء عمك فيبعد أن تكوني عالقة باحد لكني ارى دلائل الحب في عينيك . . »

فازداد احمرار وجهها وزاد حياؤها وهمت بالكلام ثم توقفت

فقالت ياقوتة « قولي لا تخافي . هل تحبين احداً . ثم نبحث في من هو ذلك الاحد . . »

قالت « دعيني يا خالة . دعيني من هذا البحث الآن لا فائدة منه غير زيادة الاشجان . » قالت ذلك واظهرت انها تميل الى الرقاد فاعانتها ياقوتة حتى استلقت على السرير ووضعت الغطاء عليها وجعلت

تصلح ما يحيط بها من الملاءة والمخدة وهي تراقب ما يبدو منها فاذا آنست ميلها الى الحديث استأنفته والا تركتها تنام

أما سيدة الملك فان ذلك الحديث هاج اشجانها ومالت الى مفاتحة حاضنتها بما يكنه ضميرها ولكن الحياء كان غالباً عليها وكانت تظن الحاضنة تصر من نفسها على استتمام الحديث فلما رأتها اطاعتها واعانتها على الرقاد ندمت واخذت تتذرع الى استئناف الكلام فاظهرت ضجرها من الغطاء وتنهدت والتفتت الى ياقوتة التفاتة أثرت في اعماق قلبها فانحنت فوقها وهي حانية بجانب السرير وقالت « ما بالك يا سيدتي يا حبيبتي ؟ . لماذا تكتمين همك عني . . »

فمالت واسانها يتلعثم « اخاف أن تضحكي مني أو تهزئي بي . »

قالت « معاذ الله أن افعل ذلك وكيف افعله ولماذا ؟ »

قالت « لاني احب رجلاً لا يخطر ببالك اني احبه ولو علم احي به لاستغرب عملي وحسبني مجنونة . واما انا فلا . » وسكتت وهي تتشاغل باصلاح شعرها تحت رأسها ورفع الغطاء واصلاحه »

فوقعت ياقوتة في حيرة ولم تفهم حقيقة مرادها أو لعلها ادركت قصدها وتجاهلت لتسمع زيادة التصريح فقالت « لم افهم يا سيدتي مرادك من هو الرجل الذي وقع من نفسك هذا الموقع لا بد أن يكون نادرة الزمان »

قالت « ألا تعرفينه ؟ .. بلى تعرفينه جيداً قد رأيته في هذه الدار كما رأيته . وشهدت انت نفسك انك لا تعرفين اشرف منه خلقاً ولا اكبر همة ولا اعز نفساً . رأيته وبيده خصلة الشعر التي كان اخي قد بعث بها الى صاحب دمشق يستغيث به باسم نساء قصره — ان اخي ارتكب

بذلك ذلاً لم يمحه الا هذا .. فرد عليّ شعري بعد ان انقذ حياتي من الموت ونجى سرفي من الدنس »

فصاحت ياقوتة « اظنك تعنين الشاب الكردي ! . »

فابتدرتها لاهفة وقالت « نعم اياه اعني اعني ذلك الشهم الباسل . »
قالت ذلك وقد عاد اليها نشاطها وتحمست وبان الاهتمام في عينيها

فتقدمت ياقوتة اليها وهي تبتسم وقد شاركتها بذلك الشعور وقالت « الآن فهمت المراد . قد عرفت الشاب جيداً ولا انسى ذلك اليوم »

فقالت سيدة الملك « هل علمت ما اسمه ؟ » فاطرقت الخاضنة واعملت فكرتها كانها تراجع ذاكرتها ثم قالت « نعم علمت اسمه . . . ولكن هل تعلمين انت من هو وما هى علاقته بصلاح الدين عدونا الالد الذي يشكو اخوك امير المؤمنين ظلمه ؟ »

قالت « لا لا اعلم . »

قالت « انا اعلم . . انه من رجال خاصته . لا يخطو خطوة الا وهو معه . . »

قالت وهي تبتسم « فهو اذاً قد نال ثمرة تلك المواقف السامية فتقدم عند مولاه . وما اسمه . . » قالت ذلك وعيناها تلمعان

قالت « اسمه عماد الدين .. وكثيراً ما رأيته واقفاً بباب قاعة الذهب في انتظار صلاح الدين وهو عند مولانا امير المؤمنين . . ألم تشاهديه من شباك قصرك ؟ »

قالت « لم اشاهده هناك لكني رأيته غير مرة واقفاً بباب هذا القصر يخاطب الاستاذ بهاء الدين قراقوش وعيناه لا ترتفعان الى الشبابيك ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً كأنه لا يعرف اهل هذا القصر . وكثيراً ما وددت أن يرفع بصره لعله يلتقي ببصري وربما اقرأ في عينيه شيئاً يدلني على

رأيه فيّ فلم يفعل فلم يزدنى ذلك الا تشغفاً بما فيه آه اعذريني يا خالة اعذريني . . طالما كتمت هذا الحب حياءً وخجلا وكنت ارى فى كتمانه لذة . اما الان فقد بحت به وقضى الامر »

الفصل السابع عشر

الحب سلطان

فقالت « انت يا سيدتى تحبين عماد الدين خادم صلاح الدين ! . بالله ما هذا ؟ كيف علقت به بمجرد النظر اليه مرة واحدة . هذا امر عجيب . . ان بين اعمامك وفى قصور اخيك عشرات من الشبان اجمل من هذا ويقع نظرك عليهم منذ اعوام وكلهم يتمنون نظرة منك فلم تكترثى باحد منهم . . » قالت ذلك وهزت رأسها هزة الاستغراب

فاجابتها سيدة الملك « صدقت يا خالة اني اكثر منك استغرابا لما اصابنى من مجرد تلك النظرة . . وما هى فى الحقيقة نظرة . . انها ساعة اطول من العمر كله . كنت فيها بين الحياة والموت فطرت ذلك الشاب وانا اكاد القى وجه ربى أو اتناطح بالعار . فمد يده وانقذنى من الشرين جميعا . خيل لي انه ملاك هبط عليّ من السماء . . واكرم به من ملاك »

قالت ذلك وعادت الى الاطراق وقد توردت وجنتاها

فقالت ياقوتة « اذن انت تحبين عماد الدين »

فابرقت عيناها رغم ذبولهما من البكاء والانكسار وابتسمت ابتسامة لطفت ما تكاثف فى وجهها من الحزن واومأت برأسها أن « نعم » واسرعت الى الغطاء ورفعته الى رأسها استحياء

ووقع قولها عند ياقوتة موقع الاستغراب وقالت وهي تزيح الغطاء عن

وجهها بلطف « نعم يا سيدتي ان عماد الدين شهم نادر المثال ولكنه لا يليق بسيدة الملك سليلة المعز لدين الله »

فنهضت وقعدت وقد انحل شعرها حتى غطى كتفيها وخديها ونظرت الى ياقوتة نظر العتاب وقالت « ان المعز رحمه الله لم يبلغ الى هذا السؤدد ولا توارث ابناؤه هذا الملك الواسع الا بمناقبه وعلو همته وكرم اخلاقه . ومناقب عماد الدين لا تقل عنها شيئا . انك تعلمين ما اتاه هذا الشاب من المروءة يوم واقعة العبيد وكيف تهالك في سبيل نجاتي وحمل اليّ خصلة الشعر وهو لا يعرفني . . ان كنت قد نسيت ذلك فاني لا انساه . . لا انسى يوم اتاني ذانك السقيان وارادوا حملي من هذه الدار فانقذني هذا الغريب منهما بغير ثواب يرجوه ولا عقاب يخافه وانما فعل ذلك مندفعا باخلاقه السامية . . فانا من اجل هذه الاخلاق احببته ولم انظر الى اصله وفصله » . وتوقفت لحظة وهي ترفع شعرها عن عينيها ثم قالت « اتذكرين ذينك الرجلين اللذين هما لي في ذلك اليوم ؟ اذا علمت الآن انهما من ابناء الملوك او الخلفاء وطلب احدهما هل ترضين ان اكون زوجة له ؟ »

قالت « معاذ الله انهما ساقطا الهمة . . »

قالت « اعلمي ان احدهما يغلب على ظني انه ابو الحسن الشريف الذي ترغبونني فيه . . والآخر خادم له استعان به لاختطافي في وسط الغوغاء بعد ان علم اني لا اريده . . » قالت ذلك وكأنها ندمت على ما فرط منها فسكتت واطرقت

فقالت ياقوتة وقد تولتها الدهشة « هل انت على يقين مما تقولين يا سيدتي ؟ »

قالت « لا اقول اني على يقين . ولكنني ارجح هذا الظن كثيراً . ومع ذلك فانا لا اقول هذا ولا ذاك — وانما اقول اني منذ رأيت عماد الدين

وما اتاه من المروءة شعرت بشيء احتذب قلبي نحوه وكنت اتوقع ان اراه مرة أخرى يأتي بها الى الحي يطلب مكافأة على صنيعه فلم يأت فازددت اعجابا به وارتفعت منزلته في قلبي وتحول الاعجاب الى حب شديد » ثم تنهدت وقالت « ويلاه هل هو يشعر مثل شعوري ؟ قالت ذلك وخنقتها العبرات ولم تعد تتمالك عن البكاء والخاصة تستغرب هذا التعلق بنظرة واحدة فاحدت تخفف عنها وتقبلها وتقول لها خففي عنك يا سيدتي .. ارجعي الى رشدك ان مثلك لا يسترسل في عواطفه الى هذا الحد مع شخص لم تره الا بضع مرات ولا يعرف شعوره من جهته — تجلدي وارجعي الى رشدك لو فرضنا وانت في هذا الهيام علمت ان عماد الدين يحب سواك كيف تكون حالك ؟ . . تصبري قليلاً . . »

فاستجمعت سيدة الملك قواها واسترجعت رشدها واطرقت وهي تتأمل بعبارة حاضنتها فرأت الحق معها . ولكن الحب سلطان مستبد لا يذعن للحق ولا يعرف الصواب . وانما يلذ له الاستبداد بلا سبب والفتك بلا حساب . ولا يحلو الحب الا ان يكون مستبداً ومتى اذعن للاحكام العقلية والاقيسة المنطقية أو العبارات الاقتصادية صار معلماً أو تاجراً او فقيهاً . وانما هو سلطان مطلق لا يقيده دستور ولا يردعه خوف من عقاب . فهو لا يسأل عما يفعل ورعيته راضية باستبداده تعد ظلمه عدلاً وتحسب عسفه رفقا — ذلك كان شعور سيدة الملك في تلك اللحظة . كان عقلها يدلها على مكان الخطأ وهي لا تريد ان تراه . فاسترسلت في عواطفها ونظرت الى ياقوتة والاعتراف على شفتيها والانكار في عينيها وقالت « صدقت يا خالة . ولكني لا اظنه يفعل ذلك . . لا . . لا ولكن مهما يكن . فاني لا ارى سبيلا الى غير ما ذكرت فدبريني برأيك . . »

فتحيرت ياقوتة في الجواب ورأت الحديث قد طال وتوالت الغرائب التي كشفت لها في تلك الليلة فعزمت على استخدام الوقت للتفكير على انفراد لعلها تهتدي الى حل يرضي سيدتها ويوافق ضميرها . وترامت على يدي سيدتها تقبلهما وهي تقول « خفضي عنك يا مولاتي . اني املك اوديك بروحي . . كوني مطمئنة وقد تعبت اليوم من هذا الحديث وآن الرقاد فتوسدي فراشك . وامهليني لانظر في الامر ولا بأس عليك في كل حال . فان اخاك حفظه الله لا يجبرك على من لا تحبينه . وانا اعلم منزلتك عنده . لكن لا بد من تدبير طريقة لمشاهدة عماد الدين توسدي فراشك وها اني ذاهبة وسافكر فيك كثيراً الليلة على الخصوص . واما أنت فلا اطلب تفكيرك بي » وضحكت لمداعبتها ثم قالت « فكري عن نفسك » فاستلطفت سيدة الملك تعبيرها لانها كان من اقصى امانيها ان توافقها ياقوتة على اعتقادها وتسعى معها بما في قلبها فيهون عليها كل شيء فسرّي عنها واطاعت حاضنتها في الرقاد وذهبت ياقوتة أيضاً الى رقادها

الفصل السابع عشر

خزانة الجوهر

قضت سيدة الملك بقية الليل بين اليقظة والمنام لفرط قلقها وافاقت في الصباح التالي على صوت المؤذن لصلاة الصبح ولم يكن يطلب منها القيام للصلاة لكنها لم تعد تستطيع رقاداً فجعلت تتقلب على الفراش وافكارها تائهة وتذكرت اخاها واحبت ان تعلم حاله بعد ذهابه من عندها هل شفي مما كان فيه فنهضت من الفراش والتفت بمطرف من الخز التماساً للدفء وخرجت من غرفتها الى دهليز يؤدي الى شرفة تطل على مصلى الخاصة

فرأت اخاها قد خرج للصلاة فاطمأن بالها عليه وهي عائدة الى غرفتها استقبلتها الخاصة وسألتها عن حالها واخذت تحادثها وتؤانسها ومست معها الى غرفتها واعانتها في لبس ثيابها وامرت باعداد المائدة وجلست اليها وهي تقول « اطمئنك عن صحه سيدي امير المؤمنين فانه في خير »

قال عرفت ذلك من خروجه للصلاة واحمد الله على ذلك ولكني احب ان اراه . . »

قالت « ستريه الليلة بعد رجوعه من قصر الذهب والفراغ من مهام الدوله . هيا بنا الى الطعام الآن »

فمشت الى غرفة المائدة فتناولت الطعام وهي تتوقع أن تفاتحها ياقوتة بالحديث عن عماد الدين فلم تفعل فاستحت هي أن تذكره . قضت نصف ذلك النهار وهي تتشاغل بشؤون مختلفة . وأحست بعد الغداء بميل الى الرقاد من فرط تعب الامس فوسدت فراشها فنامت ملء جفونها . وافاقت وقد هدأت اعصابها وهان عليها ما هي فيه بالنسبة الى ما كانت عليه من التعب — لان تعب الاعصاب يزيد صاحبه قلقاً ولا يريه الامور الا من وجهها الاسود

فنهضت من الفراش وقد اشرق وجهها وعاد اليه ابتسامه فصفقت تطلب الخاصة فابطأت عليها . ثم جاءتها وفي وجهها خبر مهم قلقت سيدة الملك عند رؤيتها ولم تصبر عن الاستفهام عما وراءها فقالت ياقوتة « ما ورائي الا الخير يا سيدتي . . هلمّ بنا »

فاجفلت وقالت « الى اين ؟ »

قالت « الى خزانة الجوهر »

فاعرضت عنها اعراض المنكر لما يسمعه وقالت « اين الجوهر » أنهم لم يتركوا فيها شيئاً »

قالت « انهم اخذوا كثيراً وتركوا كثيراً . لكنني لا ادعوك للجوهر يا سيدتي وانما اريد ذهابك الى تلك الخزانة لملاقاة سيدي امير المؤمنين فانه انفذ في طلبك اليه على ان توافيه الى تلك الخزانة لسبب لا اعلمه »

قالت بلهفة « اخي يطلب ذهابي لملاقاته هناك ؟ »

قالت « نعم يا سيدتي . ولا حاجة الى تبديل ثيابك لانك تذهبين الى ذلك المكان في دهليز يؤدي اليه لا تجدين فيه احداً . . هلمّ بنا » قالت ذلك واشارت اليها أن تمشي فلفت رأسها بملاءة لازوردية اللون . ومشت وهي تفكر في ماذا عساه أن يكون الغرض من هذه الدعوة في ذلك النهار

خرجتا من قصر النساء الى دهليز اخلاه الخدم والجواري . فمرت سيدة الملك ولم تجد احداً في طريقها حتى اتت خزانة الجوهر . وهي غرف عديدة نضدت فيها الخزائن والرفوف واقيمت فيها الارائك فوق الطنافس . ولم تكن دخلت تلك الدار من عهد طويل . ولكنها كانت تسمع بما تحوي من الذخائر النفيسة والجوهرات الثمينة وتعلم انها أُخذت ايام المستنصر بالله ابي تميم لما غلب على امره منذ نحو مئة عام . ولم تكن تتوقع ان تجد فيها شيئاً من الجوهر يستحق الذكر

وصلت الباب فاستقبلها الحاجب وادخلها واشار الى ياقوتة بالانصراف فانصرفت . اما سيدة الملك فدخلت وعيناها شائعتان تبحثان عن اخيها . فرأته جالساً في صدر القاعة الوسطى وحده على مقعد وقد تعمم بعمامة صغيرة و بيده سبحة يعد حباتها وهو مطرق يفكر . فلما انبأه الحاجب بمجيء اخته رفع بصره اليها وهشّ لها واخذ يرحب بها فترامت عليه وسألته عن صحته فقال « اني والحمد لله في خير وعافية وكيف انت ؟ »

قالت « طالما كان امير المؤمنين سالماً فانا سالمة ابقاه الله لنا ركناً

وسنداً » قالت ذلك وهي تقرأ في وجهه خبراً جديداً . لكنها تجاهلت وخاطبته وهي تقعد على وسادة بالقرب منه قائلة « اني لم ادخل هذه الدار منذ سنين عديدة وآخر مرة دخلتها كنت طفلة ولا اذكر اني علمت ما فيها و . . »

فقطع كلامها قائلاً « وماذا عساك أن تعلمي ؟ يكفي أن تسمعي بما كان فيها قبل عهد جدنا الامام المستنصر رحمه الله انظري الى هذا الصندوق »

فنظرت اليه وهو متقن الصنعة وعليه نقوش فطنته يستلفت نظرها الى نفسه فقالت « انه جميل »

قال « لا أعني جمال ظاهره ولكني اعني ما كان فيه من الحجارة الكريمة اخبرني والدي رحمه الله انهم اخرجوا منه في زمن المستنصر سبعة أمداد زمرد قيمتها ٣٠٠٠٠٠ دينار تخالطها الماس »

فدهشت من ذلك وقالت « ان ذلك غريب نادر »

قال « ولو اردت ان اذكر لك اسماء ما كان من التحف في هذه الدار لاستغرق سردها فقط عدة ساعات وانما اذكر عقداً من الجوهر قيمته ثمانون الف دينار بيع يومئذ بألفي دينار واخذوا من خواتم الذهب والفضة فقط نحو ١٢٠٠ خاتم فصوصها من الجواهر المختلفة فيها ثلاث خواتم ذهب مربعة على كل منها ثلاثة فصوص أحدهما زمرد والاثنان ياقوت سماقي ورماني بيعت باثني عشر الف دينار . غير ما اخرجوه من الجواهر ونحوها فانها كانت تحصى بالويبة وتكال بالكيل منها ويبة جواهر مشتراة في الاصل بسبعماية الف دينار باعوها بعشرين الف دينار . وطاوس ذهب مرصع بالجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من زجاج الميناء المجرى بالذهب على الوان ريش الطاوس . غير التحف المتوارثة عن الخلفاء أو المنقولة الينا

من العباسيين وغيرهم [1] ورقع الشطرنج احجارها من الجوهر والذهب والفضة والعاج . كل هذه ومئات مثلها أحدث في نكبة المستنصر ولا فائدة من الكلام الآن . . »

فانقبضت نفس سيدة الملك مما سمعته وقالت « ان مصيبتنا قديمة يا اخي . . ولا فائدة من التذكار الآن » قالت ذلك وهي تتعجل ما في خاطر اخيها عن سبب استقدامها اليه

فقال « صدقت . ولكني اطمئنك ان أولئك اللصوص لم يأخذوا كل ما كان لنا فان بعض خواصنا واهل بطانتنا المخلصين يومئذ احتفظوا لنا ببعض ما كان من الذخائر ولا يزال مخبأ الى الآن » قال ذلك ونهض الى خزانة داخلة في الحائط لا تستلفت النظر اليها ففتحها بمفتاح استخرجه من جيبه ومد يده فاخرج منها حقاً فيه عقد من الجوهر يبهر النظر دفعه اليها فناولته وجعلت تقلبه فقال لها « خذيه حرزيه على عنقك »

فتراجعت واعادته الى الحق . فمد يده واخرجه وألبسها اياه في عنقها وقال « هذا لك »

فارادت ان ترجعه فمنعها وقال « خذيه انه لا يليق باحد سواك . »
واستخرج من حق آخر خاتماً حجارته من الزمرد والياقوت نحو الذي ذكره وألبسها اياه في اصبعها . فلم يعجبها منه هذا الكرم ولحظ استغرابها فقال « لا تستغربي ما ترينه فان في هذه الخزائن تحفاً اخرى لا يعلم بها سواي وسأدفعها كلها اليك لئلا تذهب كما ذهبت تلك »

فتوسمت من كلامه شيئاً يعنيه اسدل طرفاً عليه فقالت « ماذا تعني يا اخي ؟ معاذ الله ان تكون ما تشير اليه . لا يتمتع بهذه الذخائر سواك وسوى اولادك » قالت ذلك واختنق صوتها رغم ارادتها لكنها تجلدت

(١) المقريزي ١٤ : ج ١

وهمت ان تتم كلامها فلحظت في عيني اخيها شيئاً كالدمع وهو ينظر اليها نظر المستعطف . ثم قال « انت لا تريدين ان تمنى هذه التحف لنا »

الفصل الثامن عشر

بين خطيين

فادركت ما يشير اليه من تمنعها عن قبول ابى الحسن زوجاً لها بعد ان تكفل بقتل صلاح الدين . فاحست بوخز الضمير واثر فيها الاسلوب الذي اختاره اخوها لمعاتبتها . لكنها لا تستطيع ان توافقه ولا تعتقد ان ابا الحسن يستطيع القيام بوعده ولم تجد الوقت مناسباً للدفاع في تلك الساعة فقالت « انت تعنفني يا اخي على امر ليس في طاقتي . . فانا قد عاهدت نفسي ان لا اتزوج . . واذا كان ذلك الرجل يقدر على شيء فليفعله ثم نرى ما يكون »

فرأى في جوابها شبه الرضى فقال « انما المطلوب قبل كل شيء ان تظهري الرضى به ليقدم على العمل أليس كذلك ؟ كيف يتصدى لهذا الخطر وهو يرى هذا الرفض ؟ » . قال ذلك وهو يتبسم ويهس ليسترضيها وكادت ان تغلب على امرها واوشك ان يحملها حبها لاخيها على ان توافقه في ما يريد . لكنها ما لبثت ان تصورت ابا الحسن فنفرت منه وتذكرت عماد الدين فاختلج قلبها في صدرها وتوردت وجناها

وظن اخوها تريد اجابته لكنها تستحيي فقال « ما الذي يضرك ان تجيبي طلبي وهذا الرجل اكفأ انسان لك . . فضلاً عما وعدنا به من الخير . . فولي انك ترضينه خطيباً لك . . واذا كنت تحسبين قبولك به مصيبة فانها مصيبة صغرى . . وابرقت عيناه كانهما تنطقان بسر يكتمه . وتلك اعلى دلائل حيات مسمحته

فاطرقت سيدة الملك واعملت فكرتها في كلام اخيها فخافت ان يصح ظنها فقالت « ماذا تعني يا اخي بالمصيبة الصغرى وهل هناك مصيبة أكبر منها ؟ »

قال « أكبر منها يا اختي ان يطلبك رجل اعجمي من غير اهلك لا قبل لنا برد طلبه . . فهمت ؟ »

قالت « ماذا تعني ؟ من يتجاسر على هذا الطلب ؟ »

قال « يتجاسر عليه الذي تجاسر على سلب حقوقنا من ايدينا واستبد بالامر دوننا ونحن احياء . . الرجل الذي نخاف سطوته ونحسب لحركاته الف حساب . . ألا يستطيع هذا الرجل ان يطلب ؟ واذا طلب من يرده ؟ »

فبغتت واستبعدت ما يفهم من كلام اخيها فقالت « صرح بما تقول . . هل تعني صلاح الدين ؟ »

قال « نعم اياه اعني . . فما قولك ؟ »

فتراجعت وقد اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ولم تتمالك عن القعود على المقعد وقد امتقع لونها واوشك الدم ان يجمد في عروقها وسكتت

فقعد اخوها بجانبها واحاط ذراعه حول كتفيها ليلاطف من نعتها وقال « اني ازعجتك بهذا الخبر ولكنك احرجتني . . ولا تظني الامر قد نفذ . . انه لم يطلبك صريحاً بعد . . ولكن رجلاً من خاصته جاءني في هذا الصباح وفاجأني بهذه المصيبة بعد ان مهد الكلام بمقدمات طويلة عريضة الى ان قال « ان السلطان صلاح الدين يريد ان يتشرف بهذا القران فاحب ان يسألك على يدي قبل الاقدام على الطلب لعل هناك مانعاً »

فقالت « وماذا اجبته ؟ »

قال « هممت ان اجيبه بانك مخطوبة لابى الحسن لعلمي ان هذه الحجه تكفى للنجاة من هذه الورطة لكنني استمهلته في الجواب الى الغد لاسألك وقد اخترت هذا المكان للمقابلة حتى لا يكون معنا ثالث . . ها اني قد اطلعتك على جلية الامر فما رأيك . . ألا ترين القبول بابن عمنا أولى ؟ » ولم يكن العاضد ينتظر منها غير القبول فلما ابطأت في الجواب وهي مطرقة كرر السؤال

أما هي فكانت تفكر في طريقة للنجاة من هذه الورطة لانها تفضل الزواج بصلاح الدين ولا بابى الحسن لكنها تفضل عماد الدين على كليهما. وحدثتها نفسها ان تصرح له بما يكنه ضميرها فخافت العاقبة ولما كرر أخوها السؤال قالت « صدقت ان الاحتجاج بكوني مخطوبة قد يرجع صلاح الدين عن عزمه قل له اني مخطوبة اذا شئت ولا تذكر لمن »

قال « لكنه لا يصدق الا اذ ذكرنا الخطيب لئلا يحسبنا نكذب لنتخلص منه . . سأقول له انك مخطوبة لابى الحسن »

فابتدرته قائلة « كلا . لا تقل هذا . لان ذلك لا يكون ابداً » ولم تتمالك عن هذا التصريح وقد ارتفع صوتها رغم ارادتها

فبان الغضب في وجهه وقال « كنت اجاملك وألاطفك قبل هذا المشكل . اما الآن فلا ارى لرفضك معنى بعد ان بينت لك السبب . . ليست هذه شعائر الاخت المحبة لاخيها . وانت تعامين ما وعدنا ابو الحسن به ولا سيما الآن بعد ان يعلم ان صلاح الدين ماطره فيك فانه يزداد اهتماما في تنفيذ عرضه . قولى انك قبلت به والا ضعف اعتقادي بتعقلك وصدق محبتك واعلمى مع ذلك ان امير المؤمنين يخاطبك ويطلب ذلك منك وهو ولى أمرك » قال ذلك بشيء من السلطة

فعظم ذلك التهديد عليها وهبت الحمية في صدرها ورجعت اليها عزة

نفسها فنظرت الى اخيها نظر العاتب وقالت « تهددني بما لك من السلطة عليّ . . وبانك ولي امري ؟ ان هذا لا يغير شيئًا من عزمي . واذا شئت ان تنفذ هذه السلطة من نفسك فافعل . واما انا فيستحيل عليّ القبول بذلك المنافق المرائي . . وربما فضلت صلاح الدين عليه عند الضرورة . ولكنني لا أريد هذا ولا ذاك . . »

فدهش العاضد لهذا التصريح وقال « الى هذا الحد بلغ من جسارتك وتخاطبينني بهذه الوقاحة ؟ . . انني اخطأت لاني شاورتك في الامر . وكان لي ان لا استشيرك لاني ولي امرك من جملة وجوه . . وانا فاعل ما اراه خيراً لك . اذ ظهر لي انك متمسكة بالخطأ لغير سبب اعلمه . . لم يبق الا ان تخرجي للسوق وتختاري لك زوجا من المارة وابناء السبيل ! . ليس ذلك من شأن بنات الخلفاء . . ان العناية جعلتك من طبقة الملوك وميزتك بالنسب الشريف فلا يجوز ان الاقتران بغير الاكفاء . وهذا أبو الحسن ابن عمنا وهو اكفأ انسان لك . يكفي الان . » قال ذلك وتحفز للمسير كأنه قال ما لا يقبل نقضاً ولا ابراماً

أما هي فظلت واقفة واوشكت أن تسقط على الارض من التأثر لانها لا تقدر أن تبوح بما في خاطرها بعد أن رأت اخاها يكبر تفضيلها صلاح الدين فكيف لو علم انها تحب خادمه فرأت السكوت في تلك الحال اولى وصممت ان تفعل ما يحلو لها ولو خالفت الشرع والعرف . فلما رأته يتحرك للمسير مشت بهدوء وسكينة ولم تبد كلمة فظنها شعرت بسلطته عليها فقنعت فكتم فرحه وظل على اظهار الغضب والعبس

وحالما خرجت من امامه رأت خاصتها تنتظرها في الدهليز فرافقتها الى غرفتها وقد لحظت الخاصة تغييراً بيناً في وجهها فاصبح همها استطلاع الخبر

أما سيدة الملك فانها صممت على عمل لا يخطر لحاضنتها ولا غيرها وفصلت البقاء على كتمانه لئلا تحول ياقوتة دون انفاذه . خطر لها أن تستقدم عماد الدين ونفر معه من قصر أخيها وتمحو من ذلك الاسر . ولكنها لا تستغنى عن ياقوتة في البحث عنه واستقدامه فعزمت على كتمان ذلك عنها

أما ياقوتة فانها تهيبت من غضب سيدتها . ورغم ما لها من الدالة عليها لم تجسر على مخاطبتها فاخذت تتذرع الى استطلاع حالها بالتجاهل فحالما دخلت الغرفة قالت لها « مالي أرى سيدتي غاضبة .. ما الذي أغضبها؟ اني أرى في جيدها عقداً من الجوهر وفي أصبعها خاتماً من الزمرد والياقوت لو كانا لي لزالت عني هموم الدنيا »

فانتبهت سيدة الملك الى العقد والخاتم وكانت قد نسيتهما لفرط قلقها فنزعت العقد من عنقها والخاتم من أصبعها ورمت بهما الى الارض وجلست على السرير وهي تتنهد

والتقطت ياقوتة العقد والخاتم وهي تقول « ما بالك ياسيدتي . ما الذي أغضبك ؟ اذا كان هذا العقد قد غيرك أعطيني اياه »

قالت « خذيه . بل هاتيه .. » واسترجعته من يدها ووضعته في جيبها مع الخاتم

فابتسمت ياقوتة على سبيل المداعبة وقالت « اذا كنت قد غضبت من أمير المؤمنين فما هو ذنبي يا سيدتي وانا اتفانى في خدمتك ؟ »

فاظهرت الارتياح الى قولها وكظمت غيظها وقالت « بارك الله فيك دعيني الآن »

قالت « لا . لا اتركك حتى تقولي ماذا جرى بينك وبين مولانا أمير المؤمنين »

قالت « انه مولاك وليس مولاى »

قالت « انه مولانا بحكم الله أطال الله لنا بقاءه »

قالت « اطال الله بقاءه لكنه . . » وسكتت وقد سرقت بدموعها

فقالت يا قوتة « ما بالك قد غيرت عادتك معى لماذا لا تسكنين الىّ همك لعلى أستطيع خدمتك بشيء . ألم نكن على موعد للنظر فى أمر عماد الدين ؟ »

فلما سمعت اسم عماد الدين سري عنها وهان عليها الصبر والتفتت الى يا قوتة وابتسمت وعيناها تلمعان من الدمع فأثر منظرها فى يا قوته وأكبت على يديها تقبلها وتقول « بالله لا تغضبي يا سيدتى . لا تعامليني بالجفاء . . افصحى لى عما يكنه ضميرك وأنا امتك أفديك بروحى ومولى لا تخافى »

فتنهدت وهي تتجلد وقالت « نعم كنا على موعد من أمر عماد الدين . . ماذا رأيت ؟ وماذا دبرت ؟ »

قالت « لم أر سيدتي ان الامر لك . وأنا طوع ارادتك ماذا تريدين أن افعل ؟ قولي وانا فاعله حالاً »

فنظرت اليها نظرة أحرقت أحشاءها وقالت « اريد ان تأتي بعماد الدين الى هنا في هذه الليلة . . »

قالت « فى هذه الليلة ! ولماذا ؟ »

قالت « لا تسأليني عن السبب . انت تقولين انك طوع ارادتى وهذه هي ارادتى . اريد ان ارى عماد الدين الليلة »

قالت « لك على ذلك . . خففي عنك الآن وارجعى الى رشدك واحكى لي عما جرى لك اليوم مع سيدى امير المؤمنين »

فلما أطمأن بالها من جهة استقدام عماد الدين جففت دمعها وجلست وأمرت جاريتها ان تجلس وقصت عليها ما دار بينها وبين اخيها من اوله الى آخره .

واثر ذلك في رأيها ورأت سيدتها اخطأت بمقاومة الخليفة ولكنها لم تجسر على تخطئتها فاظهرت انها ترى رأيها على نية أن تعود الى البحث معها في الامر بعد قليل فطمأنتها انها تفعل ما تريده وغيرت الحديث وشغلتها بمهام أخرى

الفصل العشرون

عماد الدين

قد علمت من حديث العاضد واخته ان صلاح الدين بعث يخطب سيدة الملك شفاهاً وسبب ذلك ان عيسى الهكاري لما خرج من دار العلم سار تواً الى صلاح الدين واسرع في مقابلته على انفراد في خلوة ونطرق في الحديث الى خطبة أخت الخليفة واقنعه بما تقدم من الادلة السياسية فاستحسن صلاح الدين رأيه فاستمهله ليساور اباه فنهاه عن مشورته اذ ربما اقتضى رأيه ملاطفة الخليفة وهم لا يرون ذلك . واذكر الهكاري بسعيه في مصلحته منذ عرفه . فقال صلاح الدين « اننا قابضون على أزمة الدولة نفعل بها ما نشاء من عزل وتولية وأموال وغيرها فكيف نطمع بالخلافة . وهذا لم يقدم عليه أحد قبلنا من غير العرب واخاف ان نطلب الزيادة فنقع في النقصان .. »

فقال « لا اعهدك ضعيف العزم يا مولاي اذا كنت لا تعرف احداً طلب الخلافة من غير العرب ألا يجوز ان تطلبها انت . أو تمهدها لاولادك بسبب الاقتران باخت الخليفة ؟ وزد على ذلك ان سيدة الملك من اجمل النساء خلقة فضلاً من ذكائها ودهائها . واما الخلافة فاذا طلبتها واحوجنا النسب القرشي فانه ميسور لان كثيرين من الصحابة القرشيين تفرقوا بالفتح ونزل بعضهم في بلاد الاكراد فقد نكون جدك متسلسلاً من أحدهم » قال ذلك وهو يظهر الجد .وادرك صلاح الدين انه يهون عليه

ادعاء الخلافة بزواجه باخت الخليفة واذا لزم النسب القرشي انتحل له نسباً فيهم . ولكنه لا يزال يتهيب من الاقدام على الخطبة فلما رأى الحاج عيسى قال له « اذا لم يكن بد من العمل برأيك فاجعل ذلك منك على سبيل الاختيار بلا كتابة مني . . »

قال « اني فاعل ذلك من عند نفسي فاخاطب الخليفة في رغبتك وأرى ما يكون . . »

قال « حسناً » وذهب الهكاري في تلك الساعة الى العاضد واطلعه على ذلك باسلوب لطيف فاستمهله في الجواب كما رأيت

اما صلاح الدين فانه بعد ذهاب الهكاري من عنده خلا بنفسه وراجع ما دار بينهما فرأى انه تسرع في الامر وكان ينبغي ان يكاشف اباه قبل الاقدام عليه . لكنه أجل ذلك حتى يعود الهكاري بالجواب وهو لا يزال في حل من الامر . وبعد قليل أتاه غلام يدعوه الى الطعام مع ابيه في الجانب الآخر من قصر اللؤلؤة فمضى وهم على الغداء قال نجم الدين يخاطب ابنه صلاح الدين « يا يوسف لم ار عندكم اهتماماً بميادين السباق . لا ينبغي ان تترك رجالك يرتاحون طويلاً انشيء لهم الميادين للمسابقة على الخيول فانهم بذلك تتقوى ابدانهم ويشتغلون عن الدسائس »

قال « صدقت يا ابي ونحن لا يمضي اسبوع لا نجري فيه سباقاً فمن فاز بالسبق قدمناه وخلعنا عليه . واحب ان اجرب ذلك بين يديك في هذه الساعة وسأختار من رجالي أمهرهم في الركوب » ونادى عماد الدين فاتى مسرعاً وخفة الروح ظاهرة في وجهه والشجاعة تتجلى في عينيه والانبساط ظاهر في انتصاب قامته وامتلاء عضله . فلما وقع نظر نجم الدين عليه استلطفه فاطال النظر فيه وصلاح الدين يأمره ان يستعد للسباق مع آخرين سماهم . فاشار عماد الدين مطيعاً وانصرف فتحول صلاح الدين الى ابيه

وهو يبتسم ابتسام الاعجاب وقال « كيف رأيت هذا الشاب يا ابى ؟ »

قال « كنت عازماً على ان اسألك عنه لانه وقع من نفسي موقعاً جميلاً واتوسم فيه الشجاعة والبسالة ولا اظنه الا بالغا مقاما رفيعا بين رجالك »

قال « وكيف اذا رأيت مهارته بركوب الخيل وخبرت اخلاقه الحميدة. يكفى استهلاكه فى سبيل خدمتى انه يحبني حبا مفرطا فلو قلت له الق نفسك فى النار لفعل. »

قال « احرص عليه وقدمه . . »

قال « انى لا اترك فرصة تمر الا اكرمته بها وهو الآن من حرسى ويستحق أن يكون من كبار القواد لكنه لا يزال صغير السن وسيكون له شأن. وقد سرنى انك توسمت فيه ما توسمته انا وتحققته بالاختبار . . »

فقال نجم الدين « هل زوجته؟ »

فقال « اردت تزويجه بجارية جميلة فلم اجد فيه ميلا للزواج »

فهز نجم الدين رأسه وقال « تلك هى مناقب اصحاب المطامع طلاب السيادة ينصرفون بكليتهم الى تلك المطامع . . فاحتفظ بالشاب »

وهما في ذلك سمعا قرع الطبول استعداداً للسباق فجلس صلاح الدين مع ابيه على اريكة نصبوها لهما بين يدي القصر تشرف على حلبة السباق وفوقها مظلة من الحرير الملون واطلق الفرسان الاعنة وكان عماد الدين على فرس ازرق يمتاز عن سائر الافراس يعرفه الناظرون عن بعد ولحظ نجم الدين انه يفوق سائر الفرسان بالخفة واللباقة . ولعبوا العابا عديدة وتسابقوا وتراموا وكفة عماد الدين راجحة في كل لعب

قضوا في ذلك بضع ساعات وصلاح الدين جالس مع ابيه تحت تلك المظلة ثم اخذ الفرسان يتوافدون للمرور امام المظلة لالقاء التحية وصلاح الدين يثنى على مهارتهم ويكافئهم بما تقتضيه المقام حتى جاء عماد الدين

فامره صلاح الدين أن يترجل ويأتي الى ابيه فترجل ووقف بين يدي
نجم الدين وقوف الاحترام . فقال له يا عماد الدين ستكون رجلا مقداما
وسرني انك حائز على اعجاب سلطانك »

فانكب عماد الدين على يدي نجم الدين يقبلها وقال « انى عبد
لمولاي السلطان أفديه بروحي واذا قدر لي ان اكون شيئاً مذكوراً
فيكون ذلك من فضله . . لا لاستحقاقي . . »

فربت له على ظهره وتناول خنجراً كان في منطقته ودفعه اليه وقال
« احتفظ بهذا الخنجر تذكاراً مني »

فاكبر عماد الدين هذا الاكرام من والد صلاح الدين وهو يعلم ان
صلاح الدين نفسه يهابه ويرتمي على يديه يقبلها وكان صلاح الدين
يخاطب بعض الفرسان فلما فرغ من حديثه تحول الى ابيه فوجده يخاطب
عماد الدين فانبسطت نفسه لاعجابه بذلك الشاب وقال « ايسرني انك
راض عنه »

فقال نجم الدين « وهو جدير بذلك واري ان تقدمه وتجعله من
حاشيتك »

قال « هو من حرسي كما قلت لك »

قال « احب ان يلازمك ولا يفارقك ليلاً ولا نهاراً وان تكون له
دالة الصديق فيدخل عليك بلا اذن »

فالتفت صلاح الدين الى عماد الدين وقال له « امر والدي بذلك
فانت من الآن لا تفارقني في حل ولا ترحال » ونهض ومشى مع ابيه
نحو القصر وعماد الدين يتبعهما وامر صلاح في القصر ان يخصص لعماد
الدين غرفة قرب غرفته هو واصبح عماد الدين لفرط امتنانه لا يعرف
كلاما يؤدي به ما في نفسه ولكنه اخذ ان يتفانى في خدمة مولاه ـ

ويغلب في صادقي المودة والمخلصين في اعمالهم ان لسانهم قصيراً فيعبرون عن شعورهم بالعمل دون الكلام

الفصل الحادي والعشرون

أمر غريب

ولم يكن لهم في ذلك اليوم شاغل هام فبعد العشاء ذهب كل الى غرفته . وقضى نجم الدين ليلته في غرفة ابنه صلاح الدين يتحادثان في شؤون كثيرة ترجع الى علاقة مصر بنور الدين . ثم انصرف الى فراشه

بات صلاح الدين تلك الليلة كعادته وهو يفكر في أمر مصر ومطامعه فيها حتى غلب عليه النعاس فنام وقد اطفئت مصابيح القصر واطمأن الحراس الا عماد الدين فانه شعر بعد ان اختصه صلاح الدين بقربه انه يجب أن يكون اكثر يقظة وسهراً على حياته . فبات وهو يفكر في ذلك فحلم لفرط قلقه ان صلاح الدين يناديه فنهض مذعوراً وأصاخ بسمعه فلم يسمع شيئاً فحدثته نفسه ان ينهض ويتسمع فخاف أن يوقظ مولاه وهو على يقين انه سمع ذلك في الحلم فعاد الى فراشه وقد طار نومه وكثر تقلبه بين اليقظة والمنام . واذا هو يسمع وقع خطوات فهبَّ من رقاده وتسمع فلم يسمع شيئاً فغلب على خاطره انه سمع هاجساً ونظر الى السماء فعلم أن الفجر قريب ورأى انه لم يعد قادراً على الرقاد فلبس ثيابه وحالما لاح الفجر خرج ليطل على غرفة صلاح الدين فرآها مقفلة وكل شيء هادئ والحراس بالباب كالعادة فعاد الى غرفته

ولم تمض هنيهة حتى سمع صلاح الدين يناديه فلباه ودخل غرفته فرآه جالساً على سريره بلباس النوم وقد أخذته الدهشة . فاسرع اليه وحياه

وصاح فيه صلاح الدين « ما هذا ؟ » واسار الى الوسادة عند رأسه فتقدم عماد الدين فرأى خنجرا مسلولاً عليه آثار دم قديم قد ألقى عند موضع رأس صلاح الدين من الوسادة فاجفل وصاح « من فعل هذا ياسيدى ؟ »

قال « لا أدرى . لكنني صحوت فى هذه الساعة فرأيت الحال كما تراها » فاطرق عماد الدين يفكر فوقع بصره على شيء عند قدمى السرير واذا هو عند ذلك الحجر فتناوله وتأمله فلم يذكر انه يعرف صاحبه وهو يتفرس فيه رأى فى جوفه بطاقة استخرجها ودفعها الى مولاه ففضها وقرأها فبانت المغتة في عينيه ثم دفعها الى عماد الدين وصفق فدخل عليه أحد الغلمان فامره ان ينادى الامير نجم الدين والده حالا

اما عماد الدين فانه قرأ البطاقه واعادقراءتها وتناول الحجر وتأمله واعاد النظر فيه فقال صلاح الدين « كيف يدخل الناس علىّ وانا نائم داخل هذا القصر والابواب موصده ولا اشعر أحد من الحراس ؟ »

فاحس عماد الدين أن التوبيخ موجه نحوه لانه أقرب الحراس اليه فارتبح عليه من شدة التأثر وهم أن يجيب واذا بنجم الدين قد دخل فلما رآهما في تلك الحال تناول البطاقة وقرأها واذا فيها

« من أحد مريدي سيد الاسماعيليه الى يوسف صلاح الدين

« اعلم يا يوسف انك وان اقفلت عليك الابواب واقمت الحراس لا تقدر ان تنجو من القصاص. اراك قد بالغت في القحة وتطاولت واستبديت وطاهرت وسببت شيخ الجبل زعيم الاسماعيليين . لقد اردت قتلك الليلة لما انقضيت عليك ولكنني عفوت عنك وانا منذرك ان تصلح من سيرتك . ولا تطمع أن تعرف من انا لان ذلك بعيد المنال اذ قد اكون اخاك او خادمك أو حارسك وقد اكون جيشًا في مملكتك أو شعرة فى رأسك وأنت لا تدري وانما الطالب منك أن تتم عدلك والسلام »

فاستولى السكوت على الجميع لحظة . ثم اشار نجم الدين الى عماد الدين أن يقفل الباب وأن يجلسوا في خلوة لا يدخل عليهم أحد . ففعل وقلبه يتقد غيظاً وقد ساءه على الخصوص حدوث هذا الامر في الليلة الاولى التي تولى بها الحراسة الخاصة واصابه الجمود لا يدري ما يقول . وادرك نجم الدين قلقه فناداه وابتسم له وقال « لا تضطرب يا بني ولا يداخلك خوف انكم لا تعرفون هؤلاء القوم ولا اظن يوسف يعرفهم »

فقال صلاح الدين « اذكر اني عرفت عنهم شيئاً .. ولكن أي الاسماعيلية هؤلاء . وما هذه الخسارة . كيف يستطيعون الدخول عليّ في غرفة نومي والحرس حولي .. صدقوا لم يكن يمنعهم شيء من قتلي .. »

فصاح عماد الدين « خسئوا .. ان ذلك بعيد عنهم .. انهم لا ينالون من مولاي السلطان شعرة قبل أن يقتل زعيمهم اللعين »

فقعد نجم الدين وامر عماد الدين أن يقعد وقال « هل تعرف من هو هذا الزعيم ؟ »

قال « كلا يا سيدي .. ومهما يكن من شأنه .. »

الفصل الثاني والعشرون

الاسماعيلية

فقطع نجم الدين كلامه وقال « تمهل يا شاب واسمع ما سأقصه على يوسف من خبر هذا الطاغية الذي يسمي نفسه رئيس الاسماعيليه وهم بالحقيقة الحشيشية » ووجه خطابه الى صلاح الدين وقال « اعلم يا بني ان الاسماعيلية أو الباطنية أو الحشيشية طائفة من الشيعة لها بالدولة العبيديه علاقة قلّ من

يعرفها ولذلك احببت أن افصلها لك . ان مذهب الاسماعيلية كان مذهب هذه الدولة عند الفتح وقد نصروه ولا سيما الحاكم بامر الله فانه احياه ونشره بمساعدة رجل فارسي اسمه حمزه الدرزي

« وفي أيامه ظهر رجل فارسي اسمه حسن بن الصباح له حديث طويل مع نظام الملك وعمر الخيام لا محل له هنا [١] فانشأ حسن هذا جمعية من الفدائيين واقام في جبل ألاموت قرب قزوين منذ اكثر من مئة سنة . وكان يغري رجاله على الفتك بمن شاء من كبار الرجال ومن جملة الذين قتلوهم نظام الملك وزير السلاجقة وكثيرون من القواد والملوك — كانوا يقتلون ولا يعرف قاتلوهم . أو اذا عرف لا يبالي أن يقتل في سبيل تمهيد امر مولاه . . . »

وكان صلاح الدين مصغياً لما يسمعه بكل جوارحه فقال « كأني سمعت بشيء من هذا القبيل ولكنني لم اكن اصدقه اذ لا يعقل أن يعرض الرجل نفسه للقتل على هذه الصورة تمهيداً لامر مولاه فقط »

فاعترض عماد الدين وعيناه تتقدان وقد هاجت الحمية في رأسه وقال بلى يا سيدي . هذا أمر معقول . ان الرجل ليفدي مولاه بروحه اذا كان يحبه ويحترمه »

فادرك نجم الدين غرضه وقال « بارك الله فيك يا بني لكن مثلك قليل واكثر الناس يفعلون طمعاً في شيء . اما الفدائيون هؤلاء فانما يفعلون ما يفعلونه لمجرد طاعة رئيسهم وقد اختلفوا في سبب هذا التفاني فيقول بعض العارفين ان حسناً هذا كان يسحرهم بالسحر او يسقيهم الحشيشة التي تأخذ بالعقل ولذلك عرفوا بالحشيشية او الحشاشين ومهما يكن السبب فان وجود هذه الطائفة خطر على كبار الرجال

---

(١) راجع الهلال ٩ سنة ١٩

« وكان مقرها في زمن ابن الصباح هذا في قزوين بعيدة عن هذه الديار . اما الآن فان مركزها في جبل السماق من اعمال حلب لهم فيه معاقل وحصون ولهم دعاة في الاطراف ولهذه الطائفة تاريخ طويل قبل انتقالها الى الشام خلاصته ان الرئاسة انتقلت بعد ابن الصباح الى غيره وغيره وكان رابعهم في ألاموت منذ نحو خمسين سنة يسمى حسناً ايضاً ويضيفون الى اسمه قولهم « على ذكره السلام » وكانت دعاته قد انتشرت في الشام والافرنج قد فتحوها فقربوا الاسماعيلية واستعانوا بهم على المسلمين في مواقع كثيرة سرًّا وجهراً . فاذن لهم ملك الافرنج صاحب حلب ان يقيموا في جبل السماق (جبل المصيرية) ونزلوا بانياس وزعيمهم يومئذ اسمه بهرام. وفي ايامه تمكنوا من الفتك بطائفة من الملوك والقواد بمصر والشام منهم الملك الافضل امير الجيوش بمصر يقال انهم فعلوا ذلك به لانه استبد بالامر باحكام الله . وبلغني ان الآمر تغلب على بهرام وقتله لسبب لا اعلمه لعله ساءه قتل امير الجيوش وان كان قتله دفاعاً عنه — وطافوا برأس بهرام في شوارع القاهرة هذه — وقتلوا ايضاً كثيرين من الافرنج بحجج مختلفة منهم ريمون صاحب طرابلس ولهم بجبل السماق عدة قلاع حتى الآن منها مصياف ومرقب وعليقة والرصافة وغيرها يعتصمون بها . اما زعيمهم الآن فاطنه ادهى الرؤساء جميعاً اسمه راشد الدين سنان بن سليمان اصله من البصرة خدم رئيس الاسماعيلية في ألاموت وتفقه بالعلم والفلسفة ثم انتقل الى الشام واقام في حلب وهو اعرج وتظاهر بالتقوى والتدين فاجتذب العامة بذلك — ولا تجد شيئاً يستهوي العامة مثل الدين . وبلغني من بعض رجالنا هناك ان سنان هذا كان يجلس على صخر يعظ وهو جامد كالصخر . فكثر دعاته وكانت دعوته لهم ان يتعاونوا فتغلب على عقولهم بالدهاء أو السحر لا اعلم حتى جعلوا اموالهم مشتركة بينهم — حتى النساء والبنات . ثم منعهم من ذلك

« و بلغ خبره الى رئيس الاسماعيلية يومئذ في جبل السماق واسمه ابو محمد فاستخدمه اليه . و بعد قليل خلفه واستلم رعاية هذه الطائفة منذ بضع سنوات فقط وقد سمعت خبره قبل سفري بقليل وهو الان صاحب السطوة والكلمة النافذة وقد التف حوله الوف من الدعاة الفدائيين وهم يفدونه بارواحهم . اذا امر احدهم بقتل امير او ملك تنكر ودخل في خدمة ذلك الامير أو الملك بصفة سائس أو خادم أو حارس . ولا يزال يترقب الفرص حتى تسنح له و يغمد خنجره في صدره . فالحمد لله انهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة ولكن تهديدهم هذا اثقل وقعاً من القتال »

الفصل الثالث والعشرون

النزع

وكان صلاح الدين في اثناء سماع الحديث مطرقاً يفكر وعمادالدين يراعي حركات نجم الدين بعينيه و يتلقف الفاظه باذنيه وقد هاجت اريحيته وجاشت الحماسة في صدره . فلما فرغ نجم الدين من الكلام نظر الى عماد الدين فرأى عينيه يكاد الشرر يتطاير منها فتجاهل

اما صلاح الدين فقال « لا بدَّ من وسيلة نتخذها لنتقي شر هذه الطائفة .. انما غير متفرغين لمراقبتها »

فتصدى عماد الدين قائلا « ان مراقبتها لا تفيد شيئاً ولا بدّ من قطع دابرها » قال ذلك وعيناه تدلان على ما يعنيه من العزم الاكيد

فاجابه نجم الدين « ماذا تعني ? »

قال « اذا اذن لي بابداء الرأي فعندي ان أحسن دواء لهذا الداء أن يقتل رئيس هذه العصابة فتتفرق عصابته »

فقال نجم الدين « هذا امر شاق لا سبيل اليه لان القوم معتصمون في الجبال الوعرة وعيونهم مبثوثة في كل مكان . وقد علمنا الآن أن منهم اناساً في هذا القصر فكيف يتأتى الوصول الى رئيسهم وقتله ؟ »

قال عماد الدين « ان من يحب مولاه يتفانى في خدمته كما قلت يا سيدي . فكما يستطيع هذا الاسماعيلي الملعون أن يدخل غرفة السلطان صلاح الدين و يعمل ما عمله فيمكن لسواه أن يدخل على زعيم الاسماعيلية ويغرس هذا الخنجر في صدره واذا قتل بعد ذلك فقد ادى واجباً لينقذ انفساً شريفة من الفتك . لان هذا اللعين لا يتعمد الا قتل العظماء فالاستهلاك في سبيل قتله فخر يتطلبه كل ابي النفس »

فاحس نجم الدين ان الشاب يعني أن يذهب هو نفسه في هذه المهمة فاراد أن يثني عزمه حرصاً على حياته لاعتقاده بالخطر الذي يهدده فقال « ان هذا الامر لا يقدم عليه الا المجنون ولكننا لا نحرم وسيلة اخرى لاسترضائهم بالمال فانهم كثيراً ما يرتكبون القتل طمعاً بالمال اذ يغريهم بعض رجال السلطة على قتل اعدائهم »

فقال عماد الدين « صدقت يا سيدي قد يسترضون بالمال ولكن هذا لا نهاية له واما اذا قتل زعيمهم فانهم ينفضون من حوله »

فقال « ليس هذا بالرأي الصواب لانه صعب ٠٠ ولا تجد من يقدم عليه اذا عرف خطره »

فقال عماد الدين وهو يشير بيده الى صدره وعيناه تلمعان حماسة « هذا عبدك عماد الدين يقدم نفسه للقيام بهذه المهمة من هذه الساعة وارجو أن لا ترد طلبي »

فقال نجم الدين « بارك الله فيك انها حمية يندر مثالها ٠٠٠ ولكننا في حاجة اليك هنا »

فقال « وما الفائدة من وجودي هنا وهذه أول ليلة من حراستي اوشك مولاي السلطان أن يقتل . أما ذهابي فارجو أن يكون قاطعاً فاصلاً .. استحلفك برأس مولاي السلطان صلاح الدين أن تأذن بانصرافي في هذا السبيل وهذا حظ كبير لي »

وكان صلاح الدين في اثناء هذا الجدال غارقاً في التفكير عن سبب وقوع هذا الامر في هذه الليلة فلما سمع اسمه انتبه لما يقوله عماد الدين فاجابه « ان هذه المهمة خطرة جداً ونحن في حاجة اليك هنا »

قال « اقسمت برأسك ان اذهب فأذن لي »

فالتفت صلاح الدين الى ابيه كأنه يستشيره فقال نجم الدين « اطعني ودع عنك هذا الخطر »

قال « اني عبد مطيع ولكنني اقسمت برأس مولاي اني ذاهب في صباح الغد ويجب أن يكون ذهابي سراً عن كل انسان لا يعلم به سوانا لاننا اصبحنا لا نعرف صديقنا من عدونا .. ولا يهمني أن يعلم احد سبب ذهابي .. »

فقال صلاح الدين « اذا لم يكن بد من ذلك فامض وفقك الله لما تريده ولكنني كنت وانما تتباحثان افكر في السبب الذي اوجب وقوع هذا الامر الليلة فلم اهتد .. ولكني .. » وتذكر خطبة سيدة الملك على يد افكاري وترجح له أن هذا الامر هو الذي بعث على تحمس احد الاسماعيلية المستترين . ولكنه لم يجد هذا التعليل معقولا فسكت

فلحظ ابوه تردده فقال له « ما بالك يا يوسف ؟ قل ما يخطر لك ألعلك تتقي التصريح امام عماد الدين الذي يفديك بروحه ؟ »

فقال « كلا يا ابتي ولكنني فكرت في سبب ما حصل الليلة فلم يستقم حكمي بتعليلات السكوت »

قال « قل ماذا خطر لك »

قال « اعترف لك يا ابي اني ارتكبت خطأ في صباح الامس ساقني اليه تسرعي باغراء صديق لي حمم . وذلك اني أمضيت امراً كان ينبغي قبل امضائه ان استشيرك فيه وها اني الآن الاقي عاقبة تسرعي »

قال « ما ذلك ؟ قل . . »

قال « اتاني صديقنا عيسى الهكاري وانت تعلم صدق مودته لي ونصحه اياي فاقترح عليَّ اقتراحاً يرى فيه خيراً كبيراً لي فاطعته ولكنني لم اكتب فيه كتابة بل تركت الامر مبهماً ريثما استشيرك »

فلم يعد نجم الدين استطيع صبراً على فهم مراده فقال « وما هو هذا الاقتراح »

قال « عرض عليّ ان يخاطب الخليفة العاضد في امر احته سيدة الملك ان تكون زوجة لي . »

فبانت البغتة في وجه نجم الدين وصاح فيه « وهل وافقته على ذلك ؟ »

قال « ترددت كثيراً وأخيراً رضيت ان يكتفي بالسؤال التفهي من عند نفسه »

قال « لا تزال تقدم على امور لا تليق بالسلاطين . . ما لنا ولهذا الرجل ولأهل بيته .. لماذا نعرض نفسنا للقتل ؟ . هل تعرف الفتاة . . »

قال « قيل لي انها بارعة في الجمال جداً .. »

وكان عماد الدين يسمع الحديث ساكتاً فعلم انهما يتكلمان عن سيدة الملك وكان قد رآها يوم واقعة العبيد وارجع اليها حصلة الشعر كما تقدم وقد استلطفها لكنه لم يحلم بالحصول عليها ولذلك لما سمع طلب مولاه شعر بلذة ممزوجة بالغيرة . لذّ لهُ ان تكون تلك الفتاة الجميلة لسيده افضل من ان تكون لسواه لكنه لما تصور ذلك احس بالغيرة منه . ولحظ نجم الدين في

وجهه فكراً في الموضوع فقال له « هل تعرف الفتاة يا عماد الدين ؟ »

قال « انيحت لي فرصة رأيتها فيها وهي في معظم الاضطراب أعني يوم واقعة العبيد يوم امر مولاي الفاطمي برمي النفط على القصر ثم امرهم أن يكفوا عن رميه وكنت في جملة من دخل القصر فرأيت الفتاة في ضيق انقذتها منه ولا ازال اذكر وجهها الجميل وشعرها الذهبي انها تليق بسيدي صلاح الدين .. وهل هي تتوقع من هو خير منه »

فقال نجم الدين وهو يظهر انه واثق مما يقول « ما لنا ولها .. لا أشك في أن يوسف لم يطع الهكاري الا حياءً » ووجه كلامه الى صلاح الدين قائلاً « هل اتاك الهكاري بجواب من الخليفة ؟ »

قال « اتاني انه خاطب الخليفة فاستمهله في الجواب ولا ندري ما يكون »

وهزّ نجم الدين رأسه هز الانكار وقال « لا يسهل عليه الايجاب في هذا الامر لان هؤلاء المساكين شديدو التمسك بهذه البقية الباقية من سيادتهم. أعني تمسكهم بمجد الاسلاف وأنهم من سلالة بيت الرسول وانا لسنا اكفاءً لبناتهم لاننا من الاعاجم » قال ذلك وضحك ملء فيه والتفت الى صلاح الدين فرآه مطرقاً يفكر وقد تذكر قول الهكاري انه اذا احتيج الى نسب عربي وضعه له غير ما يتوقعه من صيرورة الخلافة اليه أو الى اولاده بسبب ذلك الزواج فلما التفت ابوه اليه استأنف الكلام قائلاً « ألا يحق لهم الافتخار بذلك النسب الشريف ؟ »

قال « كيف لا ؟ ولذلك فات انهم ضنينون به لا يفرطون فيه وكيف ترجو قبول ذلك وانت كردي ؟ » وضحك

فرأى صلاح الدين ان يقطع الحديث ريثما يأتي به الغد فقال وهو يتحفز للنهوض من الفراش « متى اتانا جواب الخليفة ننظر فيه » ولما نهض

كان الخنجر لا يزال ملقى على الفراش فاسرع عماد الدين اليه وتناوله وهو يقول « هل يأذن لى مولاي بهذا الخنجر ؟ »

وقال « أليس عندك خنجر ؟ »

قال « عندي لكنني اود أن أعمده في صدر ذلك الطاغية الذي هددنا به »

قال صلاح الدين وهو يلبس ثيابه « ألا تزال مصمماً على قتله ؟ »

قال « اقسمت برأس مولاي ان اقتلهُ اذ لا سبيل الى الراحة منه الا بذلك . فارجو ان لاتراجعني والتمس من مولاي الامير نجم الدين ان يزودني برضاه ودعائه وقد اقسمت ان لا تطلع شمس الغد الا وانا خارج القاهرة »

فابتسم نجم الدين وهو ينظر الى عماد الدين نظر العطف والاعجاب وقال « يسرني ما اراه فيك من الحمية والغيرة على يوسف بل هي غيرة على المسلمين كافة لان هذا الاسماعيلي الشيطان قد أقلق العالم بدسائسه وفتكه فاذا تمكنت من قتله فانت امير كبير وقائدٌ عظيم لا يتقدمك احد من رجال هذه الدولة غير اخي يوسف هذا »

فاكبر عماد الدين هذا الوعد الصريح بالمكافأة الكبرى فازداد تمكناً من عزمه ولكنه اطرق خجلاً . وعاد نجم الدين الى اتمام حديثه فقال « ولكن هل تعرف الطرق وما يعترض عملك هذا من المخاطر ؟ »

قال « هب اني لا اعرف شيئاً الآن فلا يعجزني علمه »

قال « فتمهل هنا بضعة ايام لاجل الاستعداد »

قال « قد اقسمت على الخروج الليلة من هذا البلد . وانما التمس ان لا يعلم أحد بجهة مسيري ولا الغرض منه »

وكان صلاح الدين قد اتم لبس ثيابه فقال « بورك فيك » ونظر الى ابيه ورآه ينظر الى عماد الدين وهو يقول له « وفقك الله في امرك كن شجاعاً واثقاً بنفسك واعلم انك اذا وفقت الى ما نريد اتيت عملاً لم يستطعه سواك فتنال ما لم ينله احد »

فهمّ عماد الدين بتقبيل يد نجم الدين ثم يد صلاح الدين وقال « استأذنكما في تدبير شؤوني اليوم وربما لا تريانني بعد الآن لاني احب ان اخرج من هذا البلد خلسة »

قال نجم الدين « افعل ما بدا لك »

الفصل الرابع والعشرون

الرساله

خرج عماد الدين لتدبير سفره واعداد ما يلزمه وقد اخذت مهمته تتجلى له بما يحدق بها من الخطر العظيم ولكنه صمم عليها ولا سيما بعد ما سمعه من الوعد بالمكافأة

قضى معظم النهار في منظرة اللؤلؤة وهو يتهيأ للسفر حتى اعد كل ما يحتاج اليه وقد مالت الشمس الى الاصيل . فانفرد في غرفته يفكر في مهمته واذا بطارق يطرق بابه فأجفل لانه لا يطرق بابه احد لا سيما وهو على اهبة السفر . فنهض وفتح الباب فرأى غلاماً صقلبياً يظهر من ثوبه وشكله انه من غلمان قصر الخليفة فاستغرب ذلك ودخل الغلام وقال « ألعلي في حضرة الفارس عماد الدين ؟ »

قال « نعم ما وراءك ؟ »

فمد الغلام يده الى جيبه وهو يشير الى عماد الدين أن يغلق الباب خوفاً من أن يراه احد واستخرج ما فيه ودفعها اليه . فتناولها ولم يتم فضها

حتى اقشعر بدنه لانه رأى فيها خصلة الشعر الذهبي التي كان قد ارجعها الى سيدة الملك فبانت البغتة في وجهه لكنه تجلد وأخذ يتفرس في الكتاب فاذا هو رسالة مختصرة بلا توقيع . فاغلق الباب وتحول نحو الداخل وهو يقرأ وهذا نص الكتاب :

« الى البطل الباسل عماد الدين . اعلم يا سيدي انك نجيت نفساً شريفة من القتل والعار وهذه النفس تحتاج الى رؤيتك لتكافئك على صنيعك . وقد كلفتني أن ارسل اليك العلامة التي ينطوي عليها هذا الكتاب لتتأكد صدق قولي . فاسرع الينا على عجل فانما نستصرخك وقد لبينا من قبل بلا استصراخ . وحامل هذا الكتاب يرشدك الى الطريق »

فرغ من تلاوة الكتاب وهو يحسب نفسه في حلم فظل هنيهة كالغائب يفكر في ما يعمله أيجيب دعوة الداعي وهو على اهبة السفر ؟ أم يعتذر وهي تستصرخه . واحس عند رؤية الشعر بجاذب يدعوه الى الاجابة . وتذكر ما بعثه على حمل تلك الخصلة من دمشق الى القاهرة حتى دفعها الى صاحبتها حرصاً على كرامتها بدون أن يعرفها فكيف تدعوه بلفظ الاستصراخ ولا يذهب اليها ؟

وكان الغلام في اثناء ذلك واقفاً ينتظر الجواب فلما استبطأه خطا خطوة نحو عماد الدين فانتبه هذا لمسه فالتفت الى الغلام وقال « ما وراءك غير هذا الكتاب ؟ »

قال « هذا كل ما لديّ ولكنني امرت اذا استفهمتني عن الطريق أن ارشدك اليه »

قال « وكيف ذلك ؟ هل يجهل احد الطريق الى قصر الخليفة ؟ »

فابتسم الغلام وخفض صوته وقال « ليس القصر مجهولا ولكن

صاحب هذه الرسالة في قصر النساء ولا سبيل لرجل الى هناك ولا سيما بعد ان جعلتم الاستاذ بهاء الدين قراقوش قيماً عليه فاصبح امنع من عقاب الجو »

قال « اذاً كيف يمكن الوصول الى المكان المقصود ؟ »

قال « اذا كنت قد صممت على الذهاب فاني ادلك على طريق توصلك الى داخل قصر النساء ولا يشعر بك احد »

فاستغرب قوله وقال « اظنك تعني أن اتنكر بثوب جارية »

قال « كلا . . فان هذا لا يغني شيئاً . . اذ لا يستطيع احد المرور من الباب ان لم يعرفه الحاجب باسمه ولقبه »

قال « كيف اذاً . . قل . . »

قال « اعرف طريقاً سرياً في سراديب تحت الارض بين هذه المنظرة وقصر الخليفة لا يعرفها الا القليلون »

قال « سراديب تحت الارض »

قال نعم يا مولاي . . لما بنى الخلفاء الفاطميون قصورهم ارادوا أن يكون لنسائهم طريق يخرجن منه الى الحدائق والبساتين او الى المناظر القائمة على ضفاف هذا الخليج . فاصطنعوا لهن سراديب تحت الارض ينزلن اليها من وسط القصر ويمشين فيها بلا حجاب حتى يخرجن الى البساتين . وفي جملتها السراديب المؤدية الى هذه المنظرة فانها كانت مطروقة اكثر من سواها لكثرة تردد الخلفاء واقامتهم هنا . حتى أن ثلاثة منهم ماتوا في هذه المنظرة وحملوا في هذه السراديب الى القصر وهم الآمر باحكام الله والحافظ لدين الله والفائز [1] . ثم اهمل امرها بعد نزول غير الخلفاء في هذه المنظرة . وتنوسيت منذ عدة سنوات ولكنني اعرفها فاذا احببت ان اسير في خدمتك فعلت »

(١) المقريزي ٤٦٩ ج ١

الفصل الخامس والعشرون

السراديب

فتحير عماد الدين في امره واستغرب وجود هذه السراديب واعمل فكرته في هل يجيب الدعوة ام يعتذر لانه على وشك السفر . والتفت الى نافذة الغرفة يتطلع الى الشمس ورآها قد دنت من المغيب وهو لا بد له من مغادرة القاهرة في تلك الليلة كما اقسم ووعد فنادى الغلام اليه وقال « كم يقتضي لنا من الوقت لنصل الى القصر ؟ »

قال « لا يستغرق سيرنا الا دقائق معدودة »

فقال في نفسه « اجيب الدعوة واعود سريعاً فاسافر » والتفت الى الغلام وقال « هلم بنا »

قال « تمهل ريثما تغيب الشمس فنذهب في الظلام لئلا يشعر بنا احد من اهل هذا القصر »

فتصور عماد الدين الخطر المحدق به في هذه المهمة لكنه اكبر أن يخوف او يحسب للمخاطر حساباً وهو الذاهب لقتل زعيم الاسماعيليين . فقال « انتظرني اذاً خارج هذه المطرة والاقيك هناك بعد الغروب »

قال « حسناً .. سأمكث في انتظارك تحت هذه الجميزة بجانب الخليج فاذا رأيتك قادماً تقدمت نحوك ومعي الرداء الذي ينبغي ان تلتف به في اثناء الطريق وعند الوصول الى القصر لئلا ينكر احد من أهل القصر هذا اللباس » قال ذلك وخرج وخلف عماد الدين على مثل الجمر من القلق . فلما خلا بنفسه استأنف النظر الى ذلك الكتاب واعاد قراءته وتذكر المرة الاولى التي شاهد بها صاحبة ذلك الشعر وما سمعه عنها بالامس من

امر صلاح الدين فرأى انه قد يستطيع خدمة مولاه باجابة سؤلها فيحرضها على القبول به . ولما تصور ذلك هبت الغيرة في قلبه . ولكنه تعمد الاغضاء من هذا الشعور حباً بمصلحة مولاه

ولما سدل الليل نقابه خرج باخف ملابسه وسلاحه حتى دنا من الحميزة فرأى شبحاً كانه امرأة قادماً نحوه فتقدم اليه وتفرس فيه فاذا هو الغلام قد التفت بملاءة كالازار أو المطرف ودفع اليه ملاءة التف بها عماد الدين ومشى الغلام بين يديه في البستان لا يرون شيئاً غير اشباح الاشجار تتراءى بينها وبين الافق . مشيا مدة لا يتكلمان ثم التفت الغلام الى عماد الدين وأمسك بيده كانه يقوده الى نزلة فنزل معه الى حفرة . ومد الغلام يده الى اعشاب يابسة ازاحها فوصل الى باب من حديد فيه حلقة قبض عليها واعانه عماد الدين ففتحا الباب فشعر عماد الدين بريح فيه رطوبة وعفونة فعلم انها اتت من ذلك السرداب . فقال له الغلام « اتبعني يا سيدي اقتص خطواتي »

فتبعه وشعر انه يمشي على ارض مرصفة بالحجارة ولكن الظلام كان شديداً جدّا وأحدث رائحة العفونة تشتد كلما امعنوا في السرداب . فخاف عماد الدين ان يكون قد فرط بنفسه فقال « هل انت على ثقة من امر هذا الطريق ؟ »

قال « نعم وقد جئت فيه اليك اليوم »

فاطمأن خاطره وسكت وهو يخطو ويتلمس الجدران . ثم سمع وقع اقدام فوق السرداب فقال له الغلام « نحن الان تحت القصر الصغير وبعد قليل نمر تحت الميدان وليس بعده الا قصر الخليفة فقصر النساء »

ولما أحس الغلام انهما تحت قصر النساء أشار الى عماد الدين أن يقف فوقف . فتقدم هو الهوينا حتى رفع باب السرداب فبصر عماد الدين

بالنور وبعد قليل أتاه الغلام وأمسك بيده وأشار اليه أن يخرج . فصعد بضع درجات فاذا هو في غرفة فيها مصباح فنظر الى نفسه والى رفيقه على النور بعد هذه السفرة في الظلام فرأى عليهما التراب ونسيج العناكب فنفض الرداء ونظر الى الغلام واشار بيده يستفهم عما يعمله فاومأ اليه أن ينزع الملاءة ويتبعه ففعل فدخلا حجرة مفروشة باحسن الرياش فتحقق انه في قصر الخليفة فاشار اليه الغلام أن يقعد وينتظر وخرج هو . فقعد وقلبه يخفق تطلعاً لما سيراه في تلك الليلة وتذكر مجيئه الى هذا القصر من عهد غير بعيد — وكيف رأى سيدة الملك . وطال انتظاره حتى تولاه القلق . واذا بالغلام قد عاد ومعه ياقوتة الحاضنة فحالما وقع نظره عليها تذكر انه رآها قبل ذلك الوقت

اما هي فاسرعت اليه وحيته واشارت الى الغلام ان ينصرف فانصرف وظلت ياقوتة وحدها مع عماد الدين فقالت « لقد اتعبناك يا سيدي واتينا بك في هذا الليل »

فقال « لا بأس يا سيدتي وانما ارجو ان لا يكون لاستقدامي سبب يوجب القلق »

فتنحنحت وقالت « لا والحمد لله . . ألا تذكر انك رأيتني يا عماد الدين ؟ » قال « بلى اذكر ذلك جيداً »

قالت « اما انا فلا انسى قدومك في ذلك اليوم العصيب .. وما أتيته من الاريحية والنخوة في انقاذ مولاتي سيدة الملك من خطر الموت . انها لا تنفك تذكر ذلك الفضل لك . وكثيرًا ما تمنت ان تراك لتكافئك على صنيعك ولكنك لم تعد »

فقال مسرعاً « لاني لم أفعل ما فعلته لاجل المكافأة ..وأنا غني عن ذلك بفضل مولاي صلاح الدين »

قالت « طبعاً .. ولكن المكافأة لا تعطى دائماً للحاجة اليها بل هي تدل على امتنان المعطي نحو المعطى له .. وعلى كل حال فليس ذلك من شأني بل هو يرجع اليك واليها فاذا التقينا صرت انا غريبة . أليس كذلك ؟ » قالت ذلك وضحكت وفي عينيها وعنة صوتها معنى لا يعبر عنه بالكلام فتوسم عماد الدين في كلامها معنى اختلج له قلبه ولم يصدق نفسه لما يعلمه من البون البعيد بينه و بين سيدة الملك وهي أخت الخليفة اعظم نساء المسلمين بمصر . فقال وهو يتجاهل مرادها « كيف مولاتنا سيدة الملك ارجو ان تكون في خير وعافية ؟ »

قالت « ألم تصلك رسالتها ؟ »

قال « كيف لا ، وما الذي اتى بي في هذا الوقت »

قالت « وخصلة الشعر ؟ »

فمد يده واستخرجها من جيبه وقال « هذه هي »

قالت « ألا تريد أي تردها اليها كما رددتها في المرة الماضية ؟ »

قال « بلى . وانا جئت اجابة لدعوتك لانك قلت أن سيدة الملك تستصرخني وهل هناك باعث هام ؟ »

قالت « انما بعثها على ذلك رغبتها في مكافأتك . وقد كلفتني ان ادفع اليك هذا العقد » واستخرجت عقداً من اللؤلؤ لم يقع بصر عماد الدين عليه حتى دهش . وقدمت العقد اليه فتناوله ولم ينظر اليه بل اعاده اليها وهو يقول « شكراً لمولاتي . اني في غنى عن تحميلها هذه النفلة لاني لم افعل ما فعلته طمعاً بالمكافأة »

فاستعظمت هذه الانفة منه وقالت « انى مأموره بايصال هذه الهدية اليك فاذا كنت لم تقبلها فاني ادعو صاحبها لتقدمها بنفسها .. ولكن احذر أن تكون قاسياً يا عماد الدين »

فزاده هذا التعبير بياناً لما توسمه في عبارتها الاولى فسكت، وقد ارتبك في أمره

الفصل السادس والعشرون

اللقاء

أما هي فنهضت وخرجت وتركت العقد في مكانها على البساط وظل عماد الدين وحده وهو مرتبك لا يدري ما يقول أو يعمل. ثم عادت ياقوتة وسيدة الملك وراءها وقد التفت بالنقاب حتى لا يظهر الا عيناها وبعض جبينها فلاحظ في عينيها ذبولاً وقد تغيرت عن ذي قبل . فلما رآها دخلت وقف لها وتأدب واطرق فتقدمت اليه وهي تتماسك وقالت « اجلس ياعماد الدين.. انك ذو فضل على حياتي وشرفي ولا حاجة الى الوقوف لي. اجلس . قد اتعبناك بهذه الدعوة الليلة وارجعناك فضاعفت فضلك علينا ..» قالت ذلك وهي تقعد وتشير اليه ان يقعد فقعد وظلت ياقوتة واقفة وهي تتناول العقد عن البساط ثم دفعته الى سيدة الملك وقالت« هذا العقد دفعته اليه حسب امرك فلم يقبله « فتناولتـه واتجهت نحو عماد الدين وقالت « اترفض هدية صغيرة قدمتها اليك وانت قد اهديتني حياتي ؟ » ومدت يدها نحوه والعقد في كفها وهي تتوقع ان يمد يدهُ فيتناولهُ منها . فلما ابطأ تصـدت ياقوتة للـكلام قائلة « ماذا أوصيتك يا عماد الدين .. ألم اقل لك لا تكن قاسياً ؟ »

فخجل ومدَّ يده وتناول العقد وهو يقول « اني اقبله هدية لا مكافأة» ولما مد يده ليتناوله لمست انامله كفها فاحس ببردها وارتعاشها واحست هي برعشة كهربائية سرت في عروقها . وبان البشر في محياها فقعدت ياقوتة

وهي تضحك وتقول « ها انه قبله منها ولم يقبله مني »

فقطع كلامها قائلاً « لانك اردت أن آخذه مكافأة على خدمة فلم اقبله طبعاً لاني اذا كنت قد فعلت خيراً فلم افعله طمعا بالمال .. و .. »

فقطعت ياقوتة كلامه قائلة « طمعاً بماذا اذاً ؟ يظهر انكما تعارفتما قبل ذلك اليوم و .. و .. » وضحكت

فاستغرب تعريض هذه الخاضنة بحب متبادل بينهما وهو لا يعلم شيء من ذلك وانما يعلم انه استلطفها ومال اليها ولم يحلم انها استلطفته او مالت اليه . ولذلك لم يفكر فيها لاعتقاده استحالة حصوله عليها . ولما سمع ذلك التعريض تحرك قلبه وأوشك أن يشعر بالامل فاعترض افكاره صلاح الدين وما سمعه في ذلك اليوم من حطته اياها فانكر على نفسه ان يتصدى لامر يخص مولاه وهو يفديه بروحه . واصبح يعد حديثه معها خيانة لكنه لم يجسر على التصريح بذلك فتجاهل وقال « انما فعلت ما فعلته يومئذ مدفوعاً بما تفرضه عليّ المروءة .. من يستطيع ان يرى سيدة الملك بين يدي الاشرار يريدون ان يلحقوا الاذى بها ولا يفديها بروحه ؟ »

فالتفتت سيدة الملك نحوه وقد ضايقها العتاب وخافت ان يمنعها عن الكلام فاراحته عن فيها وقالت « لا بأس من كشف هذا الوجه بين يديك فانك صاحب الفضل في بقائه .. انك استغرب وجود رجل يستطيع أن يراني في ذلك الخطر ولا يفديني بروحه .. لا تستغرب ذلك يا عماد الدين فقد كان في قصري شبان من اهلي وعشيرتي لم يقدم احد منهم على ما اقدمت انت عليه وكأنك كنت على موعد من تلك الساعة فدفعت اليّ خطار الشر حباً به لها ولي . وهل ألام اذا نظرت اليك نظرتي الى ملاك هبط من السما لانقاذي . أما انت فلا اعلم كيف كان شعورك في تلك الساعة ... »

فرأى في اطرائها اشارة الى حبها لكنه كذب نفسه وعاد الى الانكار فقال « أما شعوري فهو اني وأنا في خدمة مولاي السلطان صلاح الدين وقد امرنا ان نكف عن رمي النفط وقع نصري على زجاجة نفط سقطت في هذه الدار وانا على يقين انها ليست من عندنا فاستغربت وقوعها . ثم رأيت نذلاً ملثماً اغتنم اشتغال أهل القصر بانفسهم ودخل كالذئب الكاسر ومعه اناس ارادوا القبض عليك فلم أتمالك عن الوثوب عليهم ولم اكن أعلم انهم يريدونك ولا انك سيدة الملك أخت الخليفة . فلما وقع نظري عليك ورأيت هذا الشعر الذهبي علمت انك هي . وكانت تلك الخصلة في جيبي فدفعتها اليك ... »

فلما سمعت اسم صلاح الدين اجفلت لكنها مالت الى معرفة قصة خصلة الشعر فقالت « من اين وصلت هذه الخصلة اليك ؟ »

فتوقف عن الجواب حتى خاف أن ترتاب منه ثم قال « اتيت بها من دار السلطان نور الدين صاحب دمشق .. ما لنا ولهذا . وقد سألتني عن شعوري في تلك الساعة فهو اني شعرت بحمية لم أستطع دفعها ووثبت لمقاومة أولئك الاشرار وانا لا أعرفهم ولا أعرف على من هم واثبون . فلا فضل لي على سيدة الملك لاني لم اكن اعرف انها المقصودة بالاذى وانما فعلت ما فعلته مدفوعاً بالمروءة »

الفصل السابع والعشرون

التلميح

وكان يتكلم وهي تنظر اليه وتكاد تلتقمه بعينيها فلما وصل الى ذكر المروءة صاحت فيه « ومن أجل هذه المروءة شعرت بهذا الشعور ورغبت في استقدامك لاعترف بجميلك »

فخجل من هـذا الاطراء وقال « العفو يا سيدتي ان مثلي لا يستحق هذا الاطراء من اخت امير المؤمنين لاننا عبيـد ويجب علينا التفاني في الدفاع عن صاحب هذا المقام السامي »

فابتـدرته قائلة « اسمع يا عماد الدين .. لست عبداً لا ... لو انك اندفعت الى هذه المقبرة لاجل اخت الخليفة اقلنا انك فعلت ذلك تقرباً من امير المؤمنين . ولـكنك انما دفعك اليها نفس ابية وهمة عالية واريحية ومروءة لا نعهد مثلها في من نعرفهم بين اطهرنا من الامراء وابناء الخلفاء . وبهذه الخصال رفعت قدرك وجعلتك في مصاف الملوك .. لا تقل انك عبد معاذ الله .. بل انت امير من اعظم الامراء وستكون كذلك قريباً اذا شئت .. » وظهر في عينيها معنى لم يترك لعماد الدين سبيـلاً للتجاهل . واعجبه قولها انه سيكون اميراً وهو في ذلك اليوم اوشك ان يصير من الامراء بما آنسه من اعجاب نجم الدين به وتقديمه . وتذكر المهمة التي هو ذاهب فيها وما وعده به نجم الدين اذا فاز بها . فتعاءل من مطابقـة قولها قول نجم الدين انه امير أو سيصير اميراً عن قريب . ثم انتبه فجأة انه قد مضى هزيع من الليل فخاف ان يطول الـكلام في تلك الخلسة ولم تعجبه مقدمات الحديث لعلمه بما طلبـه صلاح الدين من اجلها وخيل له انها استقدمته لامر يتعلق بذلك الطلب اذ لايزال يستبعد ان يكون هو المقصود به . واراد ان يتحقق ظنه فقال « اذا صرتُ شيئاً مذكوراً فانما يكون الفضل فيـه لمولاتي سيدة الملك لانها احسنت الظن بعبدها فقـدمه مولاه السلطان صلاح الدين في مساء الامس حتى جعله اقرب اعوانه اليه »

ولما سمعت ذكر صلاح الدين للمرة الثانية اجفلت وانقبضت نفسها وتذكرت ما جرى لها بسببه ولم يعجبها اقتران اسمها باسمه في هذا الموضوع. ا كنها سرت لقوله ان صلاح الدين قدمه فقالت « لا غرابة في تقديمك

فانت اهل لا كثر من ذلك .. انك امير وسيد وستنال مقاماً لم ينله صلاح الدين وان يناله هو ولا غيره من السلاطين أو الامراء .. هذا اذا شئت.. »

وتلعثم لسانها وغلبت على امرها وابرقت عيناها وبان الحياء في محياها فاطرقت . وكأنها ندمت على ما فرط منها فجعلت تتشاغل بتثنية طرف حديلتها المرسلة على صدرها من تحت النقاب

أما هو فلم يبق عنده شك بما تعنيه واستعظمه منها وهاجت عواطفه وحسّ بانعطاف جديد نحوها بعد أن سمع تصريحها انها تحبه وانها تفضله على صلاح الدين . لكنه تذكر ان مولاه صلاح الدين يريدها مع انه لا يرجو ان ترضى به فاستنكف أن يقوم مقامه أو يقف في سبيله أو يعتدي عليه وهو صنيعته وقد صمم أن يفتديه بروحه . فلم يتمالك عن النهوض وقال « ان سيدتي بالغت في اطراء عبدها كثيراً فانا صنيعة مولاي السلطان ولا اخفي عنها اني ذاهب هذه الليلة في مهمة تخصه واخاف ان اتأخر عنها اذا أطلت المقام هنا »

فامسكت بيده واقعدته وقد بانت انفة الملوك في وجهها وقالت بصيغة الامر « لا انت عبداً لاحد ولا صنيعة احد . وقد قلت لك انك امير وسيد ... لا .. لا ينبغي ان تذهب في خدمة احد اني في حاجة اليك وقد استصرختك .. اين حميتك ومروءتك .. ؟ »

ولما قبضت على يده سرت الرعشة في كل اعصابه وقعد بالرغم منه لكنه لما سمع كلامها خاف ان يغلب على امره فقال وهو يتحفز للنهوض « ان هذه المروءة نفسها تحملني على الذهاب الآن لاني تعهدت بامر لا بدّ من الذهاب فيه وهو يخص مولاي صلاح الدين . . . واذا كانت مولاتي ترى فيّ هذه المناقب وأنا صنيعة صلاح الدين وخادمه فكيف لو عرفته هو ؟ »

فنفرت من هـذا الجواب وكانت لا تزال قابضة على يده فتركتها واعرضت بوجهها وهي تظهر الغضب فقصدت الحاضنة ياقوته وقالت « ما بالك يا عماد الدين ؟ تخاطبك مولاتي من الشرق فتجيبها من الغرب ألم تفهم مرادها ؟ »

قال « نعم فهمت ويسرني رضاها عني وقد غمرتني بفضلها وانعامها . ولكني صنيعة السلطان صلاح الدين وانا ذاهب في خدمته » وتحول نحو سيدة الملك وقال « لماذا غضبت مني يا سيدتي انما التمس رضاك »

فسرها عتابه والتفتت نحوه وعيناها تعاتبانه وقالت « لأني اخاطبك واطلب الجواب عن نفسك فتجيبني عن صلاح الدين ما لنا وله . دعه في في سلطانه انه لا دخل له في هذا الحديث .. ألم تفهم ؟ »

فتحير عماد الدين في امره وارتبح عليه وعلم انها لا تريد صلاح الدين واوشك ان يغلب على عقله .. من تقف هـذا الموقف ولا يغلبه الهيام ويتسلط على قلبه ؟ لكن عماد الدين كان قوي الارادة شديد الاحترام لصلاح الدين وكان تلك الليلة في شاغل عن كل شيء بامر زعيم الاسماعيلية وسفره فتجلد ونهض بلطف وهو يقول « فهمت يا سيدتي على قدر امكاني واذا لم افهم فلأني ارى نفسي لا استحق هـذه النعمة . ولا ازال ارى مولاي صلاح الدين احق بها .. لا تعجبي يا سيدتي ان صلاح الدين لم تعرفيه ولو عرفتـه لضربت بعماد الدين عرض الحائط .. ومع ذلك فاني طوع امرك ولكن ... »

فقطعت كلامه وتوجهت نحوه وهي تبتسم والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « لا تقل ولكن ... بل قل انك تطيعني في ما اريده »

قال « اطيعك في كل شيء ولكن بعد رجوعي من هذا السفر .. ان سفري لا بد منه وقد اقسمت ان اكون في صباح الغد خارج هذا البلد .

ومضى بعض الليل وانا لم اتحرك من مكاني .. فبالله اسمحي لي بالانصراف الآن .. »

فقالت والدهشة ظاهرة في وجهها « تنصرف الآن ؟ الى اين ؟ »

قال « الى مطرة اللؤلؤة ومن هناك اركب حالاً واسافر .. »

قالت « تسافر ؟ ويلاه ! الى اين ؟ »

قال « في غرض يختص بمولاي السلطان .. »

فاطرقت وهي لا تدري ما تقول تخاف ان يجر الحديث الى ما لا يقوى على دفعه وقد احس ان الحب كاد يستولي على ارادته وهو حريص على القيام بوعده ولا سيما بعد ان اقسم وصمم فقال « اسمحي لي يا سيدتي بالانصراف اني رهين امرك ولولا ما سبق من تعهدي بامر السفر لماخالفتك في شيء ولكنني ساعود سالماً ان شاء الله وعند ذلك لا ترين مني الا ما يرضيك .. استودعك الله الآن »

الفصل الثامن والعشرون

المباغتة

قال ذلك ومد يده لمصافحتها فلم تمد له يدها رغبة في استبقائه لتتم حديثها او لعلها تثنيه عن السفر . واذا هي تسمع وقع اقدام مسرعة خارج باب الغرفة فنظرت الى ياقوته فرأتها قد امتقع لونها وتحفزت للنهوض . ولم تكد تقف حتى رأت غلامها الذي جاء بعماد الدين داخلاً والبغتة على وجهه مع الخوف فصاحت فيه « ما وراءك ؟ ويلك ! »

فقال وصوته يرتجف « ان الاستاذ بهاء الدين قراقوش يطلب أن يراك ؟ »

فاجفلت عند ذكر اسمه وقالت «ولماذا ؟ وكيف .. ما له ولنا ؟»

قال « كنت ساهراً لمراقبة كل حركة كما امرتني الحالة اطل على القصر من شرفة الايوان فرأيت شبحاً قادماً من الخارج نحو باب هذا القصر لم اعرفه لانه ملتف بعباءة كبيرة كأنه جاء منكراً فجعلت اراقبه حتى وصل الى باب القصر وطلب مقابلة الاستاذ بهاء الدين . فجاء لمقابلته ودار بينهما حديث لم افهمه ولكنني لحظت ان القادم الح عليه ان يفتش داخل القصر وتأكد لي ذلك لما رأيت الاستاذ بهاء الدين دخل القصر بسرعة ورجع ذلك الرجل كما جاء . وسمعت بهاء الدين يأمر احد الخصيان بالذهاب الى سيدتي فاسرعت لاخبرك بذلك »

فاستولت الدهشة على الجميع وظلوا سكوتاً الا سيده الملك فقالت « تباً لذلك الخائن .. لا أعلم كيف اطلع على مجيء عماد الدين الى هنا .. حتى وشى بنا الى الاستاذ »

فقالت ياقوته « اتظنين مجيء بهاء الدين تتعلق بعماد الدين »

قالت « لا بد من ذلك ولكنه سيعود خائباً »

فقال عماد الدين « لا تخافي يا سيدتي ان روحي فداك ماذا جرى ؟ »

قالت « لم يجر شيء .. ولكني سآذن بذهابك رغم ارادتي . وهذا يسرك ولكنه يسوءني » والتفتت الى العلام وقالت « يا علام عد بعماد الدين من هذا السرداب كما جئت به » والتفتت الى عماد الدين وقالت « احرص ان تبقى على وعدك وان تذكرني في اثناء سفرك .. واعلم ان صاحبكم بهاء الدين هذا قد قطع كلامي وحال دون اتمامه وانا لا ازال في اوله لكني اترك فهم الباقي الى فطنتك وما بذلك من ابه فانك . واحسبني عبرت عن مرادي بملاحظتي ا كثرمما بدا لي .. كنت وعلى استقدامك في سن تمديد وكنت ارجو ان يطول كل انس بحضورك . واذا انت على

سفر وجاء هذا الاستاذ فلم اتمكن من اتمام شكواي فاقول لك بالاختصار اني افكر فيك دائماً وانا سجينة في هذا القصر . . ويا حبذا لو اني اخرج به معك الساعة . . » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فكان لذلك وقع شديد على قلب عماد الدين وهو شاب في مقتبل العمر وبين يديه اشرف نساء مصر واجملهن تشكو له حبها وتدعوه الى قربها . فهاجت عواطفه وكاد يغلب على امره وينسى مهمته وانما عصمه ادب نفسه وعلو همته واحترامه لمولاه فتجلد وسكت . لكنه اشار برأسه وعينيه انه رهن امرها بعد عودته وارادت أن تستزيده ايضاحاً فتصدت الحاضنة بلهفة قائلة « يكفي يا سيدتي . يكفي . ان بهاء الدين يطلب مقابلتك بالحاح ولا استطيع استمهاله » وتقدمت الى عماد الدين فامسكت بيده وجرته حتى خرج من تلك الغرفة الى باب السرداب . وكان الغلام في انتظاره هناك وقد فتح الباب فالتف كل منهما بردائه وذهبا واغلق الباب وعاد كل شيء الى اصله . ومشت سيدة الملك الى غرفة الاستقبال فرأت قراقوش في انتظارها هناك . فاظهرت الاستغراب من طلبه مقابلتها في تلك الساعة

فقال « بلغني ان رجلاً غريباً دخل هذا القصر الليلة اين هو ؟ »

قالت « تسألني سؤالاً انت أولى بالجواب عليه لان مفاتيح القصر بيدك وقد سددت علينا الطرق والنوافذ فاذا دخل غريب علينا فانت المسئول »

قال « لم يدخل احد من باب القصر . . »

قالت « هل هبط من السماء ؟ » قالت ذلك بغضب

فقال « لا تغضبي يا سيدتي اني انما اتصدى للسؤال حرصاً على كرامة سيدة الملك وعملاً بامر امير المؤمنين »

وضحكت ضحكة استهزاء وغضب وقالت « ما احرصكم على اوامر امير المؤمنين وكرامة اخته . من انبأك بدخول الرجال الينا خلسة ؟ »

فخجل بهاء الدين من هذا التوبيخ وندم على تسرعه وقال « لم اقل انكم تفعلون ذلك عنوة يا سيدتي . . ولكني اقول ما بلغني ولم اسمع من رجل حقير أو جاهل

فقطعت كلامه وقالت « مهما يكن من امر الذي بلغك فانه نقل كاذب هذا هو قصري ابحث فيه عمن شئت » قالت ذلك وتحولت من القاعة نحو غرفتها والخاضنة تهرع في أثرهـا وقلبها يرقص فرحاً للنجاة من تلك المهمة الشنيعة

الفصل التاسع والعشرون

الحب سلطان

ولما خلت ياقوتة بسيدة الملك في غرفتها اكبت عليها وجعلت تقبلها وتداعبها وهي ساكتة وقد عادت اليها هواجسها ثم انتترت من بين يديها وقالت « دعيني يا ياقوتة دعيني وشأني اني تعسة شقيـة . . ويلاه ما هذا البلاء . . لم اكد اتوسم باباً للفرج حتى اقفلت عليّ الابواب وسدت دوني السبل . . » واخذت في البكاء

فعملت ياقوتة على التخفيف عنها وقالت « لا تنكري نعمة الله . . ألم تطمئني ان يحبك وهذا ما كنت تطلبين معرفته و . »

فقطعت كلامها بغضب وقالت « يحبني ؟ هل فهمت من قوله انه يحبني . . ألم تريه كيف كان مرتبكاً في امره وكلما ذكرت له ما في نفسي حوّل الموضوع الى مولاه صلاح الدين . . انه يحب مولاه فقط . » قالت ذلك ومسحت عينيها بمنديلها وهمت ان تعود الى الكلام

فسبقتها ياقوتة قائلة « ولكن حبه هذا مني على همة عالية واريحية و . . »

قالت « وما يفيدني اذا كانت هذه المناقب فيه ولا يحبني . وزد على ذلك انه مسافر في مهمة في خدمة مولاه ولم يتأ أن يتأخر ساعة لاجلي وانا تركت حسبي ونسبي وعرضت نفسي لغضب اخي وسائر اهلي من اجله فهل يدل هذا على حبه ؟ »

قالت « لا شك انه يحبك وقد توسمت ذلك في عينيه لكنه شهم اذا وعد وفى وقد اقسم أن يسافر الليلة فلا يريد أن يحنث بيمينه . وأوكد لك انه لو طال جلوسنا برهة لرأيت منه كل ما يسرك لانه لم يكن في اول الحديث يصدق انك تحبينه ولم يكن يحلم بهذه النعمة . فلما دنا من الموضوع جاء هذا الطواشي وكدر علينا امرنا . ولكن كوني مطمئنة انه سيعود اليك . . »

فغلب عليها الامل — والحب كثير الريب لكنه سريع التصديق قريب الامل — فلما سمعت قولها انه يحبها وانه سيعود اليها اشرق وجهها وبان الابتسام حول شفتيها واقبلت بوجهها نحوها وقالت « صحيح ؟ هل انت على ثقة مما تقولين ؟ هل هو يحبني ؟ » ثم اطرقت كأنها عادت الى رشدها وضمت خديها بين كفيها وصاحت « ويلاه ؟ ماذا جرى لي ؟ من أنا ؟ ألست سيدة الملك العاقلة الحازمة ابنة امير المؤمنين واخت امير المؤمنين سلالة فاطمة الزهراء بنت الرسول ؟ ما الذي اصابني حتى صرت كالمجنونة واصبح قلبي اسيراً بين يدي شاب غريب لا حسب له ولا نسب أتسقط ما يجود به عليَّ من كلمة عطف أو تودد . . وهؤلاء ابناء اعمامي الشرفاء يتمنون مني لفتة رضى : لله ما اشد وطأة الحب وما اقوى سلطانه . »

فلما سمعتها ياقوتة تقول ذلك توسمت منها الرجوع الى الصواب لعلها

تجو من لواعج الحب فبادرتها قائلة « ألم اقل لك يا سيدتي . . ؟ قد كنت في نعيم وراحة قبل أن . . . »

فاسرعت سيدة الملك ووضعت كفها على فم ياقوتة تعجيلاً في اسكاتها وقالت « ومع ذلك فان الحب يعزيني عن كل شيء . . . يكفي ما رأيته من اقتناعي بكلمة من عماد الدين لو قالها لنسيت كل شيء ومع ذلك فان املي بان اسمعها منه انساني القصور والخلافة والنسب الشريف . انساني كل شيء . ذلك هو الحب يا ياقوتة . ليس في الدنيا الذ منه اذا كان متبادلا .. وهو بيننا متبادل ان شاء الله .. أليس كذلك ؟ »

فعادت الى مسايرتها وقالت « هذا ما قلته لك يا سيدتي .. فاتكلي على الله واصبري فان الفرج قريب »

فاحبت سيدة الملك أن تختم الحديث بهذا الوعد واخذت تهتم بالذهاب الى الفراش و ياقوتة تساعدها

اما عماد الدين فانه دخل السرداب مرغماً ولم يكن يريد الرجوع هاربا من وجه قراقوش أو غيره . ولكنه فعل ذلك صيانة لكرامة سيدة الملك وفراراً من التأخير عن المهمة التي هو سائر فيها — مر في السرداب متحسساً والغلام يسير بين يديه حتى وصل الى الطرف الآخر عند مطرة اللؤلؤة . فخرج وعاد الغلام الى القصر ومشى عماد الدين بين الاشجار يطلب غرفته واذا هو يسمع المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر فاجفل ولم يكن يظن نفسه تأخر بهذا المقدار واسرع الى غرفته وامر باعداد جواده واستعد للسفر وهم بالخروج قبل طلوع النهار حسب وعده . واذا بصلاح الدين يناديه من غرفته فاسرع ملبياً فرآه قاعداً في فراشه فانكب على يده يقبلها فقال له « أنت مسافر يا عماد الدين ؟ »

قال نعم يا سيدي .. فقد ابطأت قليلاً ولكن لا نطلع عليّ الشمس

الا خارج القاهرة كما قلت »

قال « كنت احب ان اراك قبل الآن وقد سألت عنك مراراً فلم يحدثوك في حجرتك . احببت أن اراك لعلي انبئك عن عزمك وانت سائر في مهمة يمكن الاستغناء عنها وربما كنا احوج اليك هنا مما في الخارج »

قال « اني طوع امر مولاي . لكنني قد تأهبت للذهاب وادع لي بالنجاح واذا فزت فبركة سلطاني ومولاي . واذا مت فان روحي فداه قال ذلك ووقف ينتظر الامر فاجابه صلاح الدين « سر بحراسة المولى ولا اوصيك بالشجاعة فانك شجاع ولكنني لا احب أن تلقى بنفسك في التهلكة فانك عزيز علينا . . سر بحراسة الله »

فعاد وقبل يد صلاح الدين وخرج فركب جواده وسار ولم تمض دقائق قليلة حتى صار خارج القاهرة وهو عليم بالطرق ومسالكها . وحالما خلا بنفسه عادت اليه هواجسه بما لاقاه من الغرائب المدهشة في الليل الماضي ولما اشرقت الشمس توهم أن ما مر به من ذلك حلم رآه في منامه اذ استبعد وقوع ما لقيه من الحفاوة والتقرب من سيدة نساء مصر لكنه ما لبث ان حس جيبه فوجد العقد فيه حتى تحقق أن ذلك حدث في اليقظة فلنتركه في هواجسه ولنعد الى اهل القاهرة

الفصل الثلاثون

الهكاري وقراقوش

تركنا قراقوش بعد مفارقة سيدة الملك وقد استغرب ما سمعه . لكنه ما زال يتوقع أن يجد أحداً في القصر لان ابا الحسن أكد له وجود رجل غريب فعاد الى التفتيش في كل مكان فلم ير أحداً . فعاد الى غرفته قرب باب القصر فرأى ابا الحسن في انتظاره على مثل الجمر . وكان ينتظر أن

يراه قادماً اليه ومعه عماد الدين يرسف في القيود فلما رآه وحده صاح به « اين الرجل ؟ »

وكان قراقوش يحترم ابا الحسن لما يعلم من نفوذه عند الخليفة فاجابه بلطف قائلاً « لم أجد أحداً ياسيدي »

قال « يا للعجب ! كيف لم تجده . انا على يقين من دخوله هذا القصر .. وأنت تعرفه »

قال « من هو ؟ »

قال « عماد الدين خادم السلطان صلاح الدين »

قال « عماد الدين ! لا يعقل دخوله هنا . ان هذا الشاب من رجالنا لا يجسر على المجيء . . وكيف يمكنه أن يدخل هذا القصر ويخرج منه ولا أراه وانا ساهر لا تفوتني حركة من حركات أهله والمفتاح بيدي ؛ واي غرض له من المجيء ؟ . لا بد من خطأ في البلاغ الذي اتصل بك »

قال « انا على يقين يا أستاذ ان عماد الدين دخل هذا القصر . وأما غرضه فيه فلا أدرى ما هو لكني سمعت من بعض غلمان القصر ان لهذا الشاب معرفة باهل هذا القصر قبل أن صار الاستاذ بهاء الدين زمامه والآمر الناهي فيه . فاعي أنه دخل اليه في يوم واقعة العبيد و .. »

فاستغرب قراقوش هذا الحديث فقال « قل لى من أنبأك الآن بدخوله هنا ؟ »

قال « غلامي وهو من العارفين بدخائل القصر واذا شئت دعوته اليك »

قال « ادعه اين هو ؟ »

فوقف ابو الحسن بالباب ونادى « يا غلام »

فلما دخل الغلام تذكر قراقوش انه من قدماء الغلمان في قصور الخلفاء فقال له « كيف تقول بدخول الرجل هذا القصر ؟ ومن انبأك بذلك ؟ »

فالتفت الغلام الى ابي الحسن وقال « هل أقول ما أعرفه ؟ »

قال « قل »

فالتفت الى قراقوش وقال « علمت بدخوله لانى رأيته داخلاً القاعة الكبرى »

فصاح فيه « رأيته بعينيك ؟ »

قال « نعم يا سيدي وقد مكث هناك مع سيدة الملك وخاصمها مدة »

قال « ولماذا لم تخبرنى ؟ »

قال « لم أتجاسر خوفاً من سيدتي فبلغت الامر الى مولاي ابي الحسن ليبلغك اياه وهو من أقرباء أمير المؤمنين وله داله ونفوذ .. وقد فعل »

قال هذا لا يمكن .. لا يمكن أن يدخل أحد هذا القصر ولا أعلم به وليس للقصر باب آخر غير ذلك — الا أن يدخل من الدهليز الذى يمر به الخليفة من قصر الذهب وهذا عليه الحراس يمنعون ايا كان من المرور فكيف يتيسر لهذا الرجل الدخول ؟ »

قال « ان سيدى الاستاذ زمام القصور حديث العهد في هذا القصر لا يعرف دخائله وسراديبه ودهاليزه وفي جملتها سرداب بينه و بين منظرة اللؤلؤة ربما جاء عماد الدين فيه . »

فلما سمع ذكر منظرة اللؤلؤه أجل البحث الى وقت آخر وختم الحديث بقوله « وعلى كل حال فان هذا القصر ليس فيه أحد من الرجال الغرباء الآن واذا كان فيه أحد فانه لا يفلت منه . وسأنال جزاءه . لان مولاي السلطان أوصانى خيراً بالقصر وشدد عليَّ بالمحافظة عليه لصيانة أهله . . . واني شاكر للشريف ابى الحسن على غيرته »

فقطع ابو الحسن كلامه قائلاً « اني أفعل ذلك غيرة على النسب الشريف الذي يجمعني باهل هذا القصر . ولكن لا بأس سيظهر الحق »

ثم خرج وهو يقول « لقد أزعجتك الليلة بلا طائل » وانصرف

فلما خلا قراقوس بنفسه عاد الى التفكير واستعاد ما سمعه من ذلك الغلام عن وجود الدهاليز والسراديب . وبعد اعمال الفكرة ترجح له صدق التهمة فرأى أن يرفع الامر الى صلاح الدين . فلما كان الضحى ركب الى قلعة اللؤلؤة . ولكنه رأى أن يلقى صديقه ضياء الدين الهكاري ليستشيره في الامر قبل الدخول على صلاح الدين لانه أصبح في تلك الاثناء اكثر مخالطة له منه . فلما وصل القلعة سأل عن الفقيه عيسى الهكاري فقيل له انه منفرد في غرفته . وهمّ الحراس أن يرحبوا بقراقوس ويبلغوا خبره الى صلاح الدين فاشار اليهم أن لا يفعلوا وتحول عن فرسه وطلب غرفة الهكاري في بعض أطراف البستان . فلما علم الفقيه بقدومه وقف له ورحب به . وكانا صديقين اصطحبا في خدمة صلاح الدين وتعاونا في اسناد الوزارة اليه بعد عمه كما تقدم . وهما يتماديان في مصاحبته

رحب الهكاري بهاء الدين قراقوس ترحيباً كثيراً وقال له « ماذا جرى ؟ اني لم أشاهدك من عهد بعيد منذ تسلمت حراسة النساء وما أخذك بقيادة الرجال .. » واشار اليه أن يجلس على وسادة فوق الطنفسة

فجلس بهاء الدين وهو يقول « ان حراسة النساء أصعب مراساً من قيادة الجند لانها تشتمل على حراسة النساء من الرجال وأنت ماذا تعمل؟ هل دبرت شيئاً جديداً في خدمة هذا السلطان العظيم . اني لا أذكر اسمه الا ويتهلل قلبي فرحاً .. »

فقطع الهكاري كلامه قائلاً بصوت خافت « وخصوصاً لما نتذكر اننا استطعنا أن نضعه في هذا المنصب كما تعلم »

فابتدره بهاء الدين قائلاً بلهجة « احذر يا صاح أن تقول هذا ويسمعك أحد اذ ليس على الملوك أثقل وقعاً من التمنن . والآن ماذا تفعل ؟ »

فضحك الهكاري وقال « انا ساع الآن في أمر لا أستغني فيه عن يدك . واذا نجحنا فيه يحق لنا ان نفاخر بما اديناه من الخدم الجليلة للسلطان صلاح الدين »

فتطاول بهاء الدين بعنقه نحوه وقال « وماذاعسى أن نفعل فوق مافعلناه انه سلطان مطلق وليس بعد هذا المنصب مطمع »

قال « بلى .. ان السلطان يقدر أن يطمع بالخلافة »

فحول وجهه عنه بازدراء وقال « لا فائدة من مطمع لا سبيل اليه »

فقال « لم أعهدك متسرعاً .. متى علمت الطريق الذي اخترته غيرت ظنك في الامر .. »

قال « وماذا عسى أن يكون الطريق .. »

قال « طريق الزواج وقد خطبت له سيده الملك اخت الخليفة فاذا تزوجها فابنه منها يكتسب حقاً في الخلافة اذا اتحدت معه القوة كي ينيل هذا المنصب كما اراد طغرل بك السلجوقي أن يفعل و .. »

فقطع بهاء الدين كلامه قائلاً « فهمت ماتريده وهو نعم الرأي ولكن هل رضي الخليفة أن يزوج أخته لهذا المولى الكردي (وضحك) ? لا أظنه يرضى »

قال « اذا لم يرض طوعاً رضي كرهاً . وقد وعدنا بالجواب بعد قليل »

فقال قراقوش « لقد أذكرتني امراً جئت من أجله وشغلتني عنه بحديثك . ان عماد الدين خادم السلطان ارتكب شططاً لا أدري اذا علم به السلطان ما يكون قصاصه وخصوصاً بعد ما عامه من خطيئته و .. »

فقطع الهكاري كلامه قائلاً « لا تقل خادم السلطان بل قل صاحبه وحارسه الخاص »

قال « ومتى بلغ هذا المنصب ؟ »

قال « بلغه أول البارحة على يد الامير نجم الدين — لله هو من رجل كبير العقل عالي الهمة .. »

قال « صدقت أن نجم الدين جدير أن يكون والد هذا السلطان . . واين هو عماد الدين ، أحب ان اراه لأهنئه واسأله سؤالاً »

قال « خرج من هذه المنظرة فى هذا الصباح في مهمة لا يعلم أحد حقيقتها .. وماذا تريد أن تسأله ؟ »

فقص قراقوش خبر الامس كما جرى . فاظهر الهكاري ارتياحه في صحة الرواية وأكد له أن عماد الدين قضى طول ليله في الاستعداد للسفر وبرح المنظرة في الفجر . فوقع قراقوش في حيرة وعاد الى الارتياب في الامر وخصوصاً بعد أن سمع حديث الخطة لكنه اراد أن يطلع صلاح الدين على ما سمعه واستشار الهكاري في ذلك فقال « دعه الآن لا تخبره لئلا يغير ذلك من عزمه على الخطة وانا أضمن تمام اقترانه لأني ضامن المستقبل باذن الله »

الفصل الحادي والثلاثون

جلسة تاريخية

وهم في ذلك وقد همّ قراقوش أن يتكلم دخل غلام الهكاري وقال « في الباب رسول من مولانا السلطان »

وقال الفقيه « يدخل »

فدخل الغلام ولما رأى قراقوش عليه بانت البغتة في وجهه وقال « سيدي الاستاذ بهاء الدين هنا ؟ كنت ذاهباً اليه ايضاً »

فقال الهكاري « ما وراءك ؟ »

قال « ان السلطان يطلب حضوركما في القاعة الآن وقد أمرني أن ادعو سائر الخاصة وكنت عازماً على الذهاب الى القصر الكبير لادعي سيدي الاستاذ واذا هو هنا »

فقال قراقوش « انا ذاهبان وماذا عسى أن يكون الباعث على هذه الدعوة ؟ »

قال « لا ادري يا سيدي ولكنني رأيت نجاباً وصل في هذا الصباح قادماً من دمشق ومعه رسالة رفعها الى مولانا السلطان فما زال منذ تلقاها وهو يقلب فيها وقد تغير وجهه و بان الغضب فيه . ثم شاور مولانا الامير نجم الدين والطاهر انهما اقرّا على عقد جلسة للبحث في أمر هام »

فاشار قراقوش الى الهكاري بيده مستفهماً عما يعلمه من هذا الامر . وأشار الى الغلام ان ينصرف ومشى مع قراقوش وخاطبه في اثناء الطريق سرّاً وقال « ان امر هذا الكتاب علمت به في هذا الصباح وقد استقدمني السلطان واطلعني عليه وعملت عملاً ترضاه مني »

قال « وما ذلك »

قال « ان الكتاب من السلطان نور الدين صاحب دمشق شديد اللهجة جدّاً »

قال « وما سبب ذلك ؟ »

قال « ألا تذكر خروج مولانا السلطان في صفر من هذا العام الى بلاد الشام لمحاربة الافرنج وقد صحبته في هذا السفر . فنازل حصن الشوبك ثم طاب الكرك وحصرهُ وضيق عليهِ وعلى من به من الافرنج حتى طلبوا التسليم والامان . لكنهم استمهلوه عشرة أيام فاجابهم الى ذلك . وكان السلطان نور الدين في دمشق فلما بلغهُ ما فعله صلاح الدين ارتاب في أمره

وانت تعلم ما بينهما من المحاذرة وما في نفس صلاح الدين من الطمع في سلطنة مصر لنفسه .. » قال ذلك وضحك فبادره قراقوش قائلاً « لا اظن احداً اطمعه فيها سواك وقد احسنت ... كمل »

فقال الهكاري « ألا تراه اهلاً لها ؟ . ما لنا ولذلك .. ان نور الدين لما سمع بما فعله صلاح الدين في الكرك خرج من دمشق قاصداً حرب الافرنج لغنم تضييق صلاح الدين عليهم من جهة ويضيق عليهم هو من جهة اخرى فيذهب ملكهم وقد رأيت في ذلك خطراً على سلطاننا لان نور الدين متى اذلّ الافرنج واخضعهم تفرغ للسلطان صلاح الدين وهو وزيره والناس اطوع له مما الى وزيره فتذهب مطامع صلاح الدين بمصر ادراج الرياح والافضل ان يبقى نور الدين مشغولا عن صلاح الدين بمحاربة الافرنج حتى يقضي الله امراً كان مفعولا .. »

فقطع قراقوش حديثه قائلا « لله درك من داهية واحسبك عرضت هذا الرأي على السلطان .. »

قال « عرضه عليه بعض الناس واشار عليه ان يرجع لمصر بحجة يتنحلها ومما قالوه له « ان دخل نور الدين بلاد الافرنج وهم على هذه الحال انت من جانب ونور الدين من جانب ملكها . ومتى زال الافرنج من الطريق واخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وانت هنا فلا بد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك . ان شاء تركك او لا فقد لا تقدر على الامتناع عليه . والمصلحة الرجوع الى مصر » (١)

فرجع مولانا السلطان الى مصر كما نعلم وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصرية لامور بلغته من بعض شيعة العلويين وانهم عازمون

(١) ابن الاثير ١٦٦ ج ١١

على الوثوب بها فيخاف عليها من البعد عنها ان يقوم اهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة — واطال في الاعتذار . فيظهر ان نور الدين لم يصدق هذه الاعذار . فبعث اليه كتاباً يهدده فيه ان لم يأت الى دمشق. ولقيته في هذا الصباح وقد أخذ منه الغضب مأخذاً عظيما فاسرَّ الى غضبه وانه لم يعد يستطيع صبراً على كتمان عرضه فخفت غضبه واستمهلته ولا اراه مصغياً ولا اخال هذه الدعوة الا لامر يتعلق بالكتاب »

وكانا قد وصلا الى قاعة الاجتماع والحرس ببابها فازاحوا لهما الستر . فدخل الهكاري اولا وتبعه قراقوش وكانت جلسة حافلة اجتمع فيها نخبة الخاصة من رجال صلاح الدين وأهله وفي جملتهم ابوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي وابن اخيه تقي الدين

فالقى الهكاري وقراقوش التحية فرد صلاح الدين عليهما وقال « مرحباً بالفقيه الحكيم ضياء الدين وبالبطل الاستاذ زمام القصر بهاء الدين » واشار اليهما بيده فجلسا وعينا الهكاري تراعى صلاح الدين فرآه رغم ما يحاول اظهاره من التؤدة وسعة الصدر وسكون البال قد تجلى الغضب في عينيه

فلما استقر المقام بالجلوس قال صلاح الدين « يا نخبة الامراء الابطال وخيرة الاهل والخلان ان السلطان نور الدين صاحب دمشق اقلق راحتنا بمراسلاته وهو يطلب الينا الذهاب اليه . ونحن في ما تعلمون من حرج المقام وما يحدق بنا من الدسائس والمكائد في بلد كل اهله اعداؤنا يترقبون منا غفلة او ضعفاً ليثبوا بنا . فاذا اعتذرت له بذلك كتب الي يهددني انه حامل علينا بخيله ورجله . وانتم رجالي واهلي وما يقال لي كانه يقال لكم. فلم اشأ ان اقطع في الجواب قبل ان اشاوركم فماذا ترون ؟ »

وكان صلاح الدين يتكلم والحضور سكوت كأن على رؤوسهم الطير

أن نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه ؟ وحينئذ لا نقوى عليه . واما اذا بلغه قولي واننا في طاعته تركنا واشتغل بغيرنا ريثما تعمل الاقدار عملها .. » ثم وجه كلامه الى الهكاري وقراقوش وقال « والله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر بمصر لقاتلته عليها حتى امنعه او أقتل » قال ذلك وعيناه تتلألآن

فهم صلاح الدين بيد أبيه يقبلها وقال « صدقت يا ابي . قد نطقت بالصواب وأنا فاعل ذلك باذن الله .. ما احوجني الى رأيك وتدبيرك »

والتفت الهكاري الى قراقوش ولسان حاله يقول « ألم اقل لك هذا ؟ »

فاكب قراقوش على يد نجم الدين فقبلها وقال « لاحرمنا الله من رأيك يا سيدي . . » وقبل أن يفترقوا سمعوا الآذان فذهبوا للصلاة ثم الى الغداء

الفصل الثاني والثلاثون

الثعلب

اما ابو الحسن فلما عاد بصفقة المغبون ولم يظفر بعماد الدين ولا استطاع اغاظة سيده الملك رأى أن يبلغ ذلك الى الخليفة باسلوب يمكنه من مرامه. فصبر حتى طلع النهار وهو صباح الاثنين أحد اليومين اللذين يجلس الخليفة فيهما للناس من كل أسبوع واليوم الآخر يوم الخميس . فأجل ابو الحسن المقابلة الى اليوم التالي [illegible] ذلك اليوم وهو يدبر الحبائل وينصب المكائد . وبكر في الصباح التالي الى [illegible] الخليفة [illegible] فرحب به وسأله [illegible] الخليفة فقال « انا [illegible] وقد [illegible] المرض [illegible] بالامس حتى [illegible] »

فابتدره ابو الحسن قائلاً « يظهر انه انتكس لما بلغه خبر قصر النساء »

فلم يفهم الجليس مراده فقال « وماذا جرى ؟ » وأشار اليه أن يتفضل يدخل

فاظهر انه أخطأ بذلك التصريح وانه يريد الكتمان محافظة على كرامة أخت الخليفة فقال « لم يجر شيء » وجعل يبلع ريقه وهو يناول لجام البغلة الى السائس ويمشي مع الجليس الى قاعة الاستقبال

فانطلت الحيلة على الجليس فقال « كيف لم يجر شيء وقد قلت انه جرى ؟ قل لا تخف عني . . واني لا اخاطب الخليفة بشأنه اذا أحببت كتمانه عنه »

قال وهو يتعمد ويظهر عدم الاكتراث « ليس هذا وقت الكلام عما يكدر الخليفة وانما يهمني أن يشفى من مرضه . ما الذي جد عليه حماه الله من كل سوء »

قال « ما زال منذ اصيب بالحمى يوم ذلك الاجتماع وهو متوعك المزاج . فلما كان صباح الامس وهو يوم الجلوس للناس لم يحضر فسألت عنه فقيل لي أنه قضى يومه في دار النساء وعلمت بعد الظهر ان الحمى عاودته بشدة . . »

فاظهر ابو الحسن الاهتمام الشديد بالامر وقال وهو يطرق في البساط « قضى نهار الامس في دار النساء ! واصيب بعد الظهر بالحمى . . فلا بدّ ان يكون طي الاول في محله »

قال « وما هو ؟ قل يا ابا الحسن . ما عهدتك تخفي عني شيئاً . . قل ماذا جرى في دار النساء ؟ »

قال « لا احب ان يشيع هـذا الخبر حفظاً لـكرامة اهل القصر .. علمت ان غريباً دخل ذلك القصر مساء اول البارحة وقضى معظم الليـل فيه . ولما علمت بخبره اسرعت الى زمام القصر (قراقوش) وطلبت اليه القبض عليه فاذا به قد فرّ في السراديب .. أرأيت ؟ أرأيت هـذه الطياشه ؟ »

فاطرق الجليس دهشة واستبعد ذلك الخبر لعلمه انه ما من احـد يتجاسر على عرض الخليفة ولا يعقل انه يستطيع الدخول الى القصر مع ما حوله من الحراس . ثم ان اخت الخليفة بعيدة عن مثل هـذه الظنون . ولحظ ابو الحسن تردده في تصديق الخبر فبادره قائلاً « اراك مطرقاً تفكر كأنك لم تصدق قولي . وحقك ان ترتاب . ولـكن هذه المرأة التي تزعم انها لا تريد الزواج فراراً من ابي الحسن انما هي عالقة القلب بشاب غريب من الاكراد اعدائنا »

فصاح « من الاكراد ! ماذا تقول ؟ »

فاجاب بهدوء وتألم « ومن خدم الاكراد »

فلطم الشيخ كمه بكفه وقال « يا للفضيحة ماذا يكون حال امير المؤمنين اذا بلغه ذلك الخبر ولـكن .. »

فقال ابو الحسن « ومن يتجاسر على تبليغه هـذا الخبر ، لا ينبغي ان يعلم به او لعله علم وكظم فاصابته الحمى .. اتأسف كثيراً لاني اطلعت على هـذه الفعلة ولـكن ما العمل لا بد من تدبير حيلة ننقذ بها عرضنا من العار ! »

فتألم الجليس مما سمعه واعتمد صحته وهو سليم القلب كما علمت . فاوشك ان تدمع عيناه من الغضب فوق ما هو فيه من الكدر على مرض الخليفة . وكان لا يزال واقفاً فقعد وهو خائر القوى . فاخذ ابو الحسن

يتظاهر بالتخفيف عنه . وهو يعد ذهنه لمكيدة يفوز بها بمرامه فقال « يحق لنا البكاء في هذا اليوم فلنبك يا عزيزي فلنبك .. » واخذ في البكاء حتى نسي الجليس حزنه واشتغل بالتخفيف عن ابي الحسن فقال له « لا بد من الصبر يا مولاي ان البكاء لا ينفعنا شيئاً . . لا بد من تدبير طريقة .. »

واسرع ابو الحسن الى مسح عينيه وتظاهر بالجد والاهتمام والتفت الى الجليس وقال « نعم لا بد من تدبير طريقة ولكن الامر اعظم مما يظهر لك يا عماه »

قال « وهل اعظم من ذلك ؟ »

قال « ان الامر نفسه عظيم كما علمت ولكنني افكر في المستقبل واراقب ما قد تأتي به الاقدار مما لم يكن بالحسبان »

فظل الجليس ساكتاً يفكر ولم يجب . فقطع ابو الحسن سلسلة افكاره بالسؤال قائلاً « من هو طبيب مولانا امير المؤمنين ؟ »

قال « طبيبه الشيخ السديد رئيس الاطباء لا يثق الا به لسعة علمه وطول اختباره »

فقال ابو الحسن « الشيخ السديد ؟ هل هو ماهر في صناعة الطب ؟ »

قال « كيف لا وقد نال الحظوى عند الائمة الفاطميين من ايام الآمر رحمه الله وكان صغير السن وابوه طبيب قبله . ثم ورث هذا المنصب بعده (١) وما زال يطبب الائمة رحمهم الله الى الآن وقد اصبح شيخاً طاعناً في السن »

فقال « وماذا يقول عن مرض مولانا . هل سألته ؟ »

قال « سألته ولكنه لم يجبني جواباً صريحاً

(١) طبقات الاطباء ١٠٩ ح ٢

قال « اني اخاف جواب الاطباء ان لم يكن صريحاً . . لانهم اذا خافوا على مريضهم الموت جعلوا كلامهم عنه مبهماً . . »

فاجفل الجليس عند سماع لفظ الموت لانه كان يحب العاضد وقال « لا سمح الله يا سيدي . . لا سمح الله ان يكون على الامام العاضد بأس »

فقال ابو الحسن « اعوذ بالله ان يخرج من فمي أو يمر بذهني سوء يصيب امامنا واطلب الى الله اذا كان قد كتب شيء على امير المؤمنين ان يفديه بروحي . . ولكن العاقل من فكر بالامر قبل وقوعه ولا سيما في الامامة . لان الامام قطب تدور عليه امور الدولة وبه تتعلق القلوب . والاصابة به غير الاصابة بآحاد الناس . . وهذا معنى قولي لك ان المسألة اعظم مما تتصور . هل فهمت مرادي ؟ »

فادرك الجليس انه يعني لو مات العاضد كيف تكون حال الامة بعده فقال « فهمت يا سيدي ان الامر جليل ولكن . . »

فاسرع ابو الحسن وهو يروغ كالثعلب وقال « كلنا عبيد الموت يا عماه وعسى ان تكون حياة الامام العاضد اطول من حياة كل منا . واضرع اليه تعالى ان لا يميتني الا في حياته » — ودمعت عيناه فتأثر الجليس وشاركه بذلك الشعور على ظاهره وقال « ذلك ما نتمناه جميعاً وخصوصاً لان مولانا حفظه الله ليس لنا ملجأ سواه وقد كابد في امامته من اولئك الاكراد ما لم يكابده سواه ولولا حزمه وتعقله لا ادري كيف كانت حالنا . . »

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه كأنه فطن لامر هام وقال هذا ما يدور في خاطري ويجول في خاطري ويحوم حول اماني ولا تطاوعني قلبي عليه . . اذا كان هذا حالنا الآن فكيف يكون شأننا لو حدث ما نخشى موتنا قبله . . لو ان في بيت العاضد رجلاً حازماً يجاهد لكان خيراً ولكنهم

اطفال كما تعلم وهذا المنصب لا يستطيعه الا المحنكون نظيرك .. كم كنت اود ان يكون لك يدٌ في هذا الامر .. »

فاستعظم الحليس هـذا الاطراء واخذ يتمصل من هذا الحق فقال « اني عبد خادم لا يقال لي مثل هذا القول وانما يطمع بهذا الامر من كان مثلك يا ابا الحسن .. »

واخذ ابو الحسن يهز رأسه هز الانكار وقال « انا ! نعم كنت راغباً في هـذا المنصب كما علمت وقد قلت لي ان الامام رضي ان اكون ولي عهده . وهذا شرف لي لكنني الآن اتردد كثيراً في القبول .. »

فقال الحليس « لا ينبغي ان تتردد فان في قبولك انقاذ هذه الدولة »

فوجد الفرصة قد سنحت ليستشهد الحليس بان العاضد بايعه بولاية العهد فقال « وهب اني اردت ان اتفانى وارضى فهل يصـدق القول ان العاضد بايعني ؟ »

قال « انا اشهد بذلك .. ألم يكن رضي على الشرط المعلوم ؟ وانمـا احل الامر موقتاً وقد اعترضته شؤون مختلفة .. »

فرقص قلب ابي الحسن طرباً عند سماع ذلك الوعد فعاد الى المغالطة وقال « انا اعلم ان مثلك اذا شهد فشهادته اوثق من عقد مبرم .. ولـكن ما لنا ولهـذا الان ارجو ان لا يحدث ما يدعو الى استشهادك وان ينهض مولانا الامام صحيحاً معافى ونتمتع برؤيته ونقبل يديه ونصلي وراءه .. »

قال « عسى ان شاء الله »

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام مسرعة ودخل غلام عرفا انه من غلمان القصر فاجفلا فقال الحليس « ما وراءك »

قال وصوته يرتجف « ان مولانا الامام يحب ان يراك الان عاجلاً »

فقال « وكيف هو ؟ »

قال « لا ادري لكني رأيت الشيخ السديد عنده ومعه اطباء كثيرون .. »

فنهض الجليس وهو يقول « يظهر ان المرض اشتد عليه »

فقال ابو الحسن « لا بد من ذهابك اليه حالاً . ولو كنت اعلم اني ادعه لسرت معك ولكني ساسعى بعد قليل للاطمئنان . وانا ذاهب الآن الى المسجد لادعو له بالشفاء » قال ذلك وخرج وترك الجليس يتأهب للركوب الى الخليفة

الفصل الثالث والثلاثون

الدسائس

اما ابو الحسن فانه رجع على بغلته الى منزله . وخلا في غرفته واخذ يفكر في حيلة يدبرها لنيل بغيته . وقد تأكد له دنو اجل الخليفة فكيف يمهد الامر لنفسه وهو يعلم ان شهادة الجليس لا تكفي وان القول الفصل لصلاح الدين . اذا اظهر رضاه عن مرشح للخلافة نالها . فانزوى في الغرفة على كرسي واقفل الباب وجعل يفكر في الطريقة المؤدية الى غرضه وبعد التفكير ساعة — لا يحرك رأسه ولا يده وانما كان يحرك شفتيه وعينيه — وثب من مكانه وصفق فجاء الغلام فقال له « اسرج البغلة »

فقال « لا تزال مسرجة يا سيدي »

فركبها وسار قاصداً عيسى الهكاري صديقه . وكان الهكاري في غرفته المعهودة يطالع في بعض كتب الفقه فلما انبأه الغلام بمجيء الشريف ابي الحسن خف له واستقبله احسن استقبال لانه كان يتوقع ان يحتاج اليه في تدبير بعض الشؤون لمساعدة صلاح الدين

فبدأ ابو الحسن الحديث عن الفقه والتاريخ كأنه يتمم ما دار بينهما

عند اجتماعهما في دار العلم فقال « اراك لا تزال تفتش في الكتب ...هل ترى منها نفعاً ؟ »

قال « كيف لا ؟ ومثلك لا يسأل هذا السؤال يا سيدي »

قال « صدقت لكني لا أعني الفائدة الشرعية وصيانة الحقوق وانما اعني الفائدة التي يطلبها الناس من اعمالهم .. ام انت مثلي تهتم بالعلم لاجل العلم نفسه ؟ »

قال « اطلب العلم لاجل العلم ولكن العاقل قد يستفيد منه فوائد اخرى .. »

فادرك ابو الحسن انه يشير الى ما يتوهم الهكاري انه استنبطه من مطالعة تاريخ طغرلبك من تلقاء نفسه حتى حرض صلاح الدين على اخت الخليفة كما علمت . فعمد الى اطرائه وتغريره ليتوصل الى مرامه فقال « انك حكيم عاقل وقد علمت الآن صدق خدمتك للسلطان صلاح الدين .. ألم تكن انت اشرت عليه بخطبة اخت الخليفة ؟ . لا تنكر ذلك »

فاراد ان يتواضع ويتنصل من ذلك الفضل فقال « ليس لي هذه الدالة يا ابا الحسن »

فقال « مهما يكن من تنصلك فانا اعتقد نفوذ كلمتك والان اتعلم لماذا جئتك ؟ »

قال « لا »

قال جئتك لامر اذا علمت كيف تفهمه وتعمل به خدمت مولاك خدمة حسنة .. وان كان فيه خدمة لصديقك ابي الحسن ولك ايضاً »

فتطاول بعنقه وقال « رحم الله من نفع واستمع .. قل ما وراءك »

قال « اتعلم ان الامام العاضد في حال الاحتضار الان ؟ »

قال « اعلم انه مريض فهل اشتد عليه المرض ؟ »

قال « انه في اشد حالات المرض .. واذا مات صارت الخلافة الى ولي عهده وانت تعلم انه غلام عنيد لا يعرف فضل الرجال .. »

قال « اي فضل تعني ؟ »

قال « اسمع .. اني مطلعك على سر يهمك الاطلاع عليه .. ان العاضد مائت الليلة او غداً . وانا اكثر اهله معرفة بفضل السلطان صلاح الدين — لا اقول اني احب ان يتولى هذا الامر هو ويخرجه من ايدينا . ولو قلت لك ذلك لا تصدقني ولكني اعلم ان مقاومة القوة العاملة لا تفيد شيئاً . واذا صارت الخلافة الى ولي العهد الذي نعرفه كان ذلك باعثاً على القلاقل . اني اعرف افكاره واعلم انه ينوي ان يثير الشيعة ويحرضهم على مناوأة السلطان ورجاله .. وهذا لا يفيد احداً من الناس . ولا اخفي عنك ان العاضد كان عازماً ان يجعل ولاية العهد اليّ فأوصى لي بذلك على يد الجليس الشريف وأوشك ان يكتب العهد لكن المرض منعه . وأخاف اذا توفي في مرضه هذا ان ينكر رجاله وأهله عليّ ذلك . فاذا أخذتم بيدي وصيرتم هذا الامر اليّ عرفت لكم فضلكم وأغنيتكم عن التعب .. ارجو ان تكون قد فهمت مرادي وأظن ما بيننا من الصداقة القديمة يكفي للوثوق بي والتعويل على قولي »

وكان الهكاري يسمع كلام ابي الحسن ويفكر فيه . فلما وقف عند هذه العبارة قال « وبعد ذلك ؟ »

قال « اني اذا خاطبت السلطان صلاح الدين في الامر اعرض عليه هذا الرأي كله ممن يعرف لك هذا الفضل وانت رابح من كل وجه .. ان ما أعرضه عليك لم الامة وفيه نفع للسلطان ولك ولي فما قولك ؟ »

فرأى الهكاري كلام أبي الحسن معقولاً . وأدرك ان عمله هذا خيانة لاهل الخليفة لكنه نظر فيه من حيث مصلحة السلطان لأنهم اذا أعانوا هذا الخائن على تولي الخلافة كان عوناً لهم في ما يريدون ويهون عليهم ان يخلعوه في ما بعد اذا شاؤا فضلاً عن أنه يسهل على صلاح الدين التزوج بسيدة الملك على يده فيتم تدبيره . فنظر الى أبي الحسن نظر متفرس وقال « انت مقدم على عمل عظيم فيه نفع كبير لك »

قال « لا أنكر ذلك ولكني أخدم مصلحة السلطان صلاح الدين أيضاً من كل وجه واذا لم تصغ لرأيي تعذر جميعاً لان المصريين قلوبهم مع خلفائهم كما لا يخفى عليك أرني مهارتك في اتمام هـذا الامر واعلم أنك ستكون أقرب المقربين »

قال « لك عليّ ذلك . سأبذل ما في وسعي في هـذا السبيل ونرى ما يكون »

فتحفز ابو الحسن للنهوض وهو يقول « أنا ذاهب وسنلتقي غداً ولا حاجة بي الى تنبيهك بأن يبقى ما قلناه هنا مكتوماً عن كل انسان »

قال « لا حاجة الى التوصية »

الفصل الرابع والثلاثون

اقطع الشجرة من جذرها

نهض ابو الحسن وركب بغلته وعاد . . وظل الهكاري واقفاً برهة يعيد في ذهنه ما سمعه ورأى فيه خيراً كثيراً . فبادر الى تنفيذه وسار الى صلاح الدين فرآه مع أبيه في شرفة تطل على الخليج وقد جلسا هناك

للاستراحة فاستأذن عليهما فاذن له فدخل فامره نجم الدين بالجلوس فجلس وتكاد عيناه تنطقان بما في خاطره فقال له صلاح الدين « ما وراءك يا ضياء الدين »

قال « جئت مولاي بامر هام »

قال « كل ما تأتي به هام نافع . اني لا أنسى بلاءك في مصلحتنا . قل ما بدا لك »

وأخذ يقص عليه ما دار بينه وبين ابي الحسن من أوله الى آخره والاهتمام ظاهر في عينيه . فلما فرغ من كلامه ابرقت عينا صلاح الدين ونظر الى أبيه كأنه يستشيره في الامر . وكان نجم الدين يسمع كلام الهكاري ويمحصه ويزنه ويتدبره . فلما رأى صلاح الدين ينظر اليه قال « انه رأي جميل لكنه لا يزال فطيرا لا سيما والعاضد لا يزال حيا فاذا مات نظرنا في الامر -- بارك الله في همتك يا ابا محمد » وسكت

فعلم الهكاري انه ينبغي له أن ينصرف ليخلو الاميران ويتناجيا فاستأذن وخرج

فلما خلا نجم الدين بابنه جعل يتفرس في عينيه كأنه يطلب اليه أن يقول ما في خاطره فقال صلاح الدين « ما رأي والدي بما سمعه ؟ »

قال « انما اسألك عن رأيك . . »

قال « اني أرى فرصة لا ينبغي ضياعها . لا انكر انها خيانة من أبي الحسن هذا لكنها تفيدنا . واذا وليناه الخلافة بأمرنا زاد نفوذنا وكان آلة في يدنا »

فابتسم نجم الدين ابتسام استخفاف وقال « انك يا يوسف رجل حرب ورأي . ولكنك لا تزال في حاجة الى الدربة والحيلة . . استفدنا من وشاية هذا الرجل ان القوم اذا مات خليفتهم تضعضعوا واختلفوا فيما

بينهم وهي فرصة لقطع تلك الخلافة من جذرها . لا نبايع هذا ولا غيره . وانما نقبض على القصور ونحبس أهلها الذكور اصحاب الحق في الخلافة حتى يبيدوا . وقد خطبنا للخليفة العباسي منذ مدة ولا بد من الشدة والحزم فينتهي الامر . أليس ذلك خيرا من ان نبايع خليفة آخر ونعود الى التعب من أوله ؟ »

وأعجب صلاح الدين برأي أبيه ورأى الصواب فيه وخجل لما فاته ادراكه من الامر ولم يسعه الا الاصغاء والاذعان وقال « بورك فيك يا أبتاه من حكيم حازم »

فقال « ولا يكفي ذلك وانما يجب أن نتأهب من الآن ونجعل الجند على استعداد للهجوم على القصور حالما يلفظ ذلك الخليفة السيء الحظ نفسه الاخير . وأتقدم اليك أن تكتم ما أقوله لك الآن عن كل أحد حتى يأتي وقته فننفذه . واحذر أن تفعل كما فعلت بالامس فتكتشف سرك في جلسة علنية . فقد قيل استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

فحنى صلاح الدين رأسه اعجابا وطاعـه وهم بتقبيل يد والده اعترافا باقتداره . فاجتذب نجم الدين يده وقال « ارجو ان تستفيد من قولي يا بني انك ستكون سلطانا عظيماً فاعمد الى التؤدة والحزم واذكر وصيـة أبيك . . »

أما ابو الحسن فخرج من عند الهكاري وقد امتلأ صدره املاً وتحقق لديه الفوز بالمكيدة وسار توًّا الى دار الخليفـة وهو يتنسم خبر العاضد في اثناء الطريق فعلم انه في أشد حالات المرض وأيقن انه مائت في ذلك الليل فأعمل فكرته في الوصول الى غرضه . وقد توهم فوزه بالخلافة وبقي التفتيش على سيدة الملك فأظهر اهتمامه بمرض الخليفـة وسأل عن الجليس الشريف فقيل له انه في غرفة الخليفة لا يأذن بخروجه والاطباء وقوف

بين يديه يبدلون الدواء بالدواء بلا فائدة . فاحتال ابو الحسن في الوصول الى الشيخ السديد طبيب الخليفة واستفهمه عن حقيقة حال العاضد فأجابه « انه يكاد يكون في حال الاحتضار » فبكى و بالغ في البكاء حتى اشفق الطبيب عليه وأخذ يخفف عنه فخرج توّا الى قصر النساء وقد مالت الشمس الى الاصيل وطلب أن يرى بهاء الدين قراقوش . فقيل له انه خرج لمقابلة السلطان صلاح الدين فجلس ابو الحسن في غرفة الاستقبال بباب القصر ينتظر رجوعه

و بعد قليل عاد قراقوش وعلى وجهه علامات الاهتمام . وكان ابو الحسن يتوقع أن يسمع منه ترحاباً بعد رجوعه من عند صلاح الدين لاعتقاده بان السلطان لا بد من أن يكون قد خاطبه بأمره بعد ما كان من تدبيره مع الهكاري . ولما رأى بهاء الدين مقبلاً على فرسه تصدى له بالباب وهو يبتسم فلم يكترث له قراقوش وتظاهر انه لم يره فخاطبه ابو الحسن قائلاً « مرحباً بالاستاذ كيف فارقت السلطان ؟ »

فالتفت اليه بهاء الدين كأنه رآه لاول مرة وقال « أنت هنا يا أبا الحسن ؟ »

قال « انا هنا في انتظارك منذ ساعة . . كيف حال مولانا الامام يا ترى الآن ؟ »

قال بهاء الدين وهو يقعد على مقعد في تلك الغرفة « انه في حال المرض الشديد شفاه الله » ولم يدع أبا الحسن للقعود كالعادة

فقعد ابو الحسن من تلقاء نفسه وأخذ يظهر الاسف على حال العاضد و يفرك يديه و يعصر عينيه ويهز رأسه وهو مطرق ثم قال « هل أنت متأكد انه شديد المرض ؟ »

قال « هكذا قيل لي الساعة .. شفاه الله .. انه كان رضي الخلق »

فبادر الى الجواب باهتمام وقال « صدقت يا أستاذ ان الامام كان من أحسن أهلنا خلقاً وأطيبهم قلباً ولذلك ... » وتنحنح وهز رأسه كأنه يحاول كتمان امر خطر له ثم التفت الى قراقوش وقال « لا بد انك لحظت بدقة نظرك يا أستاذ ماذا كانت نتيجة طيب قلبه وتساهله .. وان لم تر ذلك رأي العين .. أما انا فقد رأيته ... على ان الامر لآن أعظم مما تعلمه وينبغي لنا ملافاة الخطر قبل وقوعه ... انا أعلم انك ساهر متيقظ لا تحتاج الى تنبيه .. لكنني استميحك عذرا اذا رأيت فيّ قلقاً فاني اصون سمعة اهلي ان يلحقها ما يشوهها . وقد علمت ما كان بالامس من أمر ذلك الغريب الذي دخل هذا القصر وخرج منه ولم نتمكن من القبض عليه لان أهل هذا القصر ارشدوه الى طريق الفرار .. لا أقول ذلك طعناً بأحد لأني اعتقد ذلك من عواقب الطيش عن جهل لا عن سوء نية . فسيدة الملك هذا حالها وأخوها حي فاذا أصابه سوء لا سمح الله كيف يكون حالها . . » وتنحنح وتوجه بكليته نحو قراقوش وهو يظهر الثقة فيه والاعتماد عليه وقال « ولا ينبغي لي ان أخفي عنك امراً أخفيته عن سائر الناس ولم يطلع عليه غير صديقي وصديقك الفقيه ضياء الدين الهكاري . اعني ان الامام العاضد بايعني بالخلافة بعده وخطبت اخته هذه وهي لا تعلم بعد . وانما يعلم ذلك الجليس الشريف ويعلمه أيضا صديقي ضياء الدين والسلطان صلاح الدين وكان لي معه حديث طويل بهذا الشأن في هذا الصباح لا أدري اذا كان قد اطلعك عليه . » وصبر ليرى ما يبدو من قراقوش فاذا هو لا يزال مصغياً لا يبدي حراكا

فعاد ابو الحسن الى اتمام حديثه فقال « واذا كان لم يطلعك عليه لا بد انه مطلعك قريبا . وانما جئتك الآن استعين بك في صيانة عرضي وعرض الامام شفاه الله ربثما يستقر الامر في نصابه ويشرف عليه السلطان

صلاح الدين حفظه الله .. هذا أمر قد تم الاتفاق عليه بيني وبينه . . .
وانما أطلب اليك ان تحتفظ بهذا القصر وانت فاعل ذلك . لكنني اخاف
ان يتمكن الاعداء من دخوله سراً فأرى ان تأمر بنقل اخت الخليفة منه
الى قصر آخر ليس فيه سراديب ... وأظن دار الضيافة افضل القصور
لهذا الغرض » قال ذلك وهو يتفرس في عيني بهاء الدين وينتظر رأيه
في ذلك

الفصل الخامس والثلاثون

الفرار

اما بهاء الدين فأظهر عدم الاهتمام وقال « لا أرى باعثاً على هذا
القلق يا ابا الحسن والخليفة لا يزال حياً »

قال « انما العاقل من فكر في الامر قبل وقوعه اما اذا وقع فلا فائدة
من التفكير اسمع .. اسمع . أليس هذا صياح النساء في القصر ؟ . يظهر
ان العاضد فارق الحياة .. مسكين » وأخذ يفرك كفيه ويبكي

أما بهاء الدين فلما سمع الصياح وقف والاهتمام باد في محياه . .
وأشار الى بعض الغلمان ان يمضي في مهمة وأومأ الى ابي الحسن ان يمكث
ريثما يعود وان لا يخرج قبل رجوعه . وتحول قراقوش الى مكان آخر في
القصر وقد علا الصياح وتحقق ابو الحسن موت الخليفة واصبح [illegible] القصر
على سيده الملك . وأسف لذهاب قراقوش ولم يعلم سبب ذهابه . فبعد في
تلك الغرفة وهو مطرق يفكر كأنه على الجمر . ثم سمع قرقعة اللجم وصهيل
الخيل فأطل من النافذة فرأى فرساناً يسرعون نحو القصر كأنهم [illegible]
به من كل ناحية فعجب لذلك [illegible] فاذا
بالغلام الذي كان قد [illegible] على [illegible] الملك في ذلك

القصر واقفاً يرتعد والبغتة ظاهرة في وجهه فصاح به « جوهر ! ما وراءك؟»

فقال « هلم يا سيدي .. انج بنفسك ؟ »

قال « الى اين ؟ » لا .. اني باق حتى ارى هذه اللعبة وآخذها .. ألم ترها ؟ »

قال « انج بنفسك يا سيدي .. انج .. ان الامر على غير ما تظن .. اخرج من هذه الغرفة قبل ان يتم النطاق حول القصر .. اخرج »قال ذلك وجرَّه بكمه واغتنم اشتغال الناس بالصياح والارتباك وخرج به من الغرفة . ولم يصدق انه صار خارج القصر وهو يلهث من الخوف فقال ابو الحسن وهو يطاوعه في المسير « الى اين انت ذاهب بي ؟ »

فاجابه وهو يسير الى ان يتبعه « تعال يا سيدي . وسأقص عليك الخبر انج بنفسك .. »

وما زالا يمشيان حتى بعدا عن قصور الخلفاء ودخلا بيتاً من بيوت العامة لا تقع عليه شبهة . وهو منزل لذلك الغلام كان يختبئ فيه عند الحاجة . فلما دخلا البيت اقفل الغلام الباب وقعد وقد امتقع لونه وابو الحسن يستغرب ذلك منه ولا يزال يعتقد ان الغلام مخطئ بوهمه اعتماداً على ما دار بينه وبين الهكاري

فلما استقر بهما الجلوس قال ابو الحسن « قل الآن ما الذي حملك على هذا الفرار ؟ »

قال « لو لم افر بك لكنت الآن في السجن »

فضحك ابو الحسن بتهكم وقال « في السجن ؟ هه هه ... هذا امر بعيد . ولا الومك على هذا الخوف لانك لا تعلم ما دار بيني وبين القوم في هذا الصباح .. »

قال « علمت كل شيء وعلمت ان تدبرك لم ينجح وان قراقوش

اللعين لما كنت انت في انتظاره بالقصر كان هو عنـد صلاح الدين ذهب اليه بامر مستعجل فامره ان يحيط قصور الخلفاء بالجند . وحالما يموت الخليفة يتحفظ على كل ما في القصور من النساء والاولاد والرجال والغلمان وكل شيء .. »

سمع ابو الحسن هـذا القول ولم يصدقه وقال « كيف عرفت ذلك ؟ ومن اطلعك على هذا السر يا جاهل ... لا يبعد ان يكون صلاح الدين قد أمر هـذا الطواشي ان يحتفظ بالقصور وما فيها وهو انما امره بذلك لئلا يتعدى عليها احد من دعاة الامامة سواي . ولا الومك على توهمك لانك لا تعلم ما تم الاتفاق عليه بيني وبينهم مما ساطلعك عليه في وقت آخر »

فقال « قلت لك يا سيدي اني مطلع على كل شيء .. وما انا جاهل كما تقول بل انا عاقل ساهر على مصلحة مولاي الشريف .. وقد تحققت ان صلاح الدين امر طواشيه هذا ان يقبض على من في القصر وان يبحث عنك بنوع خاص واذا كنت لا تصدق ارجع الى القصر وانظر ماذا تكون النتيجة »

فاطرق ابو الحسن وهو يرتعد من الغيظ واخـذ يعبث بلحيته وهو يراجع ما سمعه ويستغربه والغلام ساكت لا يبدي حراكاً ثم التفت ابو الحسن اليه وقال « يا جوهر ... هل انت واثق مما تقول ؟ »

قال « اني واثق تمام الثقة وان شئت ان تتحقق قولي اخرج متنكراً وانظر الجند يبحثون عن الشريف ابن الناس كما يبحثون عن سائر ابناء الخلفاء في قصر النساء . ولا أظنهم الا كشفوا امرنا ويعرفون علمنا ولو تنكرنا »

فلما تحقق ابو الحسن صدق كلامه وايقن بفشله حمي غضبه حتى صار صدره يرتفع وينخفض وهو يغلي كالمرجل . وادرك موقفه مع

غلامه واخذ يزمجر كالاسد ثم صار يرغي كالثعلب و يتظاهر بالتجلد والتفت الى العلام وقال « مالنا ولهم دعنا منهم .. لا اعلم السبب في نقمتهم عليّ ايضاً .. اني بذلت الجهد في خدمتهم .. من يا ترى سيخلف العاضد على كرسي الامامة ؟ »

فقال العلام « لا يظهر انهم سيولون احداً مكانه لانهم ينوون القبض على كل من بقي من اصحاب هذا المذهب ولذلك خفت عليك »

فعاد الى الاطراق واخذ في تدبير حيلة للانتقام لان فشله كان مزدوجاً — ذهبت آماله في الخلافة وأبعد ما بينه و بين سيدة الملك . لكنه لم يتشك انها ستندم عليه متى اكرهها صلاح الدين على ان تكون له

أما سيدة الملك فتركناها مساء الامس بعد ذهاب عماد الدين من عندها وقد ذهبت الى الفراش . ولكن النوم لم يزرها وتراكمت عليها الهواجس . وبكرت في الصباح للاستفهام عن أخيها فقيل لها انه مريض لكن الاطباء عنده ولا تقدر ان تراه وصبرت وهي تتوقع الاذن في رؤيته فلم تستطع ذلك الا بعد الظهر . فاذن لها وكان أحسن حالاً مما تظن فاطمأن خاطرها عليه وجعلت تخفف عنه وتطمئنه . وتذكرت مقاومتها له في ذينك اليومين بشأن خطبتها وتعب ضميرها لئلا يكون لمرضه علاقة بتلك المقاومة فندمت على ذلك

و بعد قليل ابئ العاضد بمجيء الطبيب والجليس فأشار الى سيدة الملك بالذهاب وطمأنها انه في خير . فعادت الى غرفتها وهي في قلق على أخيها ولم يطمئن خاطرها عليه . واتتها ياقوتة وسألتها فبكت وأغرقت في البكاء رغم ارادتها فظنت ياقوتة ان الخليفة مات فصاحت صياح الندب وسمعتها سائر الجواري فاقتدين بها فعلا الصوصاء وابو الحسن عند قراقوش فظنوا الخليفة مات كما تقدم وهو لم يمت

الفصل السادس والثلاثون

مقابلة هامة

وكان قراقوش قد استقدمه صلاح الدين في صحى ذلك اليوم على أثر ما جاءه به الهكاري من أبي الحسن وأنبأه بما علموه عن داخلية القوم وأوعز اليه أن يكون على حذر وأن يجعل الجند قريباً من القصور فاذا علم بوفاة العاضد أحاط القصور بالجند وبعث اليـه بخبر ذلك . ولا يأذن لاحد من أهلها بالخروج لاية علة كانت . وبهذه المناسبة جاء الى ابي الحسن والقبض عليه . فجاء قراقوش فرأى ابا الحسن عنده فاستبقاه حتى يرى ما يكون فلما سمع الصياح داخل القصر وظن الخليفة مات خرج لتدريب الفرسان وأمر أبا الحسن بالبقاء ريثما يعود . فلما عاد لم يجده هناك فبعث في طلبـه فلم يقف على خبره فأسف لنجاته وبث العيون للقبض عليـه وأخذ يهتم بارسال الخبر الى صلاح الدين بوفاة العاضد . ثم علم ان الخليفة لا يزال في قيد الحيـاة فسرّ لانه لم يتعجل في ارسال خبر الوفاة لصلاح الدين لئلا يأتي ويجد الخبر كاذباً فيوبخه . على انه أبقى الجنـد حول القصر ليرى ما يكون . فلما دنت الشمس من المغيب جاءه احـد الغلمان يقول « ان مولانا السلطان قادم بموكبه »

فخف قراقوش للقائه . فرآه تحول نحو قصر الذهب حيث يقيم الخليفة فاستغرب ذلك ومكث في مكانه لا يدري سبب مجيء السلطان في تلك الساعـة . واذا بصديقه الهكاري مشى نحوه فرحب به فسأله عن سبب قدوم السلطان فقال « لان العاضد طلب أن يراه » (١)

(١) كتاب الروضتين ١٩٦ : ١

فاستغرب قوله وصاح فيه « الخليفة طلب ان يرى مولانا السلطان ؟ »

قال « وما مكان الغرابة ؟ »

قال « أنت أدرى مني بمكانها .. وسترى السبب بعد قليل »

فدخل قراقوش وادخل الهكاري معه وجلسا ودار بينهما الحديث عن مقاصد صلاح الدين ودهاء نجم الدين ونحو ذلك

أما سيدة الملك فعلمت بعد قليل ان بكاءها وبكاء حاضنتها اشاعا خبر وفاة الخليفة فتشاءمت وسكتت ولكنها انزوت في غرفتها لا تريد أن ترى أحداً وقلبها يشتعل قلقاً على حياة اخيها فضلاً عن متاعبها الاخرى ولما غربت الشمس انقبضت نفسها وهي في انواع من الشدة كل منها يقبض النفس ويبعث على القلق . لكن ساعة الغروب زادتها انقباضا واصبحت شديدة الرغبة في رؤية أخيها واذا بالحاضنة أتتها مسرعة وقالت « ان سيدي أمير المؤمنين يطلب أن يراك »

فأجفلت لكنها فرحت وأسرعت في الذهاب . والتفت بمطرفها وخمارها ومشت في الدهليز والنور ضعيف لم يساعدها على تبين الوجوه . لكنها استأنست بأصوات بعض اهلها واستفهمت الحاضنة عما سمعته فقالت « انك تسمعين اصوات ابناء اخيك واخوتك . »

فاجفلت وتراجعت فقالت لها ياقوتة « ما بالك يا سيدتي »

وقالت « ما الذي جاء بهم الى هنا ؟ ماذا جرى ؟ هل من بأس على اخي »

قالت « انه بعث في استقدامهم كما بعث في استقدامك . »

فشعرت ركبتاها ترتعدان وقلبها يخفق تطلعاً لما عساه ان يكون من حال اخيها لانه لا يبعث في طلب اهله الا وهو في اشد حالات المرض .

ولما دخلت أولاد العاضد تقدموها وسعوا لها وانحنى اكبرهم داود ولي العهد

من عمته وقبل يدها فقبلته وهي تتماسك عن البكاء تشجيعاً له . وصلت الى باب الغرفة وركبتاها ترتعدان واذناها مصغيتان لعلها تسمع كلاماً تطمئن له فسمعت صوتاً استغربته لانها لا تذكر انها سمعته قبلاً . فالتفت بالحمار ووسع لها الحرسي وازاح الستار عن الباب والغرفة قد اضيئت فيها الشموع فارسلت نظرة الى الداخل فرأت اخاها مستلقياً على السرير وعلى وجهه دلائل الضعف الشديد . لكنه لما وقع بصره عليها ابتسم وسبقته العبرات فترامت سيدة الملك عليه ولم تلتفت الى أحد من الحضور وأخذت تقبله وتقول « لا بأس عليك يا أخي ويا سيدي .. لا بأس عليك »

فقبلها هو ولم يجب لكنها أحست بدموعه تتساقط على خدها فتجلدت ونهضت وهي تقول « لا باس عليك يا سيدي انك في عافية الحمد لله » والتفتت الى حولها فرأت الجليس السريف جاثياً بجانب فراش الامام . ورجلاً قاعداً على وسادة لم تكد تتفرس فيه حتى ارتعدت فرائصها وتذكرت انها رأت وجهه في بعض المواقف الرسمية من خلال المواكب وهو صلاح الدين . فأوشكت ان ترتبك بأمرها وتظهر الارتباك فيها فتجلدت ولم تشك ان صلاح الدين جاء ليخطبها

وكان سائر ابناء الخليفة قد دخلوا في أثرها الى الغرفة فأشار العاضد اليهم جميعاً ان يتقدموا فتقدموا فقبلهم واحداً واحداً وهو يبكي وصطره يفتت الاكباد . ولم يبق احد من الحضور الا بكى حتى صلاح الدين اما العاضد فأشار الى أبنائه بالجلوس واومأ الى سيدة الملك ان تقعد على وسادة بالقرب منه . فجلست وهي تحاذر ان يظهر وجهها لصلاح الدين

الفصل السابع والثلاثون

الوصاية

جلسوا والسكوت مستول على المكان مدة ثم تكلم العاضد ووجه خطابه الى سيدة الملك قائلاً بصوت ضعيف مضطرب متقطع « يا اختاه انت تعرفين منزلتك عندي . انك أختي وصديقتي ومرشدتي ..كم استشرتك وكم عولت على رأيك .. والآن وقد دنت الساعة وشعرت باقتراب الاجل والذهاب الى حيث التقي وجه ربي ... فاحببت أن اتوثق من حالك وحال ابنائي بعدي (وتوقف عن الكلام ريثما يستريح والجميع مطرقون ثم قال) وقد علمت بالاختبار ... ان ليس حولي من رجالي أو اهلي من اثق به واعول عليه بشأنكم ... وانت تعلمين ما كان في خاطري على السلطان يوسف صلاح الدين (وأشار بيده نحوه) وقد طالما شكوت لك من معاملته .. اعترف بذلك وانا في آخر ساعة من ساعات الدنيا واول ساعة من ساعات الآخرة ... اعترف اني شكوت من معاملته .. لكني لا اجد الان من اثق بقوله واتحقق انه فاعل ما يقوله سواه . لاني محاط باقوام مؤالسين غير مخلصين .. يتنافسون في ملكي ويتسابقون الى ابتزاز اموالي او نيل المراتب بالحيل والدسائس ... فبعثت الى السلطان وكلفته مشقة الحضور لاوصيه بكم خيراً » وأشار بانامله ان يمهلوه ريثما يستريح وسكت وهو يلهث

فاطرقوا وهم يمسكون انفاسهم ويكتمون ما يتردد في آماقهم من الدمع لا يلتفت احدهم الى الآخر تهيباً من منظر الخليفة وتطلعاً لما سيقوله . ثم عاد العاضد الى الكلام ووجه خطابه الى صلاح الدين قائلاً « ه لم

يا صديقي اختي سيدة الملك التي بعثت تخطبها ... وهؤلاء ابنائي وكبيرهم داود هذا . . اني تارك امرهم اليك خوفاً من ان يصيبهم مكروه بعدي . واشهد عليك الله ان تأخذ بناصرهم . فهل تعدني انك فاعل ما اقول ؟ »

فلما سمعت سيدة الملك ذكر الخطبة في اثناء كلام اخيها اختلج قلبها خوفاً ويأساً لئلا تكون اذا مات اخوها رهينة أمر صلاح الدين ولا سيما بعد هذه الوصية . ثم سمعت صلاح الدين يجيب اخاها قائلاً « انت يا امير المؤمنين في خير وعافية باذن الله ولا بأس عليك يدعو الى الاهتمام بالتوصية ... فانك مبلٌّ من هذا المرض قريباً ان شاء الله . اما وقد ذكرت امر الوصاية فاعلم يا سيدي ان الخادم (يعني نفسه) قائم بما أوصيت به وليكن المولى اعزه الله على ثقة من هذا الوعد ان اهلك هؤلاء لا يصيبهم سوء ما دمت في قيد الحياة ولك عليَّ عهد الله بذلك »

فلم تجد سيدة الملك ذكراً لها في هذا الجواب فايقنت انها واقعة في ما تخوفه فعظم عليها الامر فضلاً عما هي فيه من القلق على حياة اخيها فاخذت بالبكاء رغم ارادتها وارادت الخروج تخفيفاً عن اخيها فمد يده وقبض على يدها ليجلسها فاحست بارتعاش يده فاقشعر بدنها وقعدت وهي تنظر اليه فرأته ينظر الى صلاح الدين وعيناه دامعتان والدمع يغشاهما . وكأنه اراد الكلام فامتنع عليه فاشار باصبعه الى اخته . ففهم صلاح الدين انه يوصيه بها فاجابه حالاً « كن مطمئناً على سيدة الملك انها اختك ونعم الاخت [illegible] لكنها ايضاً اختي وحسبي الله [illegible] وكفى »

فلما سمعت [illegible] انها [illegible] ما هي فيه من اليأس والحزن وتحققت ان [illegible] لا [illegible] ان صلاح الدين [illegible] اخيه الا وقد عدل عن التزوج بها وهو [illegible] . لا سيما وقد [illegible]

خاطرها من هذا الوجه وقد شغلت عن الخطر الملم باخيها فاذا هو يسعل وينتفض في فراشه من شدة الرعشة . وهي نوبة عصبية توالت عليه في ذينك اليومين . فنهض الجليس واسرع يدعو الطبيب المسيحي السديد من غرفة اخرى . فدخل الطبيب واشار الى الحضور ان ينصرفوا من المكان ليعالج المريض بما يراه فنهضوا جميعاً . ومشى اولاً صلاح الدين مشية الاسد وسيدة الملك تراقبه واحست من تلك الساعة انها تحبه حب الاعجاب وهي من طبعها تعجب برجال المروءة والنجدة وهو ما بعثها على حب عماد الدين كما علمت . فاحست بارتياح الى صلاح الدين واطمئنان الى رؤيته . ثم اومأ اليها الجليس ان تنصرف الى قصرها وكذلك سائر الحضور من اهلها

الفصل الثامن والثلاثون

ياقوتة

فانصرفوا وتزودت سيدة الملك بنظرة من أخيها وخرجت وقلبها مطمئن وقد نسيت حزنها على حاله أو شغلت عنه . وكانت خاصتها تنتظرها في الدهليز وتتوقع ان تراها باكية وخصوصاً لما علمت بوجود صلاح الدين هناك فأخذت تتأهب للتخفيف عنها . فاذا هي مسرورة الوجه رغم ما يجول في عينيها من الدمع وبرغم ما ظهر في أحداقها من الذبول فقبضت على يدها ومشت معها فعلمت من خطواتها وحركاتها انها فرحة وما صدقت انها وصلت الى قصرها ودخلت غرفتها حتى ابتدرتها قائلة « كيف سيدي أمير المؤمنين ؟ ارجو ان يكون في صحة »

فقالت وهي تنزع الخمار عن رأسها « انه في غاية الضعف وقد داهمته الآن نوبة شديدة أوجبت امر الطبيب باخراجنا من عنده لمعالجته .

وكان قبلها ضعيفاً يقطع الكلام تقطيعاً .. »

فقالت « شفاه الله .. من كان عنده وأنت هناك ؟ » قالت ذلك وهي تراقب ما يظهر منها

قالت « كان هناك السلطان صلاح الدين الملك السهم .. » وسكتت

فقالت ياقوتة « لماذا سكتِّ وكيف عرفت انه سهم ؟ يظهر انك وصفته قبلاً لانك لم تكوني تعرفيه جداً اما الآن عند المشاهدة فقد تبين لك انه يستحق حبك » واظهرت المداعبة ثم قالت « لكنني لم اعلم سبب حضوره عند امير المؤمنين في هذا اليوم ألعله جاء لاتمام طلبه وعقد الخطبة ؟ » قالت ذلك وهي تساعدها في نزع المطرف عن كتفيها

قالت سيدة الملك وهي تنظر في المرآة لتتحقق حال وجهها « ان اخي بعث اليه »

قالت « امير المؤمنين بعث اليه ؟ ولماذا ؟ »

فتذكرت الخطر على حياة اخيها فانقبضت نفسها وقالت « بعث اليه ليوصيه بنا خيراً . »

فبغتت ياقوتة من هذه المفاجأة وقالت « يوصيه بكم خيراً ! من تعنين ؟ »

قالت « اعني انا وابناء اخي واخوتي . لان اخي شفاه الله ايقن انه لا يقوم من هذا المرض واعترف انه لا يجد من رجاله من يثق به ليوصيه بنا غير صلاح الدين فبعث اليه واوصاه بنا . »

فهمت ياقوتة الى المداعبة لتسلي سيدتها عن الحزن وقالت « طبعاً ان صلاح الدين راضٍ امير المؤمنين على طاعته لانه مطالب بحماية الخليفة بواجب الطاعة » وابتسمت وعيناها تراعيان عيني سيدة الملك لترى ما تدلان عليه

فابتسمت سيدة الملك والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « بل هو قال انه يفعل ذلك بحكم الاخوة واس المصاهرة »

فاستغربت هذا التعبير وقالت « بحكم الاخوة ؟ وأي اخوة يا سيدتي »

قالت « لما اوصاه أخي بي فلكي يؤكد له العمل بوصيته قال له « كن مطمئنا على سيدة الملك انها اختك وهي ايضا اختي بعهد الله وكفى »

فلم تتمالك ياقوتة عند ذلك من ضم سيدة الملك الى صدرها واخذت تقبلها وتقول « ان مصيبتنا بمرض سيدي امير المؤمنين كبيرة واذا اصابه سوء لا سمح الله فان المصيبة تكون اعظم كثيراً . ولكن في ظلمات هذه المصائب المدلهمة نوراً قد انار قلبي واخرجني من ديجور اليأس لان اكبر همّ كان علي من جهتك انما هو طلب صلاح الدين خطبتك وانت لا تريدينه لانك عالقة القلب بعماد الدين — وانا اعلم سلطة صلاح الدين وانه اذا اراد امراً لا يقدر احد على رده . وقد قلت الآن انه تخلى عن الخطبة وتعهد بحمايتك كانك أخته .. فاطمئني يا سيدتي ولا يهمك سعي الساعين او وشاية الواشين .. »

فعلمت سيدة الملك انها تعني ابا الحسن فاجابتها بعينيها وكل جوارحها موافقة على قولها لكنها انتبهت فجأة الى حال اخيها فعادت الى الانقباض ولطمت كفيها وقالت « ويلاه ان اخي في حال اليأس من الحياة .. ماذا اعمل . كيف يصير أمرنا اذا مات .. » وعضت بنانها وعادت الى البكاء وأخذت ياقوتة تخفف عنها

قضت معظم ذلك الليل بالقلق ولم تفق الا صباحاً على اصوات النعاة . ولم يتم خبر موت أخيها وقعاً غريباً عندها لكن وقعه كان شديداً . ولم يمض يسير حتى تعالى الصياح في القصور واجتمع الوزراء ورجال الدولة

والكتاب وغيرهم وغص قصر الذهب وسائر القصور بالناس . وأراد اهل الخليفة اقامة مأتم يليق بالخلفاء وهمّ رجال الدولة أن يبايعوا لداود ولي العهد واذا بالقصور قد أحاط بها رجال صلاح الدين . ثم جاء بهاء الدين قراقوش الى الجامس الشريف وقال له « ان السلطان يتقدم اليكم أن تعملوا المأتم مختصراً خوفاً من وقوع القلاقل ومن مات فقد مات ولا يجدي الصياح والعويل نفعاً »

فلم يسع القوم الا الاصغاء والرضوخ وخصوصاً بعد ما شاهدوه من استقدام الخليفة لصلاح الدين بالامس وان لم يعلموا تفصيل ما دار بينهما . وانما دلهم استقدامه على رفع منزلته عنده . ومهما يكن من الامر فالقوة غالبة وجند صلاح الدين قابض على المدينة بيد من حديد . فادعن القوم الى أمره

الفصل التاسع والثلاثون

قراقوش

أما سيدة الملك فلعها التشديد بمنع أهل ذلك القصر من الخروج ورأت الجند محدقاً به من كل ناحية فاكتفت بالبكاء وهي في غرفتها فندبت أخاها وبكته والخاصة من بعدها تبكي معها

وهما في ذلك سمعا دقدقة في باب الغرفة فخافت سيدة الملك فنهضت ياقوتة وهي تقول « لا تخافي يا سيدتي. بعد ان ملك صلاح الدين أخته » ولم تصل الى باب الغرفة حتى سمعت قارعا يقرعه بلطف فسرّي عنها وفتحته فرأت قراقوش واقفاً باحترام وهو يقول « هل مولاتنا سيدة الملك هنا ؟ »

قالت « نعم مادا تريد منها ؟ انها في أشد حالات الحزن »

قال « اريد أن اعزيها واطمئنها واطلب اليها أن لا تهتم بما قد تراه من دخول بعض الناس الى هذا القصر او خروجهم منه . واحب ان اسألها مسألة »

فصاحت سيدة الملك من الداخل « تفضل يا استاذ مادا تريد ؟ »

ودخل قراقوش وهو ينظر اليها نظر الاستعطاف فالتفتت اليه وقالت « ما وراءك الآن ؟ ماذا تريد . ها ان أمير المؤمنين قد مات .. فليسكن روعك وروع اصحابك .. » وغصت بريقها

فجثا قراقوش بين يديها قائلا « ان موت أمير المؤمنين قد ساءني يا سيدتي لكنه جرى بقضاء الله ولا مرد لقضائه . وانما جئت الآن لاخبرك ان مولاى السلطان امرني ان اقبض على ما في هذه القصور من الاموال وخصوصا ما في هذا القصر من النساء وهن كثيرات كما تعلمين . وانما استثنى منهن سيدتي اخت امير المؤمنين ومن شاءت ان يصحبها من اهل هذا القصر من غير اهلها و .. »

فقطعت كلامه قائلة « وماذا تعملون بأهلي .. أين هم ؟ »

قال « لا بأس عليهم لان المولى الراحل رحمه الله قد أوصى السلطان بهم خيراً وهو عازم على نقلهم من هذا القصر الى قصر آخر يكونون فيه تحت رعايته لا بأس عليهم وخصوصا مولاتي سيدة الملك فمن تريدين ان يخرج معك من الاتباع أو الخدم او تحمليه من الاثاث والآنية أو غير ذلك ؟ »

فاطرقت وقد كبر عليها الخروج من ذلك القصر . ومع اطمئنانها بما ستناله من الرعاية عند صلاح الدين لم تتمالك عن النفور من هذا الامر وقالت « تخرجوننا من قصورنا وماذا تفعلون بمن فيها من النساء والرجال

والاطفال فانهم يعدون بالآلاف »

قال « يا سيدتي ان مولاي صلاح الدين سيعمل بما لا يمس كرامة أحد . فمن كانت من الجواري ذات بعل اطلقها مع بعلها ومن كانت حرة ولا بعل لها اطلق سراحها . واما الجواري غير الحرائر فيهبهن لبعض رجاله . اما اهـل الخليفة فانهم سيقيمون نساء ورجالا في غاية الاكرام والحفاوة تحت عنايته ويفرق فيهم الاعطية والالبسة والاقوات بحيث لا ينقصهم شيء كأنهم في قصورهم في حياة الخليفة رحمه الله . ولا سيما سيدتي فانها ستنال كل رعاية هي ومن معها .. »

فقطعت كلامه قائلة « وماذا تفعلون بولي العهد داود ألم يبايعوه ؟ »

فبلع ريقه وقال « لا أظنهم يبايعون احداً فان السلطان نور الدين مولانا الاكبر قد امر ان نبايع للمستضيء بالله العباسي .. ولا يكون على الارض خليفتان . على اني لا ارى الخلافة الا همّاً لصاحبها وخطراً عليه ولا فائدة منها . اسمحي سيدتي عذراً في اختصار الحديث لاني مضطر للاشتغال بتنفيذ أوامر مولاي السلطان بالقبض على ما في هذه القصور كما قلت لك . فاخبريني ما الذي تريدين ان احتفظ به لك » قال ذلك ونهض واظهر أنه يريد الخروج فقالت « اريد ان تصحبني هذه الخادمة وهي تخبرك بما أريد ان آخذه من الأثاث أو الثياب . » وحولت وجهها عنه »

فأتمت ياقوته كلامها قائلة « دعوا [illegible] الغرفتين اللتين الى جانبنا لا يمسهما احد وانا اهيئ فيهما ما يجب [illegible] بإذن الله فيأذن أستاذ . »

فتحول قراقوش وخرج فلما خلت ياقوته بسيدة الملك قالت لها « الحمد لله ان صلاح الدين قائم برعاية [illegible] أراك تناقش في السؤال وتسهر [illegible] عدم المبايعة لسيدي داود [illegible]

من بقي من اهل الخلافة كما فعل غيرهم في مثل هذه الحال . ألم يأمر ابو العباس السفاح بقتل كل من بقي من بني أمية حتى لا يبقى واحد منهم يطالب بالخلافة ؟ ولو امر صلاح الدين مثل هذا الامر من يقدر على رده .. أم تظنين ذلك المغرور أبا الحسن يرده لعنة الله عليه »

فلما سمعت ذكر أبي الحسن أحست براحة لأنها نجت من حبائله في ظل صلاح الدين ونشطت للخروج فقالت « اعدي ما نحتاج اليه من أخف المتاع واحفه . . . » قالت ذلك وتنهدت . وأخذت ياقوتة تهتم بذلك . وكان يومهم هذا من أعظم أيام الشدة لأنهم في يوم الانتقال من دوله الى دوله

الفصل الاربعون

آخر الدوله

أما قراقوش فانه قبض على ما في تلك القصور من النساء وعرضهن على صلاح فوجد اكثرهن من الحرائر فاطلقهن . وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن في رجاله وأخلى تلك القصور من الناس . وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه والخواص من مماليكه واوليائه من الذخائر وغيرها . وأخذوا من الجواهر والمصوغات ما يحصره وصف ويكتفي بقول عمارة مؤرخ الدولتين في تعداد ما استولوا عليه منها قال « واخلى دوره (دور العاضد) واغلق قصوره وسلط جنوده على الموجود وابطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود وأخذ كل ما صلح له ولاهله وامرائه ولخواص مماليكه وأوليائه من احائر الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والأسرة المنيفة والمأعونة النافعة العالية الهمة والمصوغات

التبرية والمصنوعات العنبرية والاواني الفصية والصواني الصينية والمسوحات المغربية والممزوجات الدهبية والمحوكات الصاريه والكرائم والتمائم والعقود والتمائم والمقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمسدود والمنعوت والمنحوت والدر والياقوت والحلى والوشي والعبير والجبر والوبير والسير والعيني واللجيني والبسط والفرش وما لا يعد احصاء ولا يحد استقصاء فوقع فيها الفناء وكشف عنها الغطاء واسرف فيها العطاء واطلق البيع بعد ذلك في كل حدث وعتيق وبايس وسحيق وبال وابال ورخيص وغال وكل منقول ومجهول ومصنوع ومعمول واستمر البيع فيها عشر سنين وتنقلت البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين » اه[1]

اما أهل الخليفة فنقلهم صلاح الدين الى دار برجوان في الحارة المنسوبة اليه واختص سيدة الملك بالاكرام والحفاوة

وكانت مصر الى ذلك اليوم خلافة مستقلة تدعى على منابرها لخليفتها الشيعي العاضد لدين الله فامر صلاح الدين ان تتحول الخطبة للمستضيء بالله الخليفة العباسي كما كان نور الدين قد طلب منه على يد ابيه نجم الدين. وكان قد اعتذر له في التأجيل خوف الفتنة والواقع انه اجلها ليستعين بذلك على نور الدين اذا اراد ان يأخذ مصر منه بالقوة. فيأخذ هو جانب العاضد ويتقوى به وبالمصريين على دفع عسكر الشام. فلما تأكد ضعف العاضد وتحقق اشتغال نور الدين عن مناهضته عزم على اقامة الخطبة العباسية مطهراً بالطاعة لنور الدين فلم يجسر احد من العلماء ان يبدأ بذلك الا رجلاً اعجمياً اسمه الامير العالم تصدى للخطبة. فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر ودعا للمستضيء العباسي فوافقه الناس ولم ينكروا ما فعله فكتب بذلك الى سائر بلاد مصر. وكان هذا في ابتداء استبداد الرجل على العاضد.

(١) كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٠

وتوفي ولم يعلم به . فاصبحت مصر بذلك تابعة لبغداد من حيث الخلافة من سنة ٥٦٧ هـ ومنعوا ابناء العاضد وسائر الرجال من اهله عن الزواج حتى لا يعقبوا نسلاً يطالب بالخلافة

الفصل الحادي والاربعون

الهواجس

اما سيدة الملك فلما رأت نفسها في قصرها الجديد في دار برجوان انكرت ذلك الانتقال. ولما بلغها تحوُّل الدعوة للعباسيين تحققت ذهاب دولة العلويين فشق ذلك عليها كثيراً فضلاً عن وفاة اخيها . فقضت اياماً وهي معزوية في غرفة من قصرها لا تكلم احداً الا ياقوتة تتردد اليها لتخفف عنها ومهما يكن من مشاغلها المتقدم ذكرها فان امرها مع عماد الدين كان غالباً عليها . وقد فارقته في تلك الليلة المهولة وهي بين الشك واليقين من امره . وكانت وهي في ابان احزانها تود ان تفاتحها ياقوتة بحديثه لعلها تسمع ما يقوي املها بلقائه وياقوتة لا تفعل ليس عن تهيب ولكنها كانت ترى اشتغال سيدتها بحب ذلك الشاب من قبيل العبث وتود ان تنساه وتتحوَّل عنه ولا ترى من الحكمة ان تفاتحها بذكره او ان تحمل ذكره من اسباب اطمئنانها وراحتها

على انها كانت قد استأذنت صلاح الدين في الخروج للتنزه في البساتين ولم يكن يؤذن بذلك لسواها من اهل الخليفة ولكن صلاح الدين كان كثير العناية بسيدة الملك والاحترام لارادتها قياماً بعهده لاخيها وكان ذلك اكبر أسباب تعزيتها على مصائبها . على انه شغل عنها مدة بالحروب في الشام وتوفي في اثناء ذلك ابوه (سنة ٥٦٨ هـ) وحدثت امور اخرى شغلته عنها لكنه كان يوصي بهاء الدين قراقوش بها

مضت مدة لم تسمع فيها شيئا عن عماد الدين ولا هي تعرف مقره ولا مصيره ولا ترى باباً للسؤال أو البحث وسدف صدرها واستولى عليها القنوط وتغلبت عليها السويداء وأصبحت لا تفرح بنزهة ولا ترتاح الى حديث . وقل طعامها وتكاثر ارقها فأخذت في الهزال وياقوتة تبذل جهدها في تسليتها وكلما رأت ضعفها وانقباضها تحيرت في أمرها وكانت تظن طول غياب عماد الدين ينسيها اياه ولما لم تعد تسمعها تذكره ظنتها نسيته لكنها ما لبثت ان أدركت خطأها ذات ليلة وهي نائمة في غرفة مستطرقة الى غرفتها اذ افاقت على صوت سيدة الملك وهي تناديها « ياقوتة ياقوتة ! »

فوثبت من فراشها الى فراش سيدتها فرأتها قد قعدت على السرير وشعرها منفوش وتغيرت سحنتها وبرقت عيناها وصاحت « مولاتي حماك الله ماذا تريدين ؟ »

فقالت « عماد الدين . . عماد الدين اين هو ؟ سمعته يناديني »

فقالت « أين هو ياسيدتي ؟ انه ليس هنا . . انك ترين حلماً . ألا تعلمين انه مسافر ؟ »

فأزاحت شعرها عن جبينها وتفرست في ما حولها وعيناها تدلان على اضطرابها وارتيابها وقالت « انه مسافر آه . ما أطول هذا السفر . . اني سمعت اسمه في الحلم [illegible] بالأمس طالت نائمة لعلي أسمع ذكره مرة ثانية او ربما تراءى لي طيفه . » قالت ذلك واغرقت في البكاء

[illegible] ياقوتة عليها وأخذت [illegible] وتقول « ماذا جرى فداك ياسيدتي . ماذا [illegible] أين [illegible] [illegible]

[illegible] لا [illegible] التعقل والحكمة . لا تحملي [illegible] الله [illegible]

لم أعد أحب التصريح بما في [illegible] . [illegible] كان

يقتلني . . تدبري الامر واسعفيني . . آه ياعماد الدين . . » وعادت الي البكاء

فجثت ياقوتة بين يديها وقالت «هوني عليك يا مولاتي واتكلي عليّ . لماذا لم تفاتحيني بهذا الامر من قبل ؟ »

قالت « وما الفائدة من الكلام ؟ . ها اني قد كلمتك اخبريني أين عمادالدين ما العمل للوصول اليه . ألم تعلمي مقره . ألم تسألي أحداً عنه ؟ قولي »

قالت وهي تمسح دموع سيدتها بمنديلها « نعم سألت عنه وقد علمت من الاستاذ بهاء الدين قراقوش انه سار بمهمة سرية اذا نجح فيها صار رجلا عظيما يليق بسيدة الملك . . وهذا امر ذو بال ياسيدتي . لأن بنت الخليفة واخت الخليفة لا يليق بها ان تتزوج بواحد من عامة الناس و و . . . »

فقطعت كلامها قائلة « لا تقولي خليفة ولا عامة . اني اسيرة في هذا القصر وهو طليق . . وقلبي اسير ايضا ولا ادري اذا كان قلبه كذلك . . » وشرقت بدموعها

فاخذت ياقوتة تضمها وتمسح دموعها وتقبلها وتقول « خففي عنك ياسيدتي . . وارجعي الى رشدك . . واصبري . . لنرى ماذا نعمل »

قالت « ماذا نعمل قد طال غيابه ولا أدري ما اصابه . . »

قالت « لم يصبه سيء ولا بد من عودته ظافراً ويصير من كبار الرجال واذا علم صلاح الدين بميلك اليه زاده رفعة وتقدماً . . يظهر انك نسيت هذه النعمة . . نسيت التفات صلاح الدين اليك ومعاملته اياك معاملة الاخ لاخته . . ؟ »

قالت « كلا لم أنس ذلك ولولاه لقضيت حزنا وكآبة . . ولكن ما الذي اسمعني اسم عماد الدين في هذه الليلة ؟ »

قالت « لعلّ ذلك فاتحة القرب تمهلي الى الغد لنرى ما يكون . . . »
واشارت اليها ان تعود الى الرقاد فاطاعتها ونامت وانصرفت ياقوتة الى
غرفتها وهي تفكر في سيدتها وقد ندمت لسكوتها عن ذكر عماد الدين كل
هذه المدة على انها اعتقدت ان سيدتها لم تسمع اسم عماد الدين عبثاً وانه
لا بد من شيء يحدث بشأنه

وقد تحقق ظنها في صباح اليوم التالي اذ جاءها قراقوش يقول « ان
السلطان صلاح الدين قادم بعد قليل لمقابلة سيدة الملك . . »

فبغتت لكنها توسمت بتلك المقابلة خيراً — وصاحب اليأس يتوسم
من كل حديث فرجاً فقالت « هل طلب مولانا السلطان ان يقابل سيدتي
ويخاطبها ? انه يفعل حسناً لانها منقبضة النفس وهي يائسة برؤيته . . انا
ذاهبة لاخبرها بقدومه » ومضت اليها

الفصل الثاني والاربعون

المكيدة

وكانت سيدة الملك قد نهضت من الفراش وهمت ان تستدعي ياقوتة
فلما دخلت عليها قرأت البشر في محياها فخفق قلبها وقالت « ما وراءك ? »

فقالت وهي تبتسم « لعل الفرج قريب . . ان السلطان صلاح الدين
آت لمشاهدتك »

قالت « هو طلب ذلك من تلقاء نفسه ? » وتوردت وجنتاها من البغتة
قالت « نعم يا سيدتي فلعل عنده خبراً يسرك . . قومي والبسي ثيابك »
فنهضت وساعدتها ياقوتة في اللبس فارتدت ثوباً بسيطاً واصلحت
شعرها وتخمرت وخرجت الى قاعة الاستقبال وركبتاها ترتعشان من التأثر

و بعد قليل سمعت وقع خطوات في الدار واذا بهاء الدين قراقوش قد دخل وهو يقول « ان مولانا السلطان قادم . »

فتهيأت سيدة الملك لملاقاته ثم دخل صلاح الدين وهو يتلطف في القاء التحيه فهمت بالنهوض له فأشار اليها ان تقعد وهو يبتسم وقال « اجلسي يا اختي . . . قد ابطأت في زيارتك هذه المرة لغيابي عن مصر . . كيف انت ؟ ارجو ان تكوني في خير »

فلما سمعته يناديها بالاخوة انبسطت نفسها وقالت « طالما كنت مشمولة برضى السلطان صلاح الدين فانا في خير الحمد لله . . . »

قعد صلاح الدين على وسادة بين يديها وهو يشير الى قراقوش ان يقعد . وظلت ياقوتة واقفة فقال صلاح الدين يخاطب سيدة الملك . ارجو ان تكوني حائزة على اسباب الراحة في هذا القصر »

قالت « نعم اني من نِعم السلطان لا ينقصني شيء من اسباب الراحة لان الاستاذ بهاء الدين لا يدخر وسعاً في هذا السبيل . . ويكفيني من اسباب السعادة ان يدعيي السلطان صلاح الدين اخته »

قال « فاذا كنت راضية عن هذه الاخوة لم يبق باعث لوضع هذا النقاب على محياك . » وضحك

فازاحت النقاب عن وجهها وقالت « نعم صدقت » واطرقت حياء

ورأى صلاح الدين الضعف في وجهها فقال « اراك منحرفة المزاج ياسيدة الملك هل تشكين من شيء ؟ »

فسكتت وظلت مطرقة فالتفت الى ياقوته فعلمت انه يستفهمها عن سبب ذلك التحول فقالت « انها لا تشكو ألما ولكنها منحرفة المزاج قليلا . . »

قال « لا بأس عليك يا اخية . . وارجو ان لا اكون قد ثقلت بهذه الزيارة . واعاجلني عليه الاطمئنان عنك . . ولكني اسألك عن امر

لا احب ان يطلع عليه سواك واظنك اعلم الناس به »

فتطلعت الى معرفة مابريده وقالت » اني رهينة ما تريد ياسيدي » وشخصت في وجهه لترى ما بريده

فالتفت يميناً وسمالا كأنه يتحقق خلو المكان من الغرباء وقال « انت تعلمين ان اخاك رحمه الله اوصاني بك وسائر اهلك خيرا واطنني قمت بواجب الوصية . »

فاشارت بعينيها ورأسها ان « نعم »

فقال « واظني لم اقصر ايضاً في توخي كل وسيلة لاسعاد حال هذه البلاد من كل وجه . ورفعت كثيراً من المظالم التي كانت في عهد الدولة الماضية وقد اتاها الذين كانوا محيطين بالمرحوم اخيك وكنت اظن هذا كافياً لاجماع اولئك القوم على الطاعة . . . » وسكت

فقالت « اظنهم مجمعين . لان مولانا السلطان لم يدخر وسعاً في تخفيف الضرائب واجراء العدل »

قال « وكان في امكاني لما تحولت هذه الدولة الى يدي ان اقتل كل من كان من الامراء والوزراء على رأي الدولة الماضية لكني لم أفعل ذلك رغبة في ان يعرفوا لنا هذا الفضل .. »

فاستغربت قوله وتوسمت من ورائه شيئاً جديداً وأشارت بعينيها كأنها تستفهم عما حدث فقال « ولكني علمت ان هؤلاء الامراء والاعيان يتآمرون علينا . »

فرفعت بصرها وقالت « يتآمرون على السلطان ؟ »

قال « نعم . . ولو تآمروا فيما بينهم فقط لهان امرهم لكنهم يستعينون علينا بالاعداء . . انهم يخابرون اعداءنا الافرنج من ساحل الشام وصقلية يحرضونهم على مناوأتنا ليتاح لهم القيام علينا او نخرج هذه البلاد من أيدينا »

قال ذلك وقد بان العصب في غنة صوته »[١]

فاحفلت وقالت « يتواطأون مع الافريح على سلطانهم ! يا لهـا من خيانة .. » وأطرقت لحظة ثم قالت « هل توثق سيدي من هذا الخبر ؟ »

قال « اني واثق تمام الثقة مما أقول . لان حبرهم جاءني من رجل اثق به وثوقي بنفسي .. قبحهم الله .. اذا كانوا يعدون خروج الدولة من الخلافة العبيدية الى العباسية سراً وكلاهما اسلاميتان فكيف بانتقالها الى الافرنج وهم اعداؤنا الالداء مذهباً ووطناً . فبدلاً من أن نتعاون على صيانة بلادنا منهم ندلهم على عوراتنا ونحرصهم على فتح بلادنا ؟ هـل رأيت اضعف رأياً من هؤلاء . ألا يحلّ قتل الساعين فى دلك ؟ » قال هذا وقد ارتفع صوته وأبرقت عيناه رغم ما حاوله من تلطيف غضبه بين يدي سيدة الملك وقد عمت تعتوبه بحكه

اما هي فانهـا شاركته في الغضب وأحست بنوع من الخجل لان الذين قاموا بتلك المؤامرة من رجال أخيها فقالت « نعم .. انهـا خيانة عظيمة . ولـكنني استغرب وقوع مثل هـذا العمل من قوم عقلاء .. فربما كان الساعون فيه من بعض العامة الجهلاء »

قال « انهم من اكبر الامراء والاعيان وفيهم رجل يزعم انه من سلالة العبيديين اقربائكم . ولم نوفق الى القبض عليه مع من كان في القصر منكم . وحسبناه اكتفى بالنجاة من القتل واختفى لـكنه الآن من اكبر المحرضين على هذه الخيانة .. أظنك عرفته . ولولا دخوله في هذا الامر لم اتعبك في شرح هذه الواقعة . وانما أردت الاستعانة بك في استطلاع حاله لعلك تعرفين عنه شيئاً لانه كان أقرب المقربين لاخيك رحمه الله .. حتى انه كان طامعاً بولاية العهد بعده .. أظنك عرفته .. »

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ١١

فعلمت سيدة الملك انه يعني أبا الحسن فامتقع لونها غضباً وقالت « عرفته نعم .. أظنك تعني ذلك الشريف الكاذب .. انه يدعي النسب فينا وليس هو منا ... ألا تعني أبا الحسن ؟ »

قال « اياه اعني . انه من اكبر المنافقين الخائنين لانه جاءنا والمرحوم العاضد على فراش الموت وتوسل الينا في نقل ولاية العهد اليه على ان يكون عوناً لنا في كل شيء فلم نوافقه . فانقلب الى دس الدسائس ونصب الحبائل فأطاعه جماعة من المارقين وسنسأل كل منهم جزاءه ... وانما التمس منك أن ترشدينا عما تعلمينه من مكان ابي الحسن » قال ذلك وهو يتلطف في السؤال بخفض صوته

فظلت ساكتة وقد تمنت أن يكون ما يقوله صلاح الدين صحيحاً ليقع ابو الحسن في شر أعماله وتتخلص منه وأحبت ان تتحقق صحة تلك الدعوة فقالت « نعم أعرف بعض هذا الرجل وسوء حاله ومطامعه وسألت عن مكانه .. ولكني أرجو ان يكون سيدي على ثقة من الخبر واذا شاء أن يزيدني بياناً فانه يعينني على البحث »

قال ان هذا الخبر تلقيته من عدة مصادر فشككت فيه حتى اتاني اليوم كتاب من رجل لا أشك في صدقه كتب الكتاب بخطه وقد وصلني في فجر الامس سراً وقد ارسله الافرنج الموالون لاولئك الخائنين بحجة انهم يحملون الى هدية من بعض ملوكهم وهم انما يحملون في مقدمة تلك العصابة ليتموا المكيدة وهذا هو الكتاب اذا طالعته اغناني عن زيادة الايضاح » قال ذلك ومد يده الى جيبه واستخرج رسالة دفعها الى قراقوش ليقرأها

الفصل الثالث والاربعون

نص الكتاب

ففتحها بهاء الدين وأخذ يقرأ « اكتب هذا الكتاب الى مولاي السلطان وانا في اعماق السجن في بيت المقدس . لا يسعني الوقت لتفصيل سبب سجني فان الكلام فيه يطول وانما اسرعت الى كتابته لانقل الى مولاي خبراً هاما عرفته عن ثقة وأخاف اذا تأخر وصوله ان ينتهي عما اكره وقوعه — علمت بعد خروجي من مصر بموت العاضد وانتقال الدولة الى مولاي السلطان وسمعت وانا في هذا السجن ان بعض رجال تلك الدولة يجتمعون سراً في الفسطاط يأتمرون على اخراج هذا الامر من حوزته . وقد خابروا الافرنج في هذه الديار على أن يهاجموا مصر بجند كثيف يجمعونه من هنا ومن صقلية وان أهل مصر يكونون معهم على جندكم . وان اولئك المؤتمرين يرأسهم رجل من العلويين اسمه ابو الحسن وهو الذي أغرى الناقمين على هذه الدولة فوافقوه واستنجدوا الافرنج . وقد وافقهم الافرنج وأخذوا يتأهبون لهذه الحملة وهيأوا جماعة بصورة وفد يحمل هدية الى السلطان صلاح الدين من ملك الافرنج لكنهم بالحقيقة يريدون الاجتماع بتلك العصابة واتمام المؤامرة . وقد وفقني الله بواسطة صديق لي هنا ان اطلع على ذلك وان أرسل هذه الرساله مع حامل هذا الكتاب وهو بحسب الظاهر من حملة خدم الوفد أو هو دليلهم في الطريق فدفعت اليه هذا الكتاب فاذا وصل اليكم ادفعوا الى حامله مئة دينار واكرموه — اما أنا فلا أزال هنا وسأبقى حتى يتاح لي الخروج للقيام بالمهمه التي رهنت حياتي للقيام بها في خدمة مولاي السلطان — وأنا ظافر بها باذن الله فاما ان أعود اليكم فائزاً منصوراً أو أموت في هذا السبيل فداء لمولاي لان

حياتي وحياة كل رجاله مبذولة في خدمته .. »

وكانت سيدة الملك تسمع الكتاب ونفسها تحدثها في اثناء ذلك ان الكتاب يتعلق بعماد الدين فلما سمعت قوله في الفقرة الاخيرة يذكر المهمة التي انتدب لها خفق قلبها وبادر الى ذهنها ان يكون هذا الكتاب من عماد الدين نفسه لانه يقول برح مصر قبل وفاة أخيها .. فبدت الغبطة في وجهها وتسارعت دقات قلبها ولم تتمالك عند الفراغ من تلاوة الكتاب ان قالت « هل يأمر السلطان ان أعرف من هو صاحب هذا الكتاب ؟ »

قال « يسعني لنا حفظ اسمه المكتوم نظراً لما بدا لي من غيرتك وصدق لهجتك لا أرى مانعاً من ذكره انه شاب جمع بين المروءة والحماسة وصدق المودة .. كلفه انتدبناه لامر هام لا يجسر عليه سواه لا أظنك تعرفينه »

ووقع نظر صلاح الدين وهو يتكلم على بهاء الدين قراقوش فقرأ في وجهه شيئاً يستدعي التوقف عن التصريح لكنه لم يدرك السبب ولا استطاع التوقف بعد ان وعد بالتصريح ونظر الى سيدة الملك فرآها مطاولة بعنقها وعيناها شاخصتان في شفتيه تكاد تخطف الكلام من فمه احتفالاً فقال « ان صاحب هذه الرسالة اسمه عماد الدين »

لم يكد يتلفظ باسمه حتى صاحت سيدة الملك « عماد الدين آه عماد الدين » واغمي عليها . فدهش السلطان ونهض واسرعت ياقوتة الى الماء وأخذت ترش سيدتها به وتفرك يديها واقترب بهاء الدين من صلاح الدين واصغى اليه فقال له « كنت اشرت الى مولاي ان لا يذكر هذا الاسم .. »

فقال « وما الذي يمنعها من ذكره ؟ هل تعرف شيئاً عن ذلك »

فقال همساً في اذنه « عرفت شيئاً منه قبل وروده لكن ضياء الدين الهكاري منعني من ابلاغه الى مولاي مخافة ان يفسد سعيه ويتمادى في خطبة هذه السيدة » وضحك

فقال صلاح الدين « وما هي علاقتها به ؟ يظهر انها تحبه .. »

فأومأ اليه ان يتبعه الى غرفة أخرى ريثما تفرغ با قوتة من معالجة سيدتها فتبعه ولما خلا به قص عليه ما كان من امر عماد الدين ليلة مجيئه الى القصر في السرداب وكيف وشى به ابو الحسن ولم يمكنوا من القبض عليه الى آخر الحديث

فوقف صلاح الدين يفكر في ما اتفق وقوعه في تلك الجلسة وقد سرَّ لاطلاعه على ذلك السر لانه يحب عماد الدين ويريد اكرام سيدة الملك وشكر الله لانه لم يوفق الى خطبتها لنفسه فقال لبهاء الدين « لقد سرني اطلاعي على ذلك فيجب علينا أن نسعى في جمع شمل هذين المحبين .. والحمد لله أن سعى الهكاري لم يتكلل بالنجاح »

فقال قراقوش « ويمكننا ان نتخذ سعينا في مصلحتها وسيلة لسعي هذه السيده في المساعده على كشف تلك المؤامرة لانها من اقدر الناس على ذلك . فاذا أخلصت الخدمة في هذا السبيل ساعدناها على مرامها .. »

فضحك صلاح الدين وقال « لله درك يا بهاء الدين .. انك لا تنظر في خير لاحد ان لم يعد جانبٌ منه عليك .. احسنت »

قال « انما يهمني القيام بخدمة مولاي اعزه الله »

ثم تحول صلاح الدين نحو القاعة وسأل عن سيدة الملك فقيل له انها افاقت فدخل فرآها جالسة على وسادة وقد اطرقت خجلاً وبان التعب في محياها وذبلت عيناها فتقدم نحوها وقال « قد علمت امرك وسرني ما علمته من علاقة حبيبنا عماد الدين بك . واعلمي اني باذل اقصى الجهد في تقصير مدة غيابه .. ولا يكون الا ما تريدين وقد اوصيت صديقي بهاء الدين ان ينظر في ما كنا فيه . استودعك الله »

فوقفت لوداعه والخجل غالب عليها ولم تجب بلسانها لكن عينيها ادتا واجب الشكر . على انها لم تستطع السكوت عما يخالج فؤادها من الخوف على عماد الدين فقالت وصوتها يرتجف « وامكانه فى اعماق السجن يا مولاي »

قال . انه سيأتي باذن الله واذا طال في السجن فاننا نفتح بيت المقدس لنخرجه منه وان في فتحه تعزيزاً لدولة الاسلام .. لا تخافي » وابتسم ومشى مشية الاسد وهي تتبعه ببصرها وتزداد اعجاباً بعلو همته وكبر نفسه . ورأت انتقال السيادة اليه وذهاب دولة أخيها امراً طبيعياً لا بد من وقوعه لما كانت تعلمه من ضعف نفوس رجال اخيها وفساد آرائهم وتنازعهم على التافه من الامور شأن الدولة في أواخر عمرها

وبعد خروج صلاح الدين تقدم بهاء الدين اليها فقال « سأعود اليك بعد قليل ريثما ترتاحين كوني مطمئنة » وضحك

الفصل الرابع والاربعون

جوهر

ولم يبق هناك الا سيدة الملك وياقوتة . فقالت ياقوتة ووجهها مشرق « الحمد لله قد صدق ظني وبانَ ما كنتُ اريده »

فبهتت سيدة الملك وقالت « ما الذي تعنينه وقد تبين لي من نص ذلك الكتاب ان عماد الدين في اعماق السجن عند الافرنج وانه مصمم على مهمة يظهر انها في غاية الخطر وانه اذا لم يفر ربما طال هناك او .. » وغصت بريقها

فقالت « ألا تكفي يا مولاتي انـنا علمنا بوجوده حياً ، وان صلاح

الدين عون لك في الوصول اليه ؟ وسيقتص من ذلك الخائن ؟ هيا بنا الى الطعام واتكلي على الله »

فنهضت وقد سرّي عنها وتناولت طعامها وحديثهما في اثناء ذلك عن المؤامرة وابي الحسن . وبعد الطعام اتى قراقوش — وهو يدخل المكان بلا استئذان — وقال « يا سيدة الملك اهنئك برضى السلطان صلاح الدين فانه اوصاني بك خيراً .. انما ينبغي لنا ان نكتشف مكان تلك المؤامرة فهل تعرفين عنه شيئاً ؟ »

فاطرقت تفكر ثم قالت « انى لي ذلك وانا لا اعرف شارعاً من شوارع هذا البلد لاني قضيت عمري محبوسة في القصور »

فتصدت ياقوتة للكلام وقالت « ان كشف هذا المخبأ عليّ »

فقال قراقوش « اين هو ؟ »

قالت « لا اعلم ولكنني ارجو البلوغ الى خبره . ألا تعرف الغلام جوهر ؟ »

قال « اعرفه .. ألم يكن من غلمان القصر ؟ »

قالت « نعم . وهو جاسوس ذلك الخائن كان يحمل اليه اخبارنا ويطلعه على اسرارنا »

قال « ومن الفائدة من معرفته ان كان هذا شأنه وهو خائن لنا ؟ »

قالت « ان الخائن لا يثبت في الامانة لاحد . كان في الامس اميناً لابي الحسن علينا وهو الآن سيكون اميناً لنا عليه »

قال « اين هو ؟ »

قالت « هو في هذا القصر وقد اخبرني بعض الغلمان انه غاضبٌ على ابي الحسن لانه اساء معاملته ولم يبق له فيه وطرٌ بعد خروج مولاتي من ذلك القصر ودخولها في حياطة مولانا السلطان . فنفر منه وجاء يتزلف

الينا .. هل استقدمه اليك الآن ؟ »

قال « افعلى »

فامرت احد الغلمان أن يستقدمه وعادت . ورأت سيدتها قد ابرقت عيناها من السرور وقالت لها « بورك فيك يا ياقوته انك ساحرة »

قالت « لا بد ان يعود كيد الخائن فى نحره » ثم جاء جوهر وعيناه ترقصان في وجهه من الاضطراب — وكذلك بصر المنافق لا يستقر فى مكانه

فنظر اليه قراقوش نظر المتفرس وقال له « يا جوهر نعلم ان ابا الحسن خدعك حيناً حتى اخرجك عن طاعة مولاتنا .. لكن سرّني انك رجعت الى الصواب وعلمت انك لا تنال خيراً الا بصدق الخدمة في مصلحة مولاتنا سيدة الملك ومولانا السلطان .. »

فاكب جوهر على يد بهاء الدين يقبلها ويتظاهر بالندم والاخلاص وقال « يعلم الله اني كنت مغشوشاً فان ذلك الرجل خدعنى واوهمني انه يد الامام المرحوم يفعل ما يشاء ثم علمت أنه يريد به سرّا وانا قد ربيت في خدمة مولاي فلا يليق بى ان اغدر به . فلما تحققت سوء قصد ابي الحسن تركته لأني اكره الخيانة . ولا سيما بمن احسن اليّ وانا صنيعته وعبده »

فقال قراقوش وهو يظهر انه صدقه « بارك الله فيك .. واعلم انى حسن الظن بك وسأزيد فى عطائك ولا اسألك عما مضى . واذا اطلب اليك امراً واحداً هو هين عليك وفيه انتقام لك من ذلك الخائن هل تطيعنى ؟ »

فلم يصدق جوهر انه نال هذه الرعاية بعد خياناته الماضية فقال « انى رهين الاشارة يا سيدى »

قال « اطلب منك أن تخبرني عن المكان الذي يجتمع فيه ابو الحسن واقرانه هل تعرف اين هو ؟ »

قال « ذلك هين يا سيدي .. نعم اعرفه وأعرف الذين يجتمعون معه .. قبحهم الله .. كنت عازماً ان اطلعكم على ذلك وان لم تسألوني عنه فانه فرض علينا .. وكان يمنعني الخجل من خطأي الماضي »

فربت له على ظهره وضحك وقال « عافاك الله هل المكان بعيد من هنا ؟ »

قال « هو في الفسطاط يا سيدي .. »

قال « الآن تحققت صدقك لاني كنت عالماً انه هناك . فانا واضع ثقتي فيك من هذه الساعة . وانت تعلم ان ثقتي هي ثقة مولانا السلطان ولا يخفى عليك ما يستفيده صاحب هذه الثقة . اصلح ما افسدته يا جوهر . وقد اوصتني مولاتنا سيدة الملك خيراً بك واخبرتني كم كنت مخلصاً في خدمتها قبلاً . ولكن ذلك الخائن اغراك على هذه الخيانة . مضى ما مضى .. تعال معي » قال ذلك وتحوَّل وتبعه جوهر وقد بادر الى العمل قبل ان يحدث ما يغير عزم ذلك الغلام المتقلب . وصمم ان لا يفارقه قبل الوصول الى المطلوب

على انه تذكر امراً احب ان يقوله لسيدة الملك قبل الذهاب فرجع اليها وقال « ينبغي يا سيدتي ان تتكلي عليَّ بكل ما يخطر لك .. ولا بد انك قد كرهت اطلاعي على مجيء عماد الدين الى قصرك واحمد الله على انه نجا سالماً »

واغتنمت تقربه اليها وتلطفه في طمأنتها وقالت « اما وانت متعهدٌ معي وقد رأيت السلطان راضياً عني اتقدم اليك ان تزيدني بياناً عن حال عماد الدين »

قال « لا أعرف عن حاله الآن غير ما في كتابه الذي تلوته عليك الساعة .. »

قالت « اعى هل عليهِ خطر هناك ومتى تظنه يعود ؟ »

قال « لا اعلم متى يعود اما الخطر فلا اخافه عليه لعلمي بشجاعته وتعقله ولا بدّ من الاتكال على الله .. كوني مطمئنة في كل حال » قال ذلك ومشى

فهرع جوهر في أثره وقد سرّه ما يؤمله من الفوز بالمكافأة — لا يهمه ما يترتب على عمله من قتل النفوس وخراب البيوت — ان امثال هذا الخائن يفقصهم الشعور الحي الذي يسمونه الضمير . فهم ينظرون فى الاعمال من حيث ما يعود عليهم من النفع ولا يشعرون بغير ذلك . والدنيا عندهم لها وجهان وجه منفعتهم وهو ما يسعى بقاؤه واما الوجه الآخر فهو كالعدم فى نظرهم فلا يبالون ان يمحى من الوجود أو يساق اصحابه الى المجازر . وقد يسرهم ما يرونه فى الآخرين من الاذى وان لم ينالوا هم منه خيراً لانفسهم فكيف اذا كان لهم منه نفع — نعوذ بالله من هؤلاء . لكنهم بحول الله قليلون ولو كانوا كباراً لخربت الدنيا من عهد بعيد

الفصل الخامس والاربعون

الفسطاط

مشى قراقوش وجوهر فى خدمته وكان جوهر مملوكا حبشياً وفيه ذكاء لكنه لم يكن له ضمير كما علمت فالتفت قراقوش اليه فى اثناء الطريق وقال « يا جوهر ما العمل الآن ؟ »

قال « الامر لمولاي »

قال « انا متكل عليك في الوصول الى العرض .. اريد ان اطلع على مجتمع القوم واسمع حديثهم هل يتيسر لك ذلك الليلة ؟ »

قال « نعم يا سيدي نذهب بعد الغروب اذا شئت »

قال « الى اين ؟ »

قال « الى الفسطاط لان القوم يجتمعون فى بيت هناك أعرفه ولا يمكن ان يهتدي اليه سواي .. فانه في دار خربة لا يتصل اليها الا من ازقة ضيقة مظلمة .. ولا بد من التنكر »

قال « وماذا ترى ان نفعل ؟ »

قال « ارى ان يتنكر مولاي الاستاذ بلباس طبيب نصرانى وانا اكون في خدمته احمل له جراب العقاقير واقود بغلته »

قال « هذا هين »

ووصلا بعد هنيهة الى منزل قراقوش فدخلا فامر قراقوش ان لا يدخل البيت احد من الناس ولو انه السلطان صلاح الدين نفسه . وامر جوهر ان يعد ما يلزم للتنكر وسأله عن محل الاجتماع اين موقعه في الفسطاط فقال « قرب جامع عمرو » وعين النقطه . فتركه يهيء ما يلزم واخذ في اعداد فرقة من الجند تسبقه لتتربص في خان قرب ذلك المجتمع ودبر الوسيله للاحاطة بالمنزل عند ابتداء الاشارة

اعد كل شيء قبل الغروب ولم تغب الشمس حتى كان قراقوش قد تزيا بزي اطباء النصارى بالزنار على وسطه والعمامة علي رأسه واعدت له البغلة ومشى جوهر في ركابه ولا يشك من يراهما انهما الطبيب وغلامه

برحا القاهرة عند الغروب وقطعا المسافة بينها وبين الفسطاط بسرعة . ثم اطل قراقوش على الفسطاط من مرتفع ورأى آثار الحريق لا تزال ظاهرة فيها وقد خربت اكثر ابنيتها بامر شاور منذ بضع سنين (سنة ٥٦٤ هـ)

اذ خاف شاور الوزير من وصول الصليبيين اليها واستيلائهم عليها فامر اهلها بالخروج منها الى القاهرة والقى النار فيها وأمر بنهبها . فانتقلوا ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم . وظل الحريق عاملاً فيها ٥٤ يوماً.[١] فاختلطت الازقة حتى استبهت على المارة . ولولا جوهر ومعرفته الشوارع جيداً لاستحال على قراقوش الوصول الى المكان المطلوب . ولكن ذلك الدسيس كان يقود البغلة ويتخطى الخرائب كانه ماش في داره . ودليله الاظهر مأذنه جامع عمرو فانها كانت بارزة في الفسطاط دون سواها

لم يتجاوزا جامع عمرو حتى خيم الغسق واظلمت الدنيا وقل الناس في الشوارع والمتأمل في الفسطاط يجد فرقاً كبيراً بينها وبين القاهرة فان هذه اكثر عمارة وسعة واضخم خانات واعظم آثاراً . سكن الامراء فيها لانها خاصة برجال الدولة واما الفسطاط فانها منزل الباعة والصناع ويكثر فيها السوقة والملاحون لقربها من النيل وقد زادها ذلك الحريق حقارة

وكان قراقوش لما توسط المدينة ورأى نفسه منفردا هناك مع جوهر خطر له ان ذلك الدسيس ربما ينوي الغدر به وهو سائر لا يركن اليه فالتفت نحوه وقال « اين نحن يا جوهر يظهر اننا قد بعدنا عن المكان الذي ذكرته وتجاوزنا جامع عمرو . »

قال نعم يا مولاي اني ذاهب بك الى المكان المطلوب وقد تجاوزناه الآن حقيقة كما قلت ولكني اريد ان اشرف عليه من منزل آخر بابه في شارع آخر .. ألا تريد ان ترى القوم مجتمعين وتسمع ما يدور بينهم ؟ »

قال « بلى . لكن تمهل قليلا » قال ذلك وتفرس فيما يجاوره وعلم انه على مقربة من الخان الذي اوصى الجند ان يترصدوا فيه فقال « اخبرني

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٣٥٠ ج ١ — طبعة ثانية

يا جوهر اين هو البيت الذي يجتمعون فيه ؟ دلني عليه باصبعك من هنا »
فاشار باصبعه قائلا « ألا ترى هذا النور المعلق على تلك السارية »
قال « رأيته »
قال « ترى وراءه بيتاً خرباً انهم يجتمعون في داخله »
فتحول قراقوش بعمامته الى الخان فلمح قائد الفرقة بالباب فاوصاه ان يفرق جنده حول ذلك البيت من كل ناحية بحيث لا يشعر به احد ولا يظهر احد من رجاله في الطرق وقال « اذا رأيتم مصباحاً يتحرك فوق احد هذه الاسطحة حركة رحوية اهجموا على هذا البيت من كل ناحية واقبضوا على من فيه » وعاد فادار شكيمة بغلته وجوهر يقودها حتى دخل الزقاق المطلوب ووصل الى باب دقه وقراقوش لا يزال على البغلة ففتحت خوخته واطل رأس رجل شيخ قد تدلى سالفاه على خديه وقال « من الطارق ؟ »
فتقدم جوهر وقال « الطبيب سمعان . افتح .. »
قال « وماذا يريد الطبيب منا ليس عندنا احد مريض »
قال « لم يأت للتطبيب لكنه يريد المبيت هنا وهو من اهل القاهرة وقد جاء للسفر في النيل فوجد السفينة التي يريد السفر عليها قد اقلعت فاراد المبيت في الفسطاط الى الصباح حتى يبكر الى الشاطىء ويركب سواها . افتح يا عماه . »
قال « لماذا لم يذهب الى الخان انه قريب من هذا المكان »
قال « لا يريد المبيت في الخان وهو لم يتعود ذلك وانا اتيت به الى هنا خدمة لك » وهمس في اذنه قائلاً « يظهر انك لم تعرفني يا معلم حاييم »
فتفرس فيه الشيخ وقال « عرفتك يا جوهر العفو اني لم اعرفك من قبل »

قال « لا بأس .. وانا جئت بهذا الطبيب ليبيت هنا وهو كريم الخلق كثير المال لا يبالي كم تأخذون منه .. والاحسن ان تخلوا له البيت برمته واطلبوا عن كل حجرة منه ديناراً واذا قال لكم انه يحتاج الى حجرة واحدة فقط قل له انك لا ترضى الا بتأجير البيت برمته .. »

ففرح حاييم بهذا الرأى ولم يكن في بيته كله ما يساوي دينارين من الاثاث . فلما قال له جوهر ذلك رفع صوته وقال « لا نقدر ان ندخل رجلاً غريباً يبيت معنا فاذا شاء الطبيب ان يؤجره البيت من بابه فعلنا »

فقال جوهر « كم اجرته ؟ »

قال « هو خمس غرف واجرته خمسة دنانير »

فتظاهر جوهر ان يخادع قراقوش بالمساومة وقال « ان خمسة دنانير كثيرة يا معلم حاييم ألا يكفي اربعة ؟ » وضغط على اصبعه ان لا يقبل

فاجاب « كلا اذا لم يعجبكم فهذا هو الخان قريب من هنا »

فاظهر انه رضي وقال « لا بأس .. طيب ان مولانا الطبيب كريم . وانتم اين تنامون ؟ »

قال « ليس عندي الا امرأتي العجوز فتبيت عند صهرنا وهو قريب من هنا »

فتحول جوهر الى قراقوش فقبض منه الدنانير ودفعها الى الشيخ وهو يقول له همساً « هذه هي الدنانير لكن ينبغي ان تختص منها بدينار تدفعه الي غداً صباحاً فهمت »

قال « حسناً » وهو ينوي ان لا يدفع اليه شيئاً بل عزم ان يدعي له حجة في الصباح يقبض بها ديناراً سادساً فيدعي انهم اتلفوا شيئاً من الاثاث او نحو ذلك

ثم تحول الشيخ الى الداخل وعاد بعد قليل والمصباح بيده ومعه

امرأته وهي تقول « يظهر ان هذا الضيف عزيز عليك حتى اخرجتني من البيت لاجله »

فقال « كيف لا » واشار الى بهاء الدين ان يتفضل . فتحول بهاء الدين عن بغلته فادخلها جوهر تحت قنطرة بجوار المنزل شدها الى حلقة دقت هناك لمثل هذه الغاية ودخل . ودفع خادم المصباح الى جوهر وانصرف وهو يوصيه بالبيت خيراً

الفصل السادس والاربعون

الجلسه

وما صدق قراقوش انهما دخلا البيت ولم يبال بما يتصاعد عن دهاليزه من الروائح القذرة . فاقفلا الباب واوصداه ومشى جوهر بالمصباح بين يدي قراقوش وهما يسترقان الخطى لئلا يسمع لهما صوت . ولم يمشيا طويلا حتى سمعا ضوضاء عميقة فقال جوهر « نحن بجانب مجالس القوم ليس بيننا وبينهم الا الحائط ... اصبر قليلا »

وكان قراقوش منذ خروجه من منزله يتحفز للدفاع عن نفسه و يده على خنجره ليغمده في صدر جوهر اذا آنس منه خيانة . فلم يلحظ منه شيئاً فلما استمهله وقف وهو يحدق فيه فاذا هو يشير اليه ان يصعد على سلم ضيق يؤدي الى سقيفة في اعلى الغرفة . فصعد معه ومن هذه السقيفة اتصلا الى السطح من باب ضيق كالمنور . ورأيا السماء فوق رأسيهما ونظر بهاء الدين الى ما يحيط بهما واذا هما والاسطحة حولهما فقال جوهر بصوت ضعيف لنترك المصباح على السقيفة ونمشي في الظلام لئلا يفتضح امرنا »

فاطاعه ومشى والضوضاء تزداد وضوحا حتى انتهى به الى حائط فقال

« هذا حائط آخر من حيطان قاعة الاجتماع »

فرأى بهاء الدين في أعلى الحائط كوة قد انبثق النور منها فتقدم نحوها وسبقه جوهر وقال « انظر هنا »

فنظر فرأى قاعة غاصة بالناس قعودا على وسائد مصفوفة حول الغرفة فوق بساط . وقد غابت الضوضاء ووقف بالباب رجل أسنده بظهره كأنه يمنع من يشاء الدخول فهمس جوهر في اذن بهاء الدين قائلاً « هل ترى جيداً »

قال « نعم لكني لم أعرف احداً منهم غير ابي الحسن . . من هذا الجالس الى جانبه ؟ »

قال « ان الذي تراه الى يمينه عمارة بن ابي الحسن الشاعر اليمني . والى يساره القاضي العويرس وبعده داعي الدعاة والى الجانب الآخر عبدالصمد الكاتب وغيره . . وكلهم من الشيعة كما تعلم . أنظر في وسط الغرفة ماذا ترى ؟ »

قال « أرى سيفاً ومصحفاً أظنهم يحلفون عليهما »

قال « نعم »

وأخذ قراقوش يتفرس في الحضور ليعرفهم عند الحاجة . واذا هو بأبي الحسن أشار بيده يطلب الاصغاء فانصتوا فقال « أبشركم أيها الامراء ان أعمالنا تكللت بالنجاح وجاء وفد الافرنج في هذا الصباح يحمل الهدايا الى ذلك الكردي . وقد فرح بالهدية وفرحنا وراءها . . جاءنا كتب أصحابنا في ساحل الشام انهم على أهبة الرحيل بعد أول اشارة فابشروا بنيل المراد »

فتصدى عمارة اليمني وهو شاعر مشهور ووجه نظره الى القاضي العويرس وداعي الدعاة وسائر أصحاب المناصب الرفيعة في الدولة وقال

« ان مولانا الشريف ابا الحسن أهل لما بايعناه عليه من الخلافة لنسبه الشريف ولان مولانا الامام المرحوم قد أوصى له بولاية العهد كما سمعتم ذلك من المجلس الشريف قبل الان . فيجب ان نخلص له الطاعة لنعيد هذه الدولة الى رونقها وكانت قد فسدت بمن دخل في أمورها من الاعاجم بسوء رأي المحيطين بالخليفة السابق وهم الذين أشاروا عليه باستنجاد نور الدين صاحب الشام فكان ذلك سبباً في صيرورة الامر الى يوسف هذا (صلاح الدين) ولكننا متى تم لنا ما دبرناه وقبضنا على أزمة الامور صرنا نتجنب هذا الخطأ في المستقبل . ولا نولي المناصب الا الذين نثق باخلاصهم وتفانيهم في الدعوة العلوية من العرب . . . انما عرب ونحن مادة الاسلام والقرآن عربي فلا ينبغي ان نشرك في امرنا غير العرب كما فعل غيرنا . . »

فقال عبد الصمد الكاتب « بارك الله فيك يا أخا اليمن (عمارة) قد مضى زمن الضعف والحمد لله ... ان خليفتنا هذا (وأشار الى ابي الحسن) جمع بين الحزم والدهاء ووزيرنا هذا (وأشار الى العويرس) لا مثيل له في اصالة الرأي و ... »

فقطع كلامه رجل كان جالساً منذ ساعة لا يتكلم كأنه يفكر في امر هام لا يلتفت الى ما يدور بينهم فلما سمع كلام عبد الصمد بشأن الوزارة رفع رأسه وقال « ان الوزارة لم يتم الاتفاق عليها بعد . وانا مع احترامي للقاضي الاجل لا أرى له حقاً بالوزارة وانما هي لسلالة الوزراء آل رزيك فانهم تولوها في عهد الأئمة السالفين ولهم عليها فضل فلا يليق نقلها الى سواهم ... »

فتصدى رجل آخر كان قد نهض في تلك الاثناء وأخذ يهمس في اذن ابي الحسن وابو الحسن يهز رأسه له هزة الرضا والاستحسان — تصدى،

هذا وقطع كلام الرجل قائلاً « مهلاً لا تتنازعوا على منصب هو حق لنا وكان في قبضتنا بالامس »

وضحك صاحب وزارة بني رزيك وقال « تريد أن ترجع الوزارة الى شاور ؟ ألم تكن هذه المصائب كلها من وزارته ألم يكن هو الذي أحرق هذه المدينة الزاهرة بسوء تدبيره ؟ ان الوزارة لا تكون لغير آل رزيك . ونحن اصحابها الاولون .. »

فتكلم ابو الحسن وهو يبتسم ويتلطف وقال « خففوا من غضبكم وارجعوا الى صوابكم .. لسنا الان في معرض التنازع على المناصب انما نحن في الاتحاد على اخراج هذا العدو من بلادنا ومتى أخرجناه نعمل ما يتفق عليه الرأى .. »

فقال صاحب وزارة آل رزيك « طبعاً ان ابا الحسن لا يهمه البحث في المناصب الان لانه ضمن لنفسه الخلافة بعد ثبوت نسبه في العبيديين .. ولم ينازعه أحد في صحة نسبه لان الخاص والعام تشهد بصحته بناء على ما سمعه من الامام المرحوم .. » وضحك ضحكة استخفاف

الفصل السابع والاربعون

الهجوم

وكان قراقوش متتبعاً لما دار وقد شاهد كل حركة وجوهر واقف بين يديه يتطاول ليرى ما يراه فاكتفى باتمشي ما سمعه وشاهده والتفت الى جوهر وقال بالاشارة « أين المصباح ؟ الى هنا »

فنزل الى السقيفة واتى بالمصباح فناوله قراقوش ووضعه الى فمه ثم واداره بيده بحركة دورية كما اتفق مع قائد ثالث الفرقة ... نزل وأخفى المصباح

وعاد الى السكوة والناس يتحاجون و يتناقسون . واذا بالصوضاء قد تعاطمت ولم تمض دقائق قليلة حى صار رجال قراقوش داحل القاعة وأحذوا في القبض على من فيها . وليس فيهم من يستطيع دفاعاً لانهم لم يكونوا قد أعدوا من وسائل الدفاع غير ألسنتهم واصواتهم

و وحه قراقوش التفاته خصوصاً الى ابى الحسن فلم يجده بىن المقبوض عليهم فطنهم اخرحوه الى خارج القاعة . ولما أيقن بفوز رحاله بالقبض على المتآمرين أسار الى حوهر بالنزول للرحوع الى القاهرة . فىزل بين يديه بالمصباح وقراقوش يتبعه ولم تطأ رحله السقيفة حتى سمع وقع أقدام مسرعة في أرض البيت تحت السقيفة فاحفل فتفرس قراقوش على النور الضعيف فرأى سبحاً بالعمامة والجبة لم يعرفه فقال له حوهر همساً « هـذا ابو الحسن هلم اليه » فبادر الى اطفاء المصباح حتى لا يعرف مكانه واسرع في النزول ليقبض على ابى الحسن وهو يحسبه دحل هذا المنزل بتواطؤ سابق مع صاحبه لمثل هذه الساعة على ان يبيت فيه ليلته ثم يفر في الصباح

نزلا الى ارض البيت وحوهر يقود قراقوش لانه يعرف دواخـل المكان واصاحا فلم يسمعا خطواً ولا صوتاً كأن ذلك السبح كان ظلاً وزال. فاراد قراقوش ان ينير المصباح ليرى المـكان في النور فاشار الى حوهر ان يفعل واستل خنحره وتهيأ للهجوم على من يظهر امامه . ولم يكد حوهر يبدأ بالاشعال حتي سمعا صرير باب الدار فركضا اليـه فوحدا الباب مفتوحاً وليس هناك احد فاضاء المصباح واخذا في البحث عن ابي الحسن في كل مكان فلم يجداه فتأ كدا انه نجا فقال قراقوش « هل انت متأ كد يا حوهر انه ابو الحسن ؟ »

قال « يغلب على ظني يا سيدي انه هو ومع ذلك قد يكون سواه .. هلم بنا للبحث عنه في الاماكن المحاورة فاذا لم نحده فلنا . في جملة المقبوض

عليهم والا فانه قد نجا قبحه الله »

فخرجا وركب قراقوش بغلته واخذا في البحث عنه في تلك الدار وما يجاورها فلم يقفا له على اثر فعادا الى القاهرة وبهاء الدين يخاف ان يكون ابو الحسن قد نجا وكان خوفه فى محله

اما سائر المقبوض عليهم من المتآمرين فحكم عليهم بالصلب وفي مقدمتهم عمارة اليمني المتقدم ذكره فصلبوا فى ٢ رمضان سنة ٥٦٩ ه [1] وارتاح بال صلاح الدين من هؤلاء لكنه ما زال يفكر في ابي الحسن سبب تلك الدسائس

اما سيدة الملك فاصبحت فى ثاني يوم القبض على المتآمرين وكاشفت ياقوتة بالبحث عما تم . فلما انبأتها بالقبض عليهم فرحت لكن ساءها فرار ابى الحسن وهو مصدر متاعبها . وتعلم انه لا يبالى ماذا يفعل في سبيل غرضه . لا يرعى ذمة ولا يتهيب حراماً فنظرت الى ياقوتة قائلة « ان صلاح الدين قد فاز بما يريد ... »

فقالت ياقوتة « ان نجاة ذلك الخائن كدرتني كثيراً ولكن ما العمل . لا بد من ان يرجع كيده فى نحره . . لان الله عزيزه . ولم يعد يهمنا أمره ونحن في حياطة صلاح الدين .. والآن جئتك بشيء يعزيك على هذه المصيبة »

فعجبت سيدة الملك وقد اصبحت تحت اشكال جديد تتوقعه افرط واقها على نجاد الدين فقالت « ما وراءك ؟ »

فضحكت وقالت « انى ساتلة عليك البلاء عن نجاد الدين . كيف تعلمين بمجيء رسول من عنده رأته قبل سفره وحاطه ومنا من كتابه انه سجين ولا تسألين عن ذلك الرسول حتى تسمع لديه ايضاحا او تسمعه رسالة ؟ »

---

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ١١

فتنهدت سيدة الملك وقالت « آه يا ياقوتة قد أقلقتك بكثرة الاسئلة .. هل تتوهمين اني غفلت عن هذا الفكر ؟ . ان رسول عماد الدين يؤسي اذا رأيته .. وكنت عازمة على استدعائه أين هو ؟ . »

قالت « أخبرني بهاء الدين الآن أن ذلك الرسول يطلب أن يراك وان عماد الدين كلفه بذلك .. »

فتوردت وجنتاها وقد أخذها الفرح ولم تتمالك أن صاحت «عماد الدين كلفه أن يراني ! . . الحمد لله انه يفكر فيّ . . هو اذاً يحبني . . » ثم تراجعت وقد ندمت على تلك اللهفة وخجلت وادارت وجهها الى حائط عليه ستاره موشاة بالالوان الجميله تتشاغلت بالنظر اليها

فقالت ياقوتة بصوت ضعيف « يا الله من الحب ! كيف يجعل سيدة الملك سلاله الخلفاء ونزيلة السلاطين يستخفها الفرح اذا سأل عنها شاب من . »

فقطعت سيدة الملك كلامها قائلة « لا تقولي شيئاً عن عماد الدين انه عندي فوق الخلفاء والسلاطين .. صدقت ان الحب .. آه .. صرت اذكر الحب بين يديك بلا حياء .. ان الحب يفعل كثيراً . . والآن أين ذلك الرسول دعيه يدخل .. »

الفصل الثامن والاربعون

رسول الحبيب

فخرجت ياقوتة وعادت بعد قليل ومعها شاب في زي أهل بيت المقدس الذي يلبسونه في الاسفار . حول رأسه الكوفية كالخمار وقد تسربل

بالسراويل القصيرة وحول خصره منطقة عريضة من الجلد غرس في مقدمها خنجراً صغيراً ولف حول ساقيه لفافة من النسيج تسهل عليه المشي السريع

فلما دخل وقف مهيباً متأدباً فارسلت سيدة الملك جوارها ورحبت به قائلة « ما اسمك يا غلام ؟ »

قال « اسمي جرجس »

قالت « أنت مسيحي اذاً ! »

قال « نعم يا سيدتي »

قالت « من أين انت آت ؟ »

قال « جئت من بيت المقدس برسالة الى السلطان صلاح الدين وقد أديتها بالامس ولكن صاحب تلك الرسالة أسرّ اليّ أمراً خصوصياً كلفني به يتعلق بسيدة الملك »

قالت « وما هو ذلك الامر ؟ أنت بين يدي سيدة الملك الآن »

فاطرق احتراماً وقال « اين هي ؟ »

فتقدمت ياقوتة وقالت وهي تشير الى سيدتها « هذه مولاتنا سيدة الملك قل ما عندك وأرجو أن تكون صادقاً في ما تقول »

قال « وما الذي يحملني على الوقوف بين يديها ان لم أكن صادقاً في [illegible] وخصوصاً لان الامر الذي جئت به سرّ لم يطلع عليه أحد سواي. ولولا ذلك لم اكن لاستطيع الحضور بين يديها [illegible] »

قالت ياقوتة « صدقت [illegible] بارك الله فيك » [illegible] مولاتي في السؤال عن صلاح الدين فقالت « [illegible] صلاح الدين ؟ »

قال « لم يعد اسمه صلاح الدين يا سيدتي بل هو [illegible] الآن عبد الجبار »

قالت « ونعم الاسم . كيف عرفته ؟ من أسرّ اليك هذه المهمة ؟ »

قال « عرفته في احرج المواقف وما لبثت أن تعرفته حتى تعشقت أخلاقه وصرت افديه بروحي .. انه شاب نادر المثال بالمروءة والحمية »

ولما سمعت سيدة الملك اطراءه اشرق وجهها وخفق قلبها وتطاولت لتسمع بقية الحديث . اما ياقوتة فاجابتــه وهي تظهر السذاجة قائلة « امر غريب ! يظهر انك عاشق له .. قل كيف وقع ذلك . وما هي المهمة التي جئت بها ؟ »

فقال « كان عماد الدين ماراً ببيت المقــدس في طريقه الى نواحي حلب في امر لا اعلمه فقبض عليــه الافرنج خداعاً وسجنوه . وكنت انا مسجوناً مثله فتعارفنا في السجن فرأيت فيه اخلاق الملوك وتحادثت فلو سا فاحببته واخلص لي وتكاشفنــا في امور كثيرة فلم يذكر لي شيئاً يتعلق بسيدة الملك . ثم اتيح لي الخروج من السجن وتقربت من صاحب بيت المقدس الافرنجي واصبح همي انقاذ صــديقي سالم من السجن فلم يسعدني الحظ بعد لــكني كنت اتردد عليه دائماً واتفقده بما يخفف عنــه . وسمعنا في اثناء ذلك بما حدث هنا من موت الامام رحمه الله وتغيير الاحوال وانزال أهل الخليفة في هذا القصر بالاكرام وكنت اقص عليه كل ما اعلمه وفي جملة ذلك المؤامرة التي تعلمينها وقد بعثني صاحب بيت المقدس دليلاً للوفد الذي جاء لتقديم الهدايا وجئت لوداع سالم فكلفني بايصال كتاب الى السلطان صلاح الدين . ثم اسرَّ اليَّ ان ابحث عن سيدة الملك واطمئنه عن حالها وها أنا بين يديها »

وقالت ياقوتة « وما الذي اطلعك عليه من علاقته بها »

قال « لم يذكر لي تفصيلاً كثيراً لان الوقت لم يكن يأذن بالتطويل ولــكني فهمت من عرض الحديث انه يجل سيدة الملك كثيراً . وقــد

خطر له انكم تستغشونني ولا تصدقون قولي فدفع اليَّ هـذه الجوهرة على سبيل الامارة » ومد يده الى جيب في منطقته واستخرج جوهرة دفعها الى ياقوته فتفرست فيها واقتربت من سيدة الملك حالما رأتها قالت همساً « هذه احدى جواهر العقد الذي اعطيناه اياه تلك الليلة وتأكدت ثمة عماد الدين به والتفتت الى الشاب وقالت « صدقت .. قد تأكدنا الان انك رسول منه . كيف هو ومتى يخرج من السجن واذا خرج ألا يأتي الى هنا ؟ »

قال « سيخرج قريباً ان شاء الله وهو في خير واذا خرج لا اظنه يأتي توّاً الى هنا بل عليه مهمة لا اعرفها . وقد كفاني ان اقول لك انه سيعود الى هنا متى فرغ منها »

فانقبضت نفسها وأطرقت ثم رفعت بصرها اليه وقالت « اذاً هو في خير وهذا يكفي .. اذا دفعنا اليك امانة هل توصلها اليه ؟ »

فوضع يده على رأسه وقال « كيف لا يا سيدتي أتمنى خدمة اؤديها له .. »

فاشارت الى ياقوته فدنت منها فامرتها ان تستخرج بعض الجواهر تبعث بها اليه وان تكتب اليه كتاباً تؤكد له فيه بقاءها على حبه وانها تتوقع رجوعه بفارغ الصبر

ففعلت ووضعت الجواهر والكتاب في كيس خاطته ودفعته الى الرسول . ودفعت اليه صرة فيها خمسون ديناراً وذات مدة اخذ الطريق فاحدها وسكر وانصرف وظلت سيدة الملك برهة بعد ذهابه وهي تخاطب ياقوته بشأنه وياقوته تصبرها حتى ...

الفصل التاسع والاربعون

السلطان نور الدين

واما ابو الحسن فقد علمت انه نجا تلك الليلة من القبض عليه لانه كان لفرط دهائه وحذره يحتاط لكل شيء . وكان قد اعد منفذاً من قاعة الاجتماع الى بيت ذلك اليهودي حتى اذا دهمهم مداهم فرَّ من هناك لا يبالي بما يصيب رفاقه — وانما هو بطلب النجاة لنفسه

فقضى بضعة ايام مختبئاً في بعض المنازل حتى علم ما كان من عاقبة رفاقه المتآمرين وكيف قضى عليهم بالصلب فيئس من مصر ورجالها . ولكن مطامعه ما زالت تريه المحال ممكناً — والمرء اذا رغب في شيء وان كان بعيداً فان رغبته فيه تريه اياه قريباً — فاعمل فكرته في سبيل آخر يسعى فيه للانتقام من سيدة الملك . وقد علم في اثناء تربصه انها هي التي استعانت بخادمه جوهر على كشف امرهم فازداد حقداً عليها فخطر له بعد التفكير ان يستعين بالسلطان نور الدين صاحب الشام . يحمل اليه اسراراً هو مطلع عليها تتعلق برغبة صلاح الدين في الاستقلال بمصر وما صرح به ضد نور الدين . فيسعى به الى نور الدين ويحمله على محاربته واخراجه من مصر عنوة . وان تشهد هو ذلك الفتح فيجعل غنيمته منه سيدة الملك . واستسهل كل صعب في هذا السبيل ورآه قريب المنال

فلما اقتنع بصحة رأيه احتال في الفرار من مصر طالباً دمشق الشام وواصل المسير وحده فيه فوصل دمشق متنكراً بثوب تاجر مصري ونزل في خان من خاناتها قريب من القلعة وهي يومئذ مقرُّ السلطان نور الدين ودمشق زاهية بذلك السلطان العظيم زاهرة بما وصلت اليه من الانتصارات

المتوالية على الافرنج في مواقع مختلفة من بلاد الشام . لكنه لم يكد
يستقر به الجلوس في الخان حتى سمع لغط القوم بانحراف صحة السلطان منذ
ايام وقلق الناس على حياته لانه اصيب بالخوانيق . فاخذ ابو الحسن يفكر
في وسيلة يتصل بها الى مجالسته والمداولة معه في امر مصر

وسأل عن طبيبه الخاص فعلم انه الرحبي وهو من حذاق الاطباء
وكانت له معه معرفة . فسار اليه فوجده في منزله فاستقبله الطبيب احسن
استقبال وكان قد لقيه بمصر وعرف منزلته من الخليفة العاضد فسأله
ابو الحسن عن حال السلطان فقال « انه مصاب بالخوانيق وقد اشتد عليه
المرض لانه ابى الفصد » فاظهر اسفه وقال « ألا يتيسر لي ملاقاته لعلي
اقنعه بالفصد . ولي معه حديث اذا اطلعته عليه سري عنه »

فرأى الطبيب ان يستعين به على ذلك وهو مطلع على قلق السلطان
نور الدين من جهة مصر وعلمه يرغب في استقبال ابي الحسن لعله يستطلع
منه امراً جديداً فيأذن بمقابلته ولو كان مريضاً فاستمهله الطبيب الى
صباح اليوم التالي

وجاءه ابو الحسن في الصباح فقال له « ان مولانا السلطان احسن
حالاً الآن وقد ذكرتك له فاحب ان يراك »

فخرج ابو الحسن [illegible] وركب مع الطبيب الى القلعة وكان السلطان
مقيماً في غرفة من غرفها اصابه المرض وهو فيها فبقي هناك . فدخل الطبيب
اولاً واستأذن لابي الحسن فاذن له بالدخول ودخل [illegible] التحية والاحترام .
وكان قد عرف السلطان من قبل [illegible]
مشرق الوجه فرآه قد [illegible] وكان السلطان من الرجال اسمر اللون
طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة
حلو العينين ولكن المرض [illegible]

داخلاً ابتسم له على عادته بالملاطفة والمجاملة

فأكب ابو الحسن على يده كأنه يريد تقبيلها فامتنع نور الدين عن ذلك وأشار اليه أن يقعد . ولم يكن في تلك الغرفة شيء من الرياش لأنها ليست القاعة التي يقابل الناس فيها وانما اتفق وجوده هناك عند الاصابة

جلس ابو الحسن على وسادة وقال « كيف مولانا اليوم أرجو ان يكون في صحة لان سلامته سلامة الدولة وفي شفائه شفاء الاسلام وأرجو ان لا أكون قد ثقلت عليه بقدومي »

وقال نور الدين وصوته ضعيف من الخوانيق « الحمد لله على كل حال .. وأما قدومك فقد سرني لعلمي انك قادم من مصر وفيها حبيبنا ووزيرنا الملك الناصر كيف فارقته ؟ »

فلما سمعه يلقب صلاح الدين بالحبيب تشاءم لكلامه عزم على المراوغة وقال « هو في خير بظل مولانا السلطان الملك العادل »

قال « كيف فارقت مصر ؟ »

قال « فارقتها واهلها يتشوقون الى طلعة مولانا السلطان أعزه الله ويتمنون لو أنه سرهم بالزيارة ليرى مملكته الجديدة . »

فاشرق وجه نور الدين وسره أن يسمع ذلك من أمير مصري كان من المقربين للدولة الفاطمية فقال « ولكن بلغنا أن بعضهم تآمروا على خلع الطاعة . فهل ذلك صحيح ؟ »

قال « نعم يا سيدي انهم تآمروا ولكن ليس على خلع طاعة السلطان نور الدين »

قال « وكيف اذن ؟ .. » وبدت البغتة في عينيه ونسي مرضه وأخذ يعبث بجانب لحيته عند الحنك وتفرس في عيني ابي الحسن ليرى ما يبدو منه .

فقال ابو الحسن « ان اهل مصر من أقرب الناس الى الطاعة ولكن.. »
وبلع ريقه وتنحنح وأظهر انه يكتم امراً لا يحب التصريح به

فقال نور الدين « ما بالك ؟ ... ولكن ماذا ؟ »

قال « لا احب ان ازعج سيدي السلطان بامور لا اظنها تسره . »

فبدا الغضب في وجه نور الدين وقال « قل . . قل . . تآمروا على خلع من ؟ »

قال « انهم تآمروا على خلع طاعة السلطان صلاح الدين »

قال « أليست طاعته طاعتي ؟ »

قال « بلى . . هكذا يجب أن يكون ولو طلب طاعتنا باسم السلطان نور الدين لما وجد مخالفاً »

قال « وكيف طلبها اذاً ؟ »

قال « يظهر أن اصحاب البريد يخفون الحقيقة عن مولانا السلطان فاذا اذن لي تكلمت »

قال « قل . قد اذنت لك »

فالتفت ابو الحسن الى الطبيب كأنه يستشيره في هل يضر الغضب في صحة السلطان. فتقدم الطبيب الى السلطان وقال « أرى مولانا السلطان قد بان الغضب في وجهه وهو مريض ألا يؤجل هذا الحديث الى وقت آخر ؟ »

فقال « كلا . . اني في خير . فليقل ما عنده »

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه وقال « ان يوسف صلاح الدين لم يطلب طاعة المصريين باسمك ولكنه طلبها باسمه وزعم انه هو صاحب الامر وليس للسلطان نور الدين شيء منه [illegible] وآمنهم عليه لا [illegible] لا يريد ان يعرف غير مولانا نور الدين سلطاناً وانا [illegible] ذلك تماماً .

وقد صرح صلاح الدين بذلك في جلسة علنية — حتى ان اباه نجم الدين انتهره وأمره بالكتمان » . قال ذلك وسكت

الفصل الخمسون

الفشل

وكان نور الدين حسن الفراسة فاطرق هنيهة يفكر في ما سمعه وهو يعبث بلحيته فلم تعجبه تلك الوشاية من عدو طبيعي لهما ولا سيما بعد أن سمع اعترافه بانه كان من المتآمرين على صلاح الدين . وأدرك انه لو كان صادقاً في طاعته لنور الدين لم يساعد على خلع الطاعة بتلك الصورة بل كان عليه أن ينقل خبر صلاح الدين اليه وترجح لديه كذبه فقال « وماذا ترى الآن ؟ »

قال « أرى ان لا تستخف مولانا السلطان العادل بمطامع وزيره فانه قد جاهر باستقلاله بمصر قبل موت الامام العاضد فكيف به الان ؟ فما على السلطان الا أن يجرد عليه ويخضعه وانا في خدمته أفديه بدمي »

فحملق السلطان نور الدين عينيه السوداوين وكاد الشرر يتطاير منهما لشدة الغضب وقال « لو كنت صادقاً في نصحك لحملت الينا هذه الوشاية من قبل وصبرك عليها حتى الان حجة عليك وعلى أصحابك المتآمرين . انما انتم تآمرتم على خلع طاعة نور الدين . بل أردتم نقض بيعة الامام العباسي لانه سني . وطمعتم باسترجاع السيادة لانفسكم ... » وكان يتكلم وهو مستلق وأخذ يرتعد من الغضب فاعتدل يريد الجلوس فاعانه الطبيب على ذلك وندم على الاذن له في الكلام

فاخذ ابو الحسن يتنصل من تلك التهمة وقال « لم أحسن التعبير عن مرادي يا سيدي . اني أصدقك الخبر . ان ما قلته هو الصحيح . . نحن طائعون للسلطان نور الدين و . . »

قال « لو كنتم صادقين لاطعتم وزيري ونائبي صلاح الدين . لكنكم تعودتم التملق والتذبذب . . ما الذي أساءكم به صلاح الدين ؟ ألم ترسلوا الينا شعور نسائكم تستغيثون بنا فانفذنا اليكم عمه شيركوه وقد انقذكم ؟ وهذا صلاح الدين أخمد العصيان واصلح البلاد وابطل الضرائب . وكان ينبغي أن تعرفوا له فضله . . . ولكن قوماً يبلغ بهم الذل حتى يستشفعوا بشعور نسائهم لا يرجى منهم وفاء . . لا أزال اذكر سوء وقع ذلك في مجلسنا يوم أتتنا تلك الشعور في المناديل وقد عقد المجلس للنظر في طلب امامكم . وكان بين الغلمان شاب صغير لم يملك حين رأى تلك الشعور أن تقدم الي ان أعطيه خصلة منها حمراء ذهبية وكان معرضاً من صلاح الدين فدفعتها اليه لارى ما يفعل به . فلما تفرس فيها قال « ان صاحبة هذا الشعر الجميل لاتتهن وهي اما بنت الخليفة أو اخته واني معيده اليها . فاذنت له بالخصلة فاخذها في منديلها ولا أدري اذا كان قد وفق الى ما اراد . . فكيف ترجو أن اتوقع منكم وفاء ؟ وقد جئتني الان تريد الايقاع بيني وبين نائبي . هب انه اراد الاستقلال بمصر فليأخذها هو فانا الميعة واحدة ولا ترجع لكم . » ولما بلغ الى هنا بان التعب عليه وحوّل وجهه عن ابي الحسن باحتقار وادار له ظهره وعاد الى الرقاد وهو يلهث من التعب

أما ابو الحسن فجمد الدم في عروقه من الفشل وأحس كأنك صببت عليه ماء بارداً . وأخذ يرتعد وقد وقع خبر خصلة الشعر عليه وقوع الصاعقة لعلمه انها من شعر سيدة الملك . فاشار اليه الطبيب أن يخرج حالاً لان السلطان أصابته نكسة بسبب الغضب فخاف ابو الحسن أن يأمر السلطان

بالقبض عليه فخرج مسرعاً واختفى في مكان لا يعرفه فيه أحد ريثما يرى ما يكون

وفي الصباح التالي طاف المنادون في المدينة ينعون السلطان نور الدين (توفي في ١١ شوال سنة ٥٦٩) وتناقل الناس عن سبب وفاته بعد أن تحسنت صحته انه غضب من بعض الناس فاصابته نوبة ذهبت بحياته . فاسقط في يد ابي الحسن وعمد الى الفرار وقد تولاه اليأس واظلمت الدنيا في عينيه

خرج من دمشق وهو يرغي ويزبد من شدة الغضب والخادم في ركابه لا يجسر على النظر اليه . حتى اذا مرَّ بالغوطة وصل الى عين ماء جارية يظللها ويحيط بها أشجار التفاح والسفرجل والمشمش وسائر انواع الفاكهة وقد دخل الربيع [1] وتفتحت الازهار وتغنت الاطيار . والطبيعة ضاحكة الا ابا الحسن فانه لم يكن يرى شيئاً غير الفشل نصب عينيه . وانما نبهته البغلة الى الوقوف هناك لانها رأت الماء جارياً فهاجها العطش فمالت الى قناة الماء لتشرب . فانتبه ابو الحسن وقد صارت الشمس في الضحى وهو في الخلاء لا رقيب عليه . فلاح له أن ينزل هناك ليستريح وترجل وسلم البغلة الى الخادم يهتم بامرها . وتغلغل بين الاشجار على غفلة من البستاني لانهم لا يتوقعون نزول الناس هناك في مثل تلك الساعة

أما ابو الحسن فلما خلا بنفسه قعد الى جذع مشمشة تدلت أغصانها تحمل نوعاً من المشمش يفاخر به أهل الشام سائر المشرق ويعرف الآن بالمشمش الحموي ينضج في ابان الربيع وفيه لذة وفكاهة والناس يقصدون الغوطة للتمتع بمنظره وطعمه

---

(١) يقع شهر شوال من تلك السنة (٥٦٩ ﻫ) في مايو ويونيو ١١٧٤ م (التقويم العام)

أما ابو الحسن فلم يخطر بباله شيء من ذلك لكن اشراق الطبيعة اذكره ماضيه واوضح له ما هو فيه فازداد انقباضاً . مكث برهة يفكر وهو في غفلة عن زقزقة العصافير وتطايرها ومداعباتها وليس فيها من يخاف الفشل لانها مثل سائر الاحياء لا تطلب من الطبيعة غير ضروريات البقاء وهي مسرورة أما الانسان فمن مطالبه ما لا ينال الا بالجهد والعناء وهو لا يبالي أن يرتكب في سبيل نيله أنواع المحرمات

وبعد السكوت مدة نبهته حسرة [illegible] خادمه بين العشب فالتفت الى ما يحدق به من جمال الطبيعة وبهائها واتضحت له الطامة التي هو غارق فيها . ومرّ تاريخ حياته في خاطره مرور السهم فلم يزدد الا انقباضا وتمثل له ان سبب هذا الشقاء انما هو رفض سيدة الملك له . واشتدت نقمته عليها واغتنم غياب خادمه وأخذ يناجي نفسه قائلا :

« ويل لك يا نعمة . [illegible] ذلك الملام عليّ . اما كان الافضل لك أن يكون ابو الحسن زوجك ويبقى هذا الملك لنا . كنت قادراً ان أقتل صلاح الدين ولم أفعل لاني أردت ان استمر تحت [illegible] لأن [illegible] سواي . علمت أنك تشكين في صحة نسبي ولا تعتقدين اني من بني عبد الله . أصبت لست منهم ولكن شرف النسب وهم . انما الرجال بالاعمال وقد انتحلت ذلك النسب لأن الناس يحترمونه . وطالما يكون وسيلة اليك والى الملك فلما أوشكت الوصول الى الغرض عرقلت مساعيّ [illegible] [illegible] الخادم .

ثم [illegible] وقعت على الحشيش اليابس فاحدثت حفيفا [illegible] افكاره الى [illegible] . [illegible] فقال « وانت يا راشد الدين قد آن الوقت لاستعين بك على هذه [illegible] لا لأتزوجها بل لاذيقها العذاب [illegible] » [illegible]

عزم على أمر توسم النجاح فيه فارتاح باله وانقشعت السويداء عن مخيلته وقد أحس بالجوع فالتفت الى ما حوله فلم يجد أحداً فصفق للخادم وناداه فاتى فأوعز اليه ان يأمر البستاني يهيء له طعاماً وفاكهة . فاطاعه فاكلا . وعاد ابو الحسن الى تدبير ما عزم عليه فلنتركه في تدبيره ولنبحث عن عماد الدين فقد طال بنا السكوت عنه

الفصل الحادي والخمسون

في السجن

علمت من سياق الحديث ان عماد الدين لاقى في سفره عذاباً اذ قبض عليه الافرنج بقرب بيت المقدس لاعتقادهم انه جاسوس وسجنوه مدة تعرّف في اثنائها الى جرجس هذا كما تقدم . ولم يكن جرجس مسيحياً كما قال وانما هو من كبار الفدائيين الاسماعيليين واسمه الحقيقي عبد الرحيم بعثه راشد الدين لقتل أموري الافرنجي صاحب بيت المقدس . فتنكر باسم جرجس واحتال حتى جعلهم يقبضون عليه ويسجنونه ليتمكن في اثناء سجنه من التعرف الى صغار أهل البلاط ويطلع على خفايا القصر بحيث يسهل عليه الوصول الى غرضه . وعادة أولئك الفدائيين في تنفيذ أمر مولاهم راشد الدين ان أحدهم اذا كلف بقتل احد الملوك جعل نفسه من أصغر خدمه . والغالب أن يجعل نفسه سائساً لجواده ليتيسر له الاقتراب اليه عند الركوب والنزول فيغتنم غفلة منه يغرس بها خنجره في صدره

فبي أثناء اقامة عبد الرحيم (او جرجس) هذا في السجن تعرف الى عماد الدين وأحبه وتمكنت العلائق بينهما فكاشفه عبد الرحيم بحقيقته وكيف انه مسلم وانه احتال بالسجن ليتوصل الى غرضه وقتل صاحب

بيت المقدس باشارة مولاه راشد الدين وأخذ يرغبه في هذه الطائفة ونبالة مقاصدها وشدة تأثيرها لحمد عماد الدين السبب الذى جرّه الى ذلك السجن لانه كان وسيلة الى هذا التعارف وسهل عليه مهمته . فاظهر ارتياحه لذلك الرأي ووعده انه ينتظم في سلك الاسماعيلية بعد خروجه من السجن وهو يضمر أن يجعل ذلك الانتظام وسيلة لتنفيذ مهمته التي جاء من أجلها لقتل راشد الدين . وبذل جهده في اكتساب ثقة عبد الرحيم واطاعه في تغيير اسمه فجعله عبد الجبار »

أيام السجن طويلة لانها خالية من العمل فيملّ المسجونون الفراغ ويضطرون لقضاء الوقت بالاحاديث او الالعاب . فكان عبد الرحيم يقضي معظم الوقت في الحديث عن راشد الدين وكراماته ومقدرته وكيف انه يعلم الغيب ويتنبأ عن المستقبل ويحدّث الاحجار ويأتي بالمعجزات . وانه يفعل ذلك لا طمعاً في الدنيا وانما هو ينصر الاسلام . واستشهد على صحة قوله بالمهمة التي اتى هو بها لقتل صاحب بيت المقدس . وكان كلما ذكر راشد الدين ثارت الحمية فيه وهاجت عواطفه وأصبح كله ألسنة تنطق بفضائله . وكان لاقواله مع التكرار تأثير على عماد الدين فاصبح يرى وجود راشد الدين قوة عظيمة يمكن الاستعانة بها على الافرنج اذا تمكن من اكتساب صداقته على ان ما سمعه من معجزات ذلك الرجل وكراماته وعن جنته ونسائه حبب اليه الاطلاع على حقيقة ذلك

تمكنت هذه الصحبة بينهما ثم انتهت ايام عبد الرحيم في السجن وخرج وأهل البلاد يحبونه ويرون بوجوده نفعاً لهم لانه مسيحي يعرف لغة البلاد وعاداتها فقربوه وهو يبذل جهده في مرضاتهم توصلاً الى غرضه فلما دارت المخابرة بين الحزب العبيدي في القاهرة وبين الافرنج وانتدبت بارسال الوفد اختاروه ليكون دليلاً . وذهب لوداع عماد الدين [illegible] باسم الله

ما تقدم ذكره وبذل جهده في خدمة صديقه رغبة في ادخاله سلك الاسماعيلية لانه آنس فيه من الشجاعة والذكاء ما يندر مثاله وهم في حاجة الى الشجعان

ولما عاد من تلك المهمة توسط في اخراج عماد الدين من السجن وأبلغه ثمرة كتابه الى صلاح الدين وكيف انه قبض على المتآمرين وقتلهم صلبا الا أبا الحسن أخبره انه نجا . ثم دفع اليه كتاباً من صلاح الدين يثني فيه على حميته . وصدق مودته وبعث اليه مالاً يستعين به

ثم أطلعه على ما عرفه عن سيدة الملك ودفع اليه كتاب ياقوتة والجواهر . فتناولها واعطى قسماً منها الى صديقه عبد الرحيم فازداد تعلقاً به — وليس كالسخاء يحبب صاحبه الى الناس مهما يكن فيه من العيوب . حتى جرى على ألسنة العامة قولهم « ما من عيب الا والكرم غطاه » وكيف اذا كان الكريم قليل العيوب أو لا عيب فيه ? ولو علم الاغنياء ما يعطيه الكرم من عيوبهم لكرهوا البخل وبعدوا عنه — وكما يذهب الكرم بعيوب الاغنياء فالبخل يلصق بهم عيوباً ليست فيهم

واسرع عماد الدين الى كتاب ياقوتة فقرأ فيه قولها :

« سلام عليك يا عماد الدين . جاءنا صديقك وسرنا انك في صحة ولكن ساءنا ما أصابك في السجن . على ان ما عرفناه من حب هذا الصديق لك وما يظهر فيه من المروءة والشهامة طمأننا عليك . اننا نقيم الآن في دار الاضياف تحت رعاية السلطان صلاح الدين — انه شهم وقد أكرمنا غاية الاكرام . ويسرني ان أخبرك بأنه جعل مولاتي سيدة الملك اختاً له وهو يعاملها معاملة الاخت من كل وجه . وجاء ذكرك مرة أمامه فاكثر من الثناء عليك وما يرجوه لك من المستقبل السعيد . انما ساء سيدتي انك في السجن على ان صديقك جرجس بشرنا بقرب خروجك منه سالماً معافى

ولكن عظم علينا انك ستبطىء في المجيء الينا . فعجل ولا تقطع أخبارك وعليك السلام »

فلما قرأ الكتاب أحس بشيء جديد لم يشعر به من قبل . وقد كان الى تلك الساعة مضطرب الافكار من جهة سيدة الملك لعلمه ان صلاح الدين خطبها لنفسه . ورأى من الجهة الثانية ما أظهرته من الميل اليه حتى أوشكت أن تقول له صريحاً أنها عاشقة له تتفانى في حبه . فوقع في حيرة وانما شغل عن ذلك بالاسفار وملاقاة الاخطار ليرى ما تأتي به الاقدار . فلما اطلع على كتاب ياقوتة وعلم ان صلاح الدين لا يريد الزواج بسيدة الملك ورأى تلطفها عليه في ذلك الكتاب مع اختصاره أحس انها له وحده . واضطرمت نيران الحب في فؤاده دفعة واحدة كأن لواعج تلك المدة كلها اجتمعت في ذلك اليوم وظهرت دفعة واحدة . وأصبحت صورة سيدة الملك نصب عينيه كيفما توجه وهو لا يزال يذكر منظرها في الليلة وهي واقفة تودعه وتستعجل نزوله في السرداب . ولم يكن يستفيق [illegible] من تلك العواطف

الفصل الثاني والخمسون

السفر

وبات [illegible] حملة [illegible] وكيف [illegible] على انها [illegible] وهو [illegible] لا [illegible] ثم كيف [illegible] الاحيان [illegible] رأتهم [illegible] مرة [illegible] في حالة [illegible] الاقدار أعدت له [illegible] الى [illegible]

ولا سعادة بدون الحب .. اختلف الناس في تعريف السعادة فجعلها بعضهم في المال وآخرون في الشهرة وآخرون في الصحة وذهبوا فيها مذاهب شتى. لكن المحبين يعلمون أن السعادة في تبادل المحبة بين حبيبين يرحوان ويخافان يلتقيان ويفترقان وهما في كل حال في سعادة الاجتماع اما بالفعل أو بالامل. لا فرق في ذلك رافقها الغنى أو الفقر أو الشهرة أو الضعة . انهما سعيدان في كل حال

شعر عماد الدين بعد تلاوة الكتاب بما لم يشعر به قبل . وأصبح شديد الرغبة في سرعة الرجوع الى القاهرة وكان عبدالرحيم في خلال ذلك واقفاً يراقب حركات صديقه مخافة أن يكون في ذلك الكتاب ما يبعثه على تغيير خطته وهو يحب أن يدخله في طغمة الاسماعيلية . وانتبه عماد الدين لنفسه فرأى صديقه قاعداً بجانبه فقال له « اني أشكرك ايها الصديق على هذه الخدمة الثمينة جزاك الله خيراً »

قال « هذا واجب أديته لاتصل لي به . وهل اذا اتيح لك أن تخدمني مثل هذه الخدمة تتأخر ؟ »

فدارت النخوة في رأس عماد الدين وقال « افديك بروحي » ولم يقل ذلك حتى أحس شيء في داخله يعترض ذلك القول لانه شعر من تلك الساعة أن روحه ليست له أو هو يود البقاء ليرجع الى حبيبته ويتمتع باللقاء

أما عبد الرحيم فاعجبه ذلك التعبير منه وقال « سترى من هو اولى مني بالفداء . ان الشيخ راشدالدين امامنا ومولانا نفديه كلنا بار واحنا. وستذوق هذه اللذة متى ضرب واحداً منا هل أنت عازم على الدخول معنا في هذا الامر ؟ أم غيرك هذا الكتاب ؟ » وضحك

قال « لم يغيرني شيء وما هو السبيل الى ذلك ؟ كيف أذهب والى اين

وما هي الطريقة . أرجو أن تساعدني وترشدني »

ففرح عبد الرحيم وقال « اني طوع ارادتك . سأعطيك كتاب توصية الى دوس نائب مولانا الشيخ الاكبر وهو يقيم معه في قلعة مصياف من جبل السماق من أعمال حلب ثم ألحق بك بنفسي — يمكنك السفر اليوم. هل تعرف الطرق ؟ »

قال « أعرفها جيداً لاني ربيت في هذه البلاد »

فاخذ عبد الرحيم رقاً وكتب فيه توصية الى الشيخ دوس نائب شيخ الجبل فتناولها عماد الدين وودعه وركب جواده قاصداً جبل السماق . وهو جبل عظيم من أعمال حلب يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع كلها للاسماعيلية وفيه بساتين ومزارع لسكن المياه الجارية فيها قليلة الا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواضع مخصوصة ومع ذلك ينبت فيه جميع أشجار الفواكه وغيرها حتى المشمش والقطن والسمسم

وقد اشتهر جبل السماق بالقلاع التي فيه للحشاشين الاسماعيلية وهي عديدة أشهرها مصياف وكهف والخوابي وعليقة ومرقب والرصافة وغيرها . فمما منها هنا مصياف وفيها يقيم زعيم الاسماعيلية راشد الدين وهي على مسافة ١٢ ساعة من حماه غرباً

الفصل الثالث والخمسون

قلعة مصياف

اشهرها القلعة في بلاد الاسماعيلية لانها مقر شيخ مشايخ الطائفة فيها وهي واقعة على جبل مصياف وهو جبل شاهق يحيط به من الشرق والغرب مستنقعات واسعة . ينتهي من الشمال بقمة عالية فوقها قلعة منيعة هي مقر شيخ الاسماعيلية ومن اسباب مناعتها انها قائمة على صخر جوانبها عمودية

يعسر تسلقها . وتشرف على ما يحيط بها من المستنقعات من كل ناحيـة .
ومن جملة ذلك واد يقيم فيـه بعض الفلاحين يزرعون الحنطة والشعير .
وعلى مسافة من الجبل بلدة مصياف يسكنها طائفة من العامة (١)

اما القلعة فانها محاطة بسور غليظ ليس له الا باب سقفه عقـد متين
اذا دخل الرجل منـه سار فى دهليز كله معقود يتصل من الداخل الى قمة
القلعه وما وراءها وفوقها من الغرف . وكلها مبنية من الحجر الصلد . وعلى
السور ابراج متلاصقة تقيم فيها الحاميـة ترمي الهاجمين عليها بالسهام أو
الحجارة قبل وصولهم الى الباب بمسافة بعيدة بحيث يستحيل احدها بالهجوم
الا بعد قتل المئات والالوف

بوح عماد الدين بيت المقدس على جواده . وله الى جبل السماق عدة
طرق لكنـه احب ان يمرّ بدمشق مرتع صباه وقد اساقت نفسه الى
رؤيتها ومشاهدة بساتينها . فوصلها بعد بضعة ايام وكان وصوله اليها قبـل
وصول ابي الحسن بيومين وظل متنكراً لم يطلع احـداً على حقيقة حاله .
لكنه طاف المدينة وزار القلعة وشاهد كثيرين ممن يعرفهم . واتفق رجوع
السلطان نور الدين من الميـدان فرآه عائداً على جواده وحوله الامراء
والاعوان . ففرح برؤيته لكنه بذل جهده في التنكر لئلا يشعر به احد
وهو يعلم ما بين نور الدين وصلاح الدين من الفتور ويود زواله لكنـه
يميل ان يكون مولاه صلاح الدين الرابح

قضى معظم النهار في دمشق — أكل من طعامها وفاكهتهـا وتمتع
بمناظرها ومرّ عند خروجه بغوطتها ولعله مرّ في نفس المكان الذي اجتازه
ابو الحسن بعد يومين . وبات تلك الليلة فى قرية بضواحي دمشق . وقام

---

(1) Burckhardt Travels in Syria and the holy Land London 1822 150

في اليوم التالي قاصداً جبل السماق وبات الليلة الثانية في بعض الخانات وقضى معظم اليوم التالي في الطريق . وكان في امكانه الوصول الى مصياف في اصيل ذلك اليوم لكنه فضل الوصول اليها في الصباح التالي

فبات في بعض القرى وركب في الصباح وبعد ساعتين اطل على جبل مصياف وعلى قمته القلعة تناطح السحاب . وبالله ما رآه من مناعتها ورسخ في اعتقاده انها امنع من عقاب الجو . ترجل هناك فجاءه شيخ من الفلاحين يعرض عليه خدمة يؤديها وقد ظنه من كبار الاسماعيلية وهم يعهدون فيهم الشدة والقسوة وكثيراً ما يهددوا العمال بهم ويخوفون من جاء لمناصبتهم من الجنود الشامية او الحلبية او المصرية فضلاً عما يتناقلونه من كرامات الشيخ راشد الدين وهم يسمونه شيخ الجبل باسم الحسن بن الصباح مؤسس هذه الطائفة . حتى اوشكوا ان يؤلهوه لما استولى عليهم من الاعتقاد بكرامته ان لا يحدث حادث غريب مخيف الا نسبوه اليه ولو كان من العوارض الطبيعية كالمطر والرعد والبرق واصبح اسمه مرادفاً لاعدائه وتعويذة لمريديه

وكان هم عماد الدين عند وصوله ان يلقى الشيخ دبوس ويدفع اليه كتاب التوصية الذي يحمله من عبد الرحيم فلما جاءه ذلك الفلاح الشيخ سأله عماد الدين عن راشد الدين اين هو

فاحمر الرجل وتفرس في عماد الدين وقال « يظهر انك غريب عن هذه الديار يا سيدي ؟ »

قال « نعم »

قال « وما الذي جاء بك الى هنا وماذا تريد من شيخ الجبل ؟ »

قال « اني احمل كتاباً الى نائبه الشيخ دبوس »

قال « دبوس ! [illegible]

فانه لا يطمع احد برؤيته . حتى اصحابه واعوانه انهم لا يرونه ولا يؤذن لاحد برؤيته الا في بعض الاحوال الخصوصية »

فقال عماد الدين « وانت من انت يا عماه ؟ ألعلك من رجاله .. »

فقطع الشيخ كلامه قائلاً « حبذا ذلك .. ان مثلي لا يطمع بهذا الشرف ويكفيني من جواره ان اقوم بخدمته بما اغرسه من الحنطة او نزرعه من الماشية له ولرجاله في مقابل بقائنا في قيد الحياة »

قال « والان احب ان اقابل الشيخ دبوس فهل ذلك ميسور ؟ »

قال « لا ادري . اعطني الكتاب اذا شئت لاوصله الى بعض رجاله فيوصله اليه ثم آتيك بالجواب »

فدفع اليه الكتاب فتناوله وركض نحو الجبل ومكث عماد الدين في انتظار عودته وقد أمسك زمام فرسه بيده وادار بصره في ما يحيط به من السهل المتسع وذلك الجبل الشامخ القائم في صدره وفوقه قلعة مصياف وقد أحدق بها السور والابراج . ولم يقدر أن يتبين طريقاً يتصل به اليها كأن أهلها يصعدون اليها على أجنحة النسور أو في المناطيد . فهاله ذلك وتمثل له الخطر المحدق بمن ينوي براشد الدين شراً . لكنه ازداد رغبة في استطلاع أحوال ذلك الرجل — واما أن يفتك به أو يقرب ما بينه وبين صلاح الدين

الفصل الرابع والخمسون

الشيخ دبوس

قضى في ذلك ساعة ثم رأى الشيخ الفلاح راجعاً ومعه شاب في لباس الفداوية بالسراويل القصيرة حاسر الرأس حافي القدمين عاري الصدر

كأنه من العفاريت . فلما وصل الى عماد الدين حياه ثم سأله عن غرضه فقال « أحب ان اقابل الشيخ دبوس ؟ »

فمد يده وفيها كتاب التوصية وقال « هذا هو كتابك وما هو اسمك ؟ »

قال « عبد الحمار »

قال « وتريد أن تقابل الشيخ دبوس ؟ »

قال « نعم »

قال « اتبعني »

فتبعه ماشياً يقود فرسه والشاب يسير بين يديه وهو يتلفت اليه يجيل نظره فيه كالمتفرس فاستغرب عماد الدين تلفته وتفرسه ولو كان جباناً لوقع الرعب في قلبه ولكنه كان شجاعاً لا يعرف الخوف

وبعد قليل وصلا الى قاعدة الجبل فاشار اليه الشاب أن يترك الجواد هناك ويتبعه فتردد عماد الدين لحظة فقال له « لا بد من ترك الجواد هنا والا فارجع من حيث أتيت »

فاطاعه ومشى في أثره في طرق متعرجة بعضها محفور في الصخر وبعضها سلالم من الحجر يصعب سلوكها . والرجل يقفز بين يديه كالنمر لا يبالي بالتعب وعماد الدين يجاريه لئلا يظهر عليه الضعف وهو أبيّ النفس

وبعد الصعود ساعة في تلك الطرق المتعرجة وصلا الى باب القلعة وهو غليظ متين . فوقف الشاب واشار الى عماد الدين أن ينتظر وتقدم هو الى الباب ودقه دقا خصوصياً ففتح وكان لفتحه صرير شديد فدخل واغلق الباب وراءه وظل عماد الدين واقفاً ينظر الى ذلك البناء المنيع وهو لا يرى منه غير السور الغليظ وعليه الابراج . ولمح من سقوف الابراج أو نوافذها الضيقة اناساً يذهبون ويجيئون كأنهم الحامية

وبعد قليل عاد الرسول وقد لطف لهجته وأشار الى عماد الدين ان يدخل فدخل من ذلك الباب تحت العقد العليظ ومشى في دهليز طويل معرج سقفه معقود وأرضه من الصخر الخشن . وقد وقف الى جانبيه الحراس بالحراب والسيوف كأنهم أصنام لا يتحركون . فهاله ذلك المنظر لكنه تشدد وتجلد وصمم على الصبر الى النهاية

سار في ذلك الدهليز مسافة وانتهى منه الى منفذ يستطرق الى ساحة حولها أبواب مغلقة فاشار اليه الرسول ان يتبعه ففعل حتى وصل الى باب منها فطرقه . ولما فتح تقدم الرسول الى عماد الدين ودفع اليه كتاب التوصية وتراجع وأشار اليه ان يدخل فتقدم ورأى نفسه في حجرة ببابها حراس بالحراب أشاروا اليه برؤوس الحراب أن يدخل فدخل . ثم وقف وتلفت فاذا هي غرفة واسعة قد فرشت بالسجاد وغطيت جدرانها بانواع الاسلحة. وفي جوانبها ضروب من آلات العذاب كالقيود والاغلال . وحول جدرانها مقاعد من الحجر المنحوت في ذلك الصخر فوقها غطاء من جلود الدب والاسد . وليس في تلك الحجرة حينئذ احد غير الشيخ دبوس رآه جالساً في صدر الحجرة على جانب من ذلك المقعد وعليه جبة تكسوه كله وعلى رأسه عمامة حمراء كبيرة فالقى التحية وقال « ألعلي في حضرة الشيخ دبوس ؟ »

فاشار الشيخ برأسه ان « نعم » وأومأ اليه ان يتقدم ويعطيه الكتاب ففعل فناوله ففضه وقرأه . ولما فرغ من قراءته اومأ الى عماد الدين ان يجلس وهو يقول « ان ولدنا عبد الرحيم يوصينا بك خيراً . تفضل يا عبد الجبار اقعد »

فقعد على طرف المقعد وهو ينتظر ما يكون فقال له دبوس « يقول لنا عبد الرحيم انك نطاب نعمة القربى من سيدنا وامامنا راشد الدين »

قال « نعم يا سيدي وهل هذا ميسور لي ؟ »
فاطرق يفكر ثم قال « انه ميسور على شروط »
قال « وما هي يا سيدي ؟ »
قال « اعلم يا عبد الجبار انك قبل كل شيء ينبغي ان تنقي قلبك وتصفي نيتك وتستسلم الى هذا الامر بكليتك هل انت فاعل ذلك ؟ »
قال « نعم »
قال « احذر ان تخدع نفسك فاني لا اقدر ان اعرف خفايا قلبك ولكن المولى الشيخ الاكبر لا تخفى عليه خافية .. انه فاحص القلوب اذا نظر في عينيك عرف مكنونات قلبك . واذا كنت في شك من نيتك واستسلامك ارجع من هنا ولا تعرض نفسك للخطر .. اني انصح لك بناء على ما قرأته في كتاب الوصية من البناء على شجاعتك وصداقتك .. واما اذا وقد كنت أوتيت النعمة والهمت الانتظام في عقد السالك والحصول على العهد فقد سعدت نفسك الدنيا والآخرة واذا تاركك يوما كاملا تفحص فيه ضميرك وتخبرني بما يقر عليه رايك »
فوقع كلام الشيخ من نفسه وقعا شديدا وعلت عليه التردد وقام في اعتقاده صدق ما سمعه عن شيخ الجبل من اسطلاع خفايا القلوب . ولكنه تجلد واظهر الثبات في عزمه وقال « اني على ما قلت وسأعود يوما آخر حسب امرك وأحييك »
[illegible] وقال له « فاخلع ما عليك من السلاح وهات ما عندك من الاسلاب او النقود او غيرها [illegible] عادتنا في مثل [illegible] [illegible] ولا شيء لك [illegible] فان هذه الاشياء تبقى عندي باسمك »
[illegible] هذا الطلب عليه [illegible] . وقد [illegible] عليه ان يفارق [illegible]

فقال له دبوس « اعلم يا بني أن طالب الحصول على عهد مولانا الشيخ لا بد له من الاستسلام لكل مايؤمر به بلا تردد . وقد خيرتك في الدخول أو عدمه عملاً بتوصية عبد الرحيم لانه دو مقام عندنا . فادا رأيت العدول عن عزمك رددنا أشياءك اليك »

فلم ير بداً من الطاعة لانه لم يوفق الى دفاع فمد يده واستخرج خنجره من منطقته ودفعه اليه ثم استخرج ما كان عنده من الجواهر أو النقود ودفع كل ذلك الى دبوس وقد أحس بالخوف من الخديعة لكنه اطمأن نوعاً لما رأى الشيخ يبش له وقد وضع أشياءه كلها في منديل واخفاه في حفرة باسفل المقعد . وأومأ اليه ان يخرج الى غرفة أخرى يستريح فيها . فخرج وقاده أحد الحراس الى حجرة خلا فيها بنفسه وأخذ يفكر في ماسمعه وتحقق الخطر الذي أوقع نفسه فيه وأصبح لا يعرف ماذا يعمل — أيعدل عن مهمته بعد أن وعد صلاح الدين بها أو يعرض نفسه للخطر بالدخول . وتذكر ما سمعه من صديقه عبد الرحيم عن كرامات راشد الدين وما هو شائع من هيبته واقتداره فوقع في حيرة لان رجوعه عنها يحط من قدره عند صلاح الدين وعند حبيبته أو على الاقل يحط قدره عند نفسه فانها لا تطاوعه على الجبن . ودخوله يعرضه للقتل أو لخيانة صلاح الدين

وكان يفكر في ذلك وهو يمشي في تلك الحجرة وليس فيها شيء من الأثاث سوى حصير وبساط قديم فاطل من نافذة صغيرة فاشرف على ما يحيط بحمل مصياف من المستنقعات والسهول والروابي والاوديه الى مسافة بعيدة واستغرق في افكاره حتى نسي موقفه . ثم اجفل لانه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى رجلاً كالخادم اتاه بالطعام ودعاه الى الاكل وخرج . فاشار عماد الدين شاكراً وعاد الى تفكيره ونفسه لا تطلب الطعام

لفرط اهتمامه وقلقه . وحانت منه التفاتة وهو يجيل بصره في ذلك الفضاء الى سور عال يحيط بواد لا يظهر منه غير السور فظنه قلعة أو حصناً يلجأ اليه الاسماعيليون عند الاضطرار

الفصل الخامس والخمسون

المعجزة

وعاد الى هواجسه وهي تتعاظم وتتكاثف حتى ضاق صدره من كثرة التردد وهو الى تلك الساعة لم يذق طعاماً فاحس بالجوع فتحوّل نحو الطعام الذي اتوه به وهو قاصر على بعض الأثمار وشيء من الخبز واللحم فمد يده الى الرغيف وكأن شيئاً ارجعها عنه وخطر له سوء الظن فقال في نفسه « قد يكون هذا الطعام مسموماً » ثم تذكر صديقه عبد الرحيم وتوصيته لدبوس فغلب عليه حسن الظن واكل ما اشتد رمقه واقتصر على الأثمار لأنها ابعد ما يكون عن التسميم

وهو يأكل سمع ضوضاء في الساحة فنهض ونظر من الباب فرأى جماعة من أهل القلعة وفيهم الحراس والاجناد يتهامسون و يتضاحكون والبشر ظاهر في وجوههم . فخاف أن يكون لذلك علاقة بوجوده هناك أو ربما كان عليه خطر فاصاخ بسمعه واذا هم يتكلمون لغات مختلفة لان رجال الاسماعيلية اخلاط من أمم شتى وفيهم العربي والتركي والفارسي والكردي والشركسي يتكلمون كل هذه اللغات وانما تغلب العربية على السنتهم

وبعد التمعن وامعان الفكرة سمعهم يذكرون السلطان نور الدين وكأنهم يذكرون موته فغالط سمعه ولم يصدق لانه فارق السلطان منذ يومين بصحة تامة ورآه عائداً من الميدان على جواده بالامس وتوهم انهم

يستيعون ذلك رغبة في اجتماع كلمتهم . وهو يفكر في ذلك جاءه رسول من الشيخ دبوس يدعوه اليه فاسرع فى اثره الى مجلس دبوس فرآه قاعداً في صدر الغرفة وبين يديه جماعة من الامراء بلبـاس متشابه وعلى رؤوسهم العمائم تقرب من عمامة دبوس . وعلم على اعتقاده انهم من رجاله وكلهم مستبشرون ضاحكون

ولما وقف عماد الدين امامهم خاطبـه دبوس قائلاً « أأنت قادم من بيت المقدس ؟ »

قال « نعم »

قال « ألم تحمل طريقك على دمشق ؟ »

قال « بلى »

قال « كيف كان سلطانها الاتابك نور الدين هل شاهدته ؟ »

قال « نعم شاهدته على جواده عائداً من الميدان نحو الظهر »

قال « ومتى كان ذلك ؟ »

فاطرق عماد الدين وهو يحسب الوقت ثم قال « منـذ يومين وبعض اليوم »

قال « لـكنه مات في هذا الصباح رحمه الله »

فاجفل وبانت البغتـة في وجهه وقال « مات ! هل انتم على ثقة من ذلك ؟ لا اظن الخبر صادقاً .. ثم كيف يموت فى هذا الصباح ويصل خبره الى هنا الآن وبيننا وبين دمشق اكثر من يومين ؟ »

فضحك ضحكة استخفاف وضحك الجلوس معه وهم يتلفتون بعضهم الى بعض ثم قال دبوس « لا لوم عليك يا بني وانت لا تعرف مصدر هذا الخبر انه لم يأتنـا بالبريد وانما هو وحيٌ هبط على مولانا الامام الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته وكراماته -- كذلك فعل يوم مات الامام العاضد

بمصر فقد جاءه علمه في يوم موته — ومصر ابعد من دمشق. وكذلك خبر المؤامرة التي قتل فيها عمارة واصحابه » ثم نظر الى الجلوس كأنه استشهدهم فبدت على وجوههم امارات المصادقة

فدهش عماد الدين ومع ذلك ما زال يظن في الامر خداعاً للايهام وان نور الدين لم يمت وقال في نفسه « اذا ثبت موته بورود المرسوم من دمشق على جاري العادة فان لهذا الشيخ لشأناً عظيما »

ولحظ الشيخ دبوس تردده ودهشته فقال له « لا تستغرب ما تسمعه يا بني انك اذا تمت النعمة عليك ووفقت الى الدخول في طريقتنا رأيت اعجب من ذلك . ان مولانا الشيخ الاكبر يخاطب الحجارة فتجيبه حتى الميت اذا كلمه اجابه في الحال » والتفت الى القوم وقال « واريدكم بياناً ان مولانا الشيخ حرسه الله اخبرني عن سبب موت هذا السلطان قال انه توفي بعلة الخوانيق » ثم حول نظره الى عماد الدين وقال « ونحن ممهلوك الى الغد ريثما يأتي المرسوم اذا شئت »

فوقع عماد الدين في حيرة عظيمة مما سمعه ورآه واوشك ان يعتقد بكرامات راشد الدين . لكنه تمهل الى ورود المرسوم وعظم امر هذا الشيخ في نفسه . فقال له دبوس « تفضل يا بني الى غرفتك حتى يستقر رأيك وانا انما دعوتك لعلمي انك قادم من دمشق لعلك علمت شيئاً من مقدمات موت نور الدين وانعلم ايضاً ان صديقك عبد الرحيم اخلص النصح لك . اتم الله نعمته عليك وعليه لانه هو ايضاً مرشح للارتقاء في هذه النعمة اذ بمال الجتهد فيها نصيبه - هذا كلام لا تفهمه الآن ولكن سوف تفهمه . تفضل . » وامار اليه ان ينصرف

فعاد الى غرفته وهو كالتائه عن الرشد لا يعرف كيف يعلل ما يشاهده من الغرائب المدهشة . وعزم في سره اذا تحقق موته عن موت

نور الدين ان يلتمس الدخول في تلك الطغمة بلا تردد . وودّ لو كان صديقه عبد الرحيم هناك ليستفهمه عن بعض ما اشكل عليه ويستزيده بياناً

الفصل السادس والخمسون

عبد الرحيم

بات تلك الليلة كالتائه في البحران وتوالت عليه الاحلام وافاق في الصباح على نقر باب حجرته . فذعر وجلس حالاً فاذا بصديقه عبد الرحيم واقف بين يديه فاحسّ عند رؤيته بارتياح عظيم وقد خف قلقه واطمأن باله كأنه لقي اباه او اخاه واستأنس به كثيراً فاكب عليه وعانقه واوشك الدمع يتساقط من عينيه لشدة التأثر

وعانقه عبد الرحيم وهو يبتسم وقال له « يظهر من تلهفك لملاقاتي انك كنت في ضيق »

قال « لم اكن في ضيق ولكنني متردد في امور لا ارى لي فرجاً الا على يدك . واشعر انك اخي او ابي واني اتكالي عليك وهناك اشياء احب ان استشيرك فيها »

وهش له عبد الرحيم مطمئناً . فاسار اليه عبد الجبار قائلاً « اقعد . . من اين أنت آت ؟ »

فقعد وهو يقول « اني آت من عند الشيخ دبوس وقد قص عليّ ما اعجبه من ذكائك وسجاعتك . وانه تلطف في معاملتك وامهلك حتى تفكر في أمرك »

قال « نعم . وهذا ما أحب الاستفهام منك عنه . . ادهشني أمر لم أقدر على تفسيره »

قال « وما هو ؟ »

قال « أخبرني الشيخ دبوس في ظهر الامس ان السلطان نور الدين صاحب دمشق مات في الصباح . وانا رأيته بعيني قبل ذلك بيومين راكباً على جواده سليماً معافىً والصحة تتجلى في وجهه بعد أن قضى يومه مع سائر رجال دولته في السباق »

فقال عبد الرحيم « هذا كله صحيح — نعم انه عاد من ذلك الميدان صحيحا معافى لكنه لم يصل القلعة حتى أحس بألم في حلقه ظهر بالفحص انه الخوانيق »

فأطرق عماد الدين وقد نابت الدهشة في عينيه وهان عليه ان يصاب نور الدين بالخوانيق على أثر رؤيته اياه على جواده وقال « اظن أن المرض جاءه بغتة ولم يكن يتوقعه أولاً . لكن اذا فرضنا وقوع ذلك فعلاً ومات نور الدين صباحاً فكيف وصل الخبر الى هنا قبل الظهر ؟ »

فضحك عبد الرحيم وقال « ان ذلك يا عماد الدين من كرامات مولانا الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته . ألم اقل لك شيئا من ذلك ونحن في بيت المقدس ؟ انه طالما انبأنا بالاخبار حال وقوعها وان كان بيننا وبينها مسافة ايام وليس هذه أعجب كراماته كما سترى وهل تظن سطوته وقوة نفوذه لا أساس لها ؟ كيف يخضع له الالوف من الناس وفيهم العقلاء والحكماء ان لم يروا فيه ما يستحق ذلك ؟ اتعلم ان أتباعه اليوم يزيدون على ستين الفاً من شجعان الناس وفيهم الفرسان والابطال و قواد وكل واحد منهم طوع ارادته يقتل نفسه في طاعته . اتظن ذلك يقع عبثاً بلا استحقاق ؟ »

فقال عماد الدين « أأنت تشير عليّ اذاً أن [illegible] »

قال « هذه نصيحتي لك »

قال « [illegible] »

قال « لاخوف عليها . فاذا رجعت عن هذا الامر انا اضمن ارجاعها اليك . ولا أظنك راجعاً عنه ولا سيما بعد ان ترى الشيخ الاكبر نفسه وتسمع اقواله وتختبر كراماته .. انها كثيرة انما ... » وسكت كانه اراد ان يقول شيئاً وندم عليه

فقال عماد الدين « اراك تتردد في نصحي »

قال « معاذ الله يا أخي . أنت تعلم اننا تحاببنا وتصادقنا لغير عرض سوى تقارب القلوب . ولما كانت جماعتنا هذه تضم خيرة الشجعان وذوي البسالة رأيتك أهلاً للانتظام في سلكها . وسوف تحمد مغبة نصحي . لكنني اتردد في أمر احببت ان ابوح به لك تخفيفاً من قلقك . . لكنه محظور عليّ . فسكتُّ »

قال « اذا اطلعتني على شيء يخفف قلقي فانني ساعمت فصلك ولا يعلم به احد . اعاهدك على ذلك »

قال وهو يخفض صوته « متى رضيت الدخول فانهم سيمتحنونك باشياء لا يصبر عليها الا الشجاع ثابت الجأش وانت كذلك . لكني احببت ان اريدك اطمئناناً ان ما يظهر لك من تلك التجارب خطراً او مستحيلاً ليس هو في الحقيقة الا ظاهرة لا طائل تحتها وانما يراد بها امتحان شجاعة الطالب فمهما طلب منك ان تعمله اعمله ولا تخف . لا أقدر ان اوضح لك اكثر من ذلك .. »

فقال عماد الدين « يمتحنون شجاعتي ؟ فليمتحنوا . لا ابالي وانت تعلم ذاك ولكنني أحب أن أعرف شيئاً آخر . هل تطلعني على حقيقته ؟ »

قال « قل ما تريد لعلي استطيع »

قال « كل ما اعرفه من امر هذه الطائفة ان زعيمها راشد الدين رجل حكيم ذو كرامات وان اتباعه يطيعونه طاعة عمياء يبذلون انفسهم في طاعته .

لكنني لا أعلم ما يناله اولئك الاتباع من المكافأة. وهل هم درجة واحدة او درجات فقد رأيت بعضهم كالخدم او الجند وآخرين كالامراء وهذا دبوس كالملك فما هو نظام هذه الطائفة او الدولة انها غريبة في بابها .. »

قال « صدقت ان نظامها غريب لم ينسج على منواله ولا بأس من ان اقص عليك خبر هذا النظام باختصار . اعلم يا عبد الجبار ان جماعتنا هذه التي ارعبت العالم بتدبيرها وبسالة شبانها مؤلفة من طبقتين الفدائيين والمستنيرين وفوقهما الزعماء واصحاب الاسرار الحقيقية . وأول ما يدخل الاسماعيلي يكون فدائياً فاذا استحق الترقي صار مستنيراً .. انا لا ازال الى اليوم من الفدائيين (الفداوية) .. »

فقطع عبد الجبار كلامه قائلاً « اذا دخلت انا بدءاً اكون مثلك ؟ »

قال « نعم لكنني الآن مرشح لنيل العهد فاصير مستنيراً عن قريب .. لان مهمتي التي ذهبت بها الى بيت المقدس كانت آخر تجربة في سبيل الترقي وقد جئت الى هنا لكي اقتبل الامر الجديد في طبقة المستنيرين »

قال « بماذا استحققت هذا الترقي ؟ »

قال « استحققته بصدق الخدمة في مصلحة الجماعة وبذل النفس في سبيل الطاعة . ولا بد لكل فدائي ان يفعل ذلك قبل ان يصير مستنيراً . واما انت فارجو ان يسرع ترقيك لانك اهل لذلك بما فطرت عليه من المروءة وعلو الهمة . وليس في طلاب الانتظام كثيرون مثلك ولذلك فارجو ان ترتقي على عجل »

فاطرق عماد الدين (او عبد الجبار) حيناً يفكر في امره وفي اتصال مهمته وما خلفه وراءه في مصر من البواعث التي تقتضي سرعة عودته ولا سيما سيدة الملك فانها اصبحت بعد رحيله [illegible] من بعدها لا تبرح من

باله . لكنه اطمأن عليها وهي في كنف صلاح الدين . ولحظ عبد الرحيم تفكيره فقال له « لا حاجة الى التردد ان دخولك في هذا السلك اصبح امراً مقضياً ولا بأس عليك منه . لكنني احب ان تؤخره الى مجيء المرسوم من دمشق بموت السلطان نور الدين . وتتأكد كرامة امامنا راشد الدين قبل الدخول في طاعته .. »

فخجل عماد الدين عند سماعه ذلك لانه كان يفكر فيه ويخشى ان يقوله لئلا يدل على ضعف الثقة فبادر الى الجواب قائلاً « اني واثق بما سمعته رغم غرابته عندي »

قال « ليس هو غريباً علينا وسترى ما هو اعظم منه . والآن استرح وكن مطمئناً انك اذا عدلت عن الدخول لا يصيبك اذى ومولانا الشيخ الاكبر لا يقبل كل من يطلب الانضمام واذا شئت ان تتحقق قولي تعال معي لاريك جماعة من اولئك الطلاب » قال ذلك ونهض . فتبعه عماد الدين والدهشة غالبة على عقله

فسارا في طريق ضيق في شعب ذلك الجبل الى ساحة سمعا فيها الضوضاء قبل ان يصلوها . فوقفا واصاخ عماد الدين بسمعه فسمع عربدة وغوغاء بلغات مختلفة ونغمات متفاوتة . ثم مشى به حتى اطل من وراء حائط على بقعة اردحم فيها الرجال جماعات بين جلوس يتسامرون او وقوف يتخاصمون واكثرهم في حال الخشونة تدل ملامحهم وثيابهم على الوحشية . فقال عبد الرحيم « انظر يا أخي هؤلاء هم طلاب الدخول وانت ترى الوحشية والعربدة وسفك الدماء في ملامحهم . وقد اشتهرت جماعتنا هذه بالفتك فكل من يهون عليه قتل الامراء ويضيق به الرزق يأتي الينا . ولكن غرضنا اسمى من ذلك على ما اظن وان كنت الى الساعة

لم اطلع على سره الحقيقي . فهؤلاء يعدون بالعشرات كما ترى . وهم هنا منذ ايام لم يحفل الشيخ دبوس بهم ولا اظنه يجيب طلب غير القليلين منهم . اما انت فقد علم امتيازك عنهم ولهذا السبب ارجو ان لا يبطىء في ترقيتك الى طبقة المستنيرين »

وهما في ذلك رأيا رجلاً كرديا من اولئك وقف وبيده جمجمة صب فيها خمراً وتمايل عجباً ثم شربها وهو يزدري رفاقه ويفاخرهم ببسالته وخشونته . فغضب واحد من رفاقه الاتراك وهزأ به واطلم تلك الجمجمة بقفا يده فرماها وتناثر ما كان فيها من الخمر على الارض . فضحك الرفاق وقهقهوا وقد اعجبهم عمل ذلك التركي . فلم يصبر الكردي على الاهانة فاستل خنجره وطعن التركي طعنة قضت عليه . فهمّ الآخرون ان يهجموا له فصاح بهم عبد الرحيم واوقفهم وهددهم واشار الى بعض الحرس ان يقبض على القاتل . ففعل ريثما يرفع امره الى الشيخ الاعظم

الفصل السابع والخمسون

راشد الدين

ولم يزدد عماد الدين بذلك الا دهشة مما رآه وسمعه ورجع الى حجرته وذهب عبد الرحيم لشأنه . وأتاه في اليوم التالي وقد جاء المرسوم من صاحب [illegible] وفيه [illegible] في الوقت الذي [illegible] الحمل وقرأه الشيخ دبوس [illegible] من [illegible] وقد عاد [illegible] على الدخول في ذلك السلك [illegible] تلك الايام [illegible] جاء من [illegible] وقد [illegible] بين صلاح الدين [illegible] سيدة الملك [illegible] وكيف [illegible] من مقام

الرجل وكراماته جعل مهمته شاقة لـكنه صمم على القيام بها . وكان يتردد في الدخول لعله يستطيع تنفيذ المهمة وهو خارج تلك الطغمة فلم ير له بدًّا من الدخول ليستطيع الاقتراب من ذلك الشيخ الامام ويغرس خنجره فيه

وفي اليوم التـالي اصبح عماد الدين وهو على موعد من الدخول على الشيخ الاكبر ليصم الى جماعة الفدائيين . وكان كلما فكر في ذلك احتلج قلبه في صدره . وبعد قليل جاءه صديقه عبد الرحيم وهو يهش له تسجيعاً وطمأنة فقال عماد الدين « هـل اذهب الآن الى الشيخ الاكبر ام الى الشيخ دبوس ؟ »

قال « لا بد من الذهاب الى الشيخ الاكبر بواسطة الشيخ دبوس .. فهل انت متأهب لذلك

قال « نعم » واكبر ان يظهر الوجل فقال عبد الرحيم » هلم بنا الى الشيخ دبوس »

فسيا حتى دخلا عليه واطلعه عبد الرحيم على الغرض . فوجه كلامه الى عماد الدين قائلاً « هل انت مصمم يا عبد الجبار على الانضمام الينا ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

فامره ان ينزع ثيابه التي عليه ويرتدي ثوب ابيض كالقميص الكبير دفعه اليه . فلبسه فجلله الى عقبيه . ثم امره فنزع عمامته وحل شعره وكان طويلاً فارسله على كتفيه . واشار عبد الرحيم اليـه ان يتقدم الى الشيخ دبوس ويقبل يده ففعل . ثم أومأ اليه ان يتبعه فمشى في دهاليز وطرقات والحرس وقوف في جوانبها بالحراب . حتى اطلَّ على رواق يؤدي الى باب كبير عليه ستر وبجانبيه حارسان عظيما الهامة كأنهما من الجان . فلما اقترب عبد الرحيم منهما أومأ اليهما بالاشارة (لانهما اخرسان) ان يأذنا له بالدخول وهما يعرفانه فاذنا له واستبقيا عبد الجبار خارجاً . فوقف وهو مطرق يتردد

بين النـدم والعزيمة . واذا بصديقه قد عاد وقال له « ان الشيخ مشتغل بمحاكمة الـكردي القاتل لـكنه اذن لنا بالدخول »

ومشى فتبعه عماد الدين داخلا قاعة مظلمة في صدرها كرسي كبير قد جلس عليه الشيخ الاكبر والى جانبيه رجال من خاصته جلوس وقد غطوا وجوههم وليس فيهم مكشوف الوجه غير راشد الدين . ولم يستطع عماد الدين أن يتعرف الوجوه هناك الا بعد قليل ريثما تعود نظره الظلمة . فرأى ذلك الـكردي واقفاً وهو موثق اليدين . وفي وسط القاعة جثة القتيل ملطخة بالدماء . فأشار عبد الرحيم الى عماد الدين أن يقف معه في ناحية فجعل واخذ يتفرس براشد الدين فاذا هو مكتس برداء أسود يغطيه كله الا وجهه. وقد بانت الشيخوخة في ذلك الوجه بتجعده و بياض لحيته لكن عينيه تبرقان كالسراجين يكاد الشرر يتطاير منهما . وما عتم ان صاح راشد الدين بذلك الـكردي قائلاً « اتجسر يا هذا ان تقتل نفسا في جوارنا »

وصاح الرجل « اني لم أقتله يا مولاي وانما هم يتهمونني زوراً »

قال « وتكذب أيضاً ؟ أتحسب ذلك يخفى علينا . ألا تعلم اننا نفحص القلوب ونعرف أسرارها »

فعاد الرجل الى الانكار وقال « انهم يتهمونني ياسيدي زورا .. اذا شئت أن آتي بالشهود أو اقسم لك ببراءتي فعلت »

قال « لا حاجة بنا الى شهود أو قسم انا نسأل هذا القتيل وهو ينبئنا بالحقيقة »

فلما قال ذلك أجفل عماد الدين وبغت . ورأى راشد الدين قد وقف وانتصب كالسهم ثم خطا خطوة نحو القتيل وصاح به وهو يشير اليه باصبعه كأنه يهدده « ألم يقتلك هذا الـكردي ؟ قل »

فكان السكوت مستولياً على الجلوس وقلوبهم تخفق تطلعاً الى ما يكون

فسمعوا القتيل يقول بصوت ضعيف « بلى هو قتلني »

فسأله ثانياً « بماذا قتلك ؟ »

فاجاب « بخنجره »

فلما سمع عماد الدين ذلك اقشعر بدنه . . كيف لا وقد سمع الميت يتكلم وهو على ثقة من تلك الحادثة لأنه رآها بنفسه . اما راشد الدين ورجع الى مقعده واشار الى بعض الوقوف بين يديه من رجاله أن يذهبوا بالرجل الى السجن وان يدفنوا القتيل ففعلوا . وقد استولت الدهشة على الحضور ولا سيما عماد الدين

وبعد قليل أشار راشد الدين الى الوقوف في مجلسه بالانصراف ولم يبق غير بعض خاصته الملثمين . واومأ الى عبد الرحيم أن يقدم عبد الجبار فقاده بيده حتى أوقفه بين يديه فوقف وركبتاه ترتعدان من التهيب وقد عظم أمر راشد الدين في خاطره

فوجه هذا كلامه الى عماد الدين قائلاً « وانت يا عبد الجبار أرجو أن تصدقنا ولا تفعل كما فعل هذا الكردي .. أنت كردي أيضاً لكي اقرأ في وجهك الصدق — انت تطلب الانضمام الى رجالنا ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

قال « وهل تعلم ما أنت مقدم عليه من الامر العظيم ؟ »

قال « نعم »

قال « لا تخدع نفسك .. اذا كنت متردداً أو خائفاً ارجع من حيث أتيت . ونحن انما نطلب رجالاً أهل بسالة وصدق . وهل تعرف الخطر الذي يحدق بك ؟ »

قال « نعم »

فتنحنح وقال « ما الذي حملك على هذا الامر ؟ »

قال « ان اتشرف بخدمة مولانا الشيخ الاعظم »

قال « من اين أتيت ؟ »

قال « من بيت المقدس » وخاف ان يسأله عن حقيقة غرضه فينكشف امره ويقع في خطر الموت فارتعدت فرائصه لكنه تجلد وصبر

وقال له راشد الدين « انا اعلم انك قادم من بيت المقدس الآن ولكني أحب ان تخبرني عن المكان الذي جئت منه قبل بيت المقدس . . »

فتحير في الجواب وسكت وهو يفكر في هل يصدقه أم لا . وخاف أن تكون كرامة راشد الدين دلته على حقيقة غرضه الذي جاء من أجله فتلعثم لسانه . فلم يصبر راشد الدين عليه فقال « يظهر انك خائف . . لا تخف يابني . . انك [illegible] ولست من خدمة اولئك الزنادقة الجهلاء . . انا لا اكلفك أن تقول شيئاً وانما استفهم شعرة من شعرك وهي تنبئني »

واشار الى عبد الرحيم ان يأتيه بشعرة من ذؤابة عماد الدين فجاءه بها فتناولها من السبابة والابهام من يده وجعل يخاطب الشعرة قائلاً « يا شعرة عبد الجبار قولي لي اين كان صاحبك قبل بيت المقدس ؟ »

فسمع عماد الدين الجواب آتياً من ناحية الشعرة ضعيفاً كأنه صادر عن وتر رنان وهو « من القاهرة »

فقال « قولي لي اين كان صاحبك هناك ومن هو ؟ »

فقالت « كان عند يوسف صلاح الدين وهو من رجال خاصته »

فلما سمع عماد الدين ذلك أوشك أن يسقط على الارض من الا[illegible] واطرق لا يحير جواباً وخاف أن يتوصل لاستنطاقه [illegible] سر قدومه الى هناك ... ومر عليه دقيقتان هما أطول من سنة . ثم [illegible] راشد الدين [illegible] اسم صلاح الدين ورمى الشعرة من يده وقال « صلاح الدين يوسف ؟ [illegible] الله [illegible] »

فاستغرب عماد الدين قوله وانتعشت آماله لكنه ظل ساكتاً . فقال راشد الدين « كيف فارقت صلاح الدين .. هل هو في صحة وسلامة ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

قال « الحمد لله على ذلك .. » ولحظ عماد الدين تغيراً في وجه راشد الدين، لم يفهم سببه . لكنه ما زال خائفاً من افتضاح امره حتى سمع راشد الدين يخاطبه قائلا « أحمد الله على سلامة صلاح الدين.. والآن هل أنت مصمم على الانضمام الى رجالنا ؟ »

فقال « نعم يا مولاي »

قال « أتعلم ماذا يطلب منك ؟ »

قال « كلا . لكنما طوع أمر مولانا بما يريد »

فابتسم راشد الدين ابتسامة لم تغير شيئاً من انقباض سحنته وقال « اعجبني جوابك يا عبد الجبار . وانت اذا اتيح لك ان تكون من رجالنا كسبت الدنيا والآخرة . لكن ذلك ليس بالامر الهين ... » قال ذلك ووقف واشار اليه ان يتبعه فتبعه وهو يسترق النظر الى عبد الرحيم استئناساً برأيه ولو بالاشارة . فرآه يشجعه ويطمئنه . حتى وصل راشد الدين الى جانب من جوانب تلك القاعة الواسعة المظلمة فوقف وقال لعماد الدين « انظر هنا » وأومأ باصبعه الى حفرة بين يديه

فنظر فاذا هو على شفا هوة لا قرار لها . فقال له « اذا كنت صادقاً في ما تقوله الق نفسك في هذه الهوة »

فاعاد النظر اليها فلم يشك انه اذا اطاعه قتل لا محاله . فالتفت الى عبد الرحيم خلسة فاذا هو يشجعه ويشير اليه بعينيه ان يخطو . وهو واثق بصدق صديقه لكنه خاف ان يكون في الامر دسيسة وان راشد الدين اطلع على حقيقته بمهنه واراد الانتقام منه على هذه الصورة . على انه تذكر

ما نبهه اليه عبد الرحيم من قبل وهو لم يتعود الخوف او التردد فسبقت قدمه الى الوثوب نحو فوهة تلك الهوه مدفوعاً بوعده وشجاعته . فاذا هو قد تلقته عارضة برزت وغطت تلك الفوهة وفتحت فوهة أخرى في المكان الذي كان واقفاً عليه . ولم يصدق انه لا يزال حياً

اما راشد الدين فامسكه بيده وهو يقول « الآن نأ كدت صدقك . ولو لم تصدقني لقتلت لان فوهة الهوة تحولت الى موقفك الاول » وأشار اليه ان يتحول نحو القاعة وهو يقول « قد استحققت النعمة التي تطلبها .. انك منذ الآن من ابنائي الصالحين »

وعاد راشد الدين الى مجلسه وأشار الى واحد من الخدم الوقوف بين يديه بالاشارة ان يأتيه بقدح فأتاه به فتناوله وصب فيها ماء من [illegible] خابيه وقال « هذا ماء الحيوان والترياق النعيم اذا كنت صادقاً وهو سم قاتل اذا كنت كاذباً . فاذا كنت حقاً في وعدك بالطاعة وصدق النية اشربه »

فتناوله وتردد لحظة وهو ينظر الى صديقه عبد الرحيم فرآه يشجعه فشرب ما في القدح وأومأ اليه الشيخ ان يقعد . فقعد واحس بعد قليل بالخدر ثم غاب رشده

الفصل الثامن والخمسون

نعيم الحشاشين

ولما [illegible] الا [illegible]
في حديقة [illegible] الاشجار [illegible]
الاطيار [illegible]
ويده [illegible]

بحلاها لكنه لا يكسوها لشفافته . بيمناها مروحة من ريش النعام تروح له بها . وقد وضعت يسراها على جبينه كأنها تمسح عرقه وظن نفسه لاول وهلة في حلم وخاف اذا نهض ان يفقد تلك المناظر البديعة فصبر قليلاً واذا تلك الحورية تخاطبه بصوت رخيم قائلة «انهض يا حبيبي الى متى الرقاد؟»

فنهض ونظر الى نفسه ورأى عليه ثوبا يشبه اثواب الامراء لم ير على السلطان صلاح الدين أحسن منه . وعلى رأسه عمامة من نسيج مزركش بالقصب . وقد جلس على بساط من أجمل أبسطة عصره عليه الصور المنسوجة بالذهب — فقضى برهة وقد أخذته الدهشة ينظر تارة لنفسه وطوراً لتلك الحورية وآونة لما بين يديه او لما يقع عليه بصره من الاشجار الازهار وما يسمعه من خرير الماء وتجاوب الاطيار وما يفوح من الروائح العطرية مما لم ير مثله ولا خطر بباله

وهو يفكر في ذلك تقدمت اليه تلك المرأة وقد أزاحت نقابها عن رأسها وأرسلت شعرها الذهبي على كتفيها وهي تنظر الى عماد الدين بعينين تكادان تنطقان بعبارات الحب وتسكبان لواعج الغرام على أنه تجلد ونظر اليها وصبر لما يبدو منها فمدت يدها للمصافحة فناولها يده وهو لا يزال يحسب نفسه في رؤيا فقبضت على انامله وهي تقول « ما بالك يا عبد الجبار ألا تزال تحسب نفسك في منام ؟ أنسيت انك شربت ماء الحياة من يد مولانا الشيخ الاكبر ؟ انك في الجنة الآن التي لا يدخلها الا المستحقون ؟

فتذكر القدح الذي شربه من يد راشد الدين فغلب على اعتقاده صدق دعوى ذلك الرجل وأنه في الواقع انتقل الى الجنة بأنهارها واشجارها واطيارها وان هذه المرأة حورية من حواريها . ثم تذكر سيدة الملك فاجفل وقال في نفسه « ما لهذه المرأة تهيم بغاي لتختطفه وهو ليس لي . . ؟

فتباعد عنها فتباعدت وبان العتب في وجهها وتحولت عنه ثم غابت عن عينيه

فتركها ومشى على ارض مكسوة بالعشب الاخضر الملون كالبساط المزركش وقد فاحت منه الروائح المنعشة ووقع بصره عن بعد على قناة يجري فيها الماء لامعاً كانه الزلال وعلى ضفتيها اشجار الفاكهة وقد وقعت اشعة الشمس من خلال الاغصان على ذلك الماء وهو يجري فتلون بالوان قوس قزح . فدنا من تلك القناة ووقف على ضفتها ينظر الى الاشعة الواقعة على الحصى في قاعها كيف تتكسر وتتلون . وهو في ذلك رأى في الجانب الآخر حورية برزت من بين الاشجار ومشت نحوه وهي تبتسم له . فسره أن بينه وبينها قناة تحول دون وصولها اليه وتوقع ان تقف على الضفة الاخرى وتخاطبه . فاذا هي تتجاوز الضفة ولم تزل ماشية اليه فوق سطح الماء ولم تبتل قدماها

وتعاظمت دهشته لما رآها وصلت اليه وقدماها العاريتان تتناقلان فوق سطح الماء الجاري لا تقع فيه ولا تعكره أو تعيق سيره فتحقق لديه أنه في مكان غير الارض وأن أولئك الحواري من الملائكة . ووصلت تلك الحورية اليه والهواء يعبث بشعرها و[illegible] أطراف ردائها وبسطت يدها نحوه كأنها تستقبله وهو يحارب هواه ويلذ [illegible] [illegible] وحبها اياه وبهم بالابتعاد . ورأى في وجه تلك [illegible] [illegible] يشبه ملامح حبيبته فذعر [illegible] [illegible] وخشيه نفسه ان تكون [illegible] [illegible] الى [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ويدها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] سيادة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عما [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يدها على

كتفه فقشعر بدنه فقال لها « من أنت يا هذه وأين انا ؟ »

قالت « ألا تعرف أين انت أنك في جنة شيخ الجبل مولانا الامام الاكبر »

قال « وهل هذا مقرّ أتباعه اجمعين ؟ »

قال « نعم . ولكن لا يمكث فيها الا من أحسن البلاء في طاعته »

وامسكت بيده ومشت فمشى وأومأت اليه أن يتبعها فوق تلك القناة فتردد هيبة فجذبته بيدها وهي تقول « لاتخف امش » فمشى فاذا هو يخطو على شيء صلب يفصل بين قدميه وبين الماء . وظن الماء جمد تحت قدميه . فاتصل الى الجانب الآخر وسار مع الفتاة وهو شديد الرغبة في معرفة حقيقة مايراه . فلما سمع قولها قال « فانا باق هنا ؟ »

قالت « انت حديث العهد وانما جئت لترى ما اعده المولى لاتباعه ومريديه اذا قاموا باوامره . وعسى ان نكون من المستحقين »

وعلم أنه هناك الى أجل ولا بد أن يعود . فمشى لترويح النفس وعيناه تتنقلان بين الاشجار والرياحين ويرى الاطيار تتطاير بين ايدي تلك الحورية وفيها الكراكي والطواويس بالوانها الجميلة . والبلابل والحساسين تتجاوب بالتغريد أو الزقزقة والفتاة تناديها فتأتيها وتقع على كتفها او على يدها وتنتقل كما تأمرها كأنها تفهم لغتها

ثم سمع عماد الدين زئيرًا علم أنه زئير الاسد وكان قد سمعه مرارًا فاجفل وقال « أليس هذا زئير الاسد ؟ »

قالت « بلى ... وهل خفته ؟ ان الاسود لاتؤذي اهل هذه الدار »

ومشت حتى دنت من مربض الاسد تحت شجرة . فاذا هو مقعٍ وعيناه تبرقان لكنه لم ينتقل من مكانه فتقدمت الفتاة اليه ومدت يدها الى رأسه وعبثت بشعره كما تعبث بشعر الهر ولم يتحرك فاستغرب عماد الدين ذلك أيضاً

وعادا الى التمشي فوقع نظره في بعض جوانب الحديقة على غرف مفردة تغطيها الازهار والاغصان فسألها عنها فقالت « هذه مساكن الذين استحقوا البقاء هنا يتمتعون بالملذات والنعيم لا يعكر عليهم ذلك أحد »

وبعد المسير برهة بين صعود وهبوط وقفت به الفتاة عند حائط وقالت له « انظر الى هنا »

فنظر من كوة في الحائط تشرف على واد اجرد لا شيء فيه من الماء ولا الخضرة . فاجفل لما رآه هناك من الثعابين والوحوش المفترسة تسرح بين جماجم البشر فقال لها « أظن هذه هي الجحيم »

قالت « .. نعم هذه هي . ولو لم تطع السيد الامام لكنت في عداد المغضوب عليهم هنا »

فلم يشأ أن يقف هناك طويلاً . فتحول وعادت معه حوريته وهي تلاطفه وتقطف من الأزهار وتعطيه وهو كالتائه في افكاره لا يدري ماذا يرى . واذا هو يسمع صوتاً اهتزت له جوانحه وجمد الدم في عروقه لانه صوت سيدة الملك كأنها تستغيث [illegible] فأخذ يتلفت يميناً وشمالاً وهو يحسبها على مقربة منه والحورية تنظر اليه بدهشة وتقول « ما بالك ما الذي أوقفك ؟ »

قال « ألا تسمعين شيئاً ؟ »

قالت « كلا . ماذا تسمع ؟ »

[illegible]

وكان قد شعر براحة لتلك الحورية لطول رفقتها وكثرة ما بذلته في سبيل استرضائه واجتذاب قلبه وهو شاب في مقتبل العمر . فغلب على اعتقاده أنه في جنة أو مكان يشبه الجنة جاءه بكرامة أو معجزة من معجزات راشد الدين وأوشك أن يشتغل عن سيدة الملك . فلما سمع ذلك الصوت توهم أنه صوت ضميره للثبات في حب حبيبته فلا يشتغل عنها بسواها فاحس بانقباض وود الخروج من ذلك النعيم

وهو يفكر في ذلك لا يلتفت يميناً ولا شمالاً سمع وقع خطوات غير خطوات رفيقته فالتفت فرأى غلاماً كالبدر طلعة وبهاء قد تمنطق بمنطقة من الحرير أرسل قسماً منها الى الامام كالمئزر وأرسل شعره ضفائر ذهبية وعليه ثوب سماوي اللون فلما دنا من عماد الدين انحنى انحناء الاحترام وقال بصوت رخيم « ألا يتفضل المولى لتناول الغداء »

فالتفت الى رفيقته كأنه يستريدها بياناً وابتسمت له قائلة « تفضل يا مولاي الى الطعام فقد آن وقت الغداء »

وكان في شاغل عن الطعام فلما ذُكر له أحس بالجوع . فمشى في طرقة مسواة كأنها فرشت بالزعفران يحف بها من الجانبين سياج من الازهار الجميلة ينتهي في آخره بباب كباب القصر الفخم . وقبل الوصول الى الباب فاحت روائح الطعام الشهي مما لم يعرف مثله الا في قصور الفاطميين في أيام الاعياد . ولما اقتربوا من ذلك الباب فتح لهم به وتقدم غلامان آخران يرحبان بالقادم ومشيا بين يديه من باب الى باب حتى وصل غرفة المائدة وهو يتلفت الى الجانبين وقد أدهشته ما على جدران الدهليز من الستائر المصورة تمثل البساتين والقصور ومواقع البدح والرخاء تستلفت النظر وتجتذب القلب . وأما غرفة المائدة فقد دهشت برشده وأوقفته موقف الحيرة ونسي مكانه لان جدرانها الاربعة مكسوة بالمرايا على طول الحائط ،

فيظهر الشخص الواحد عشرات من المرار من كل جانب — ولم يكن ذلك مألوفاً يومئذ فدبره راشد الدين في جملة ما يجتذب به القلوب

فتقدمت الفتاة أولاً وأشارت الى عماد الدين أن يتفضل فقعد على مقعد مغشى بالديباج المزركش وبين يديه مائدة مكسوة بملاءة من الحرير الوردي . ولم تمض دقائق قليلة حتى تواردت الاطباق وعليها الالوان من اللحوم والفاكهة . وجلست تلك الحورية بجانب عماد الدين وهي تلاطفه وتقدم له اللقمة بعد اللقمة وتبالغ في اكرامه والغلمان وقوف بين يديهما للقيام بالاوامر . فعاد عماد الدين الى نسيان سيدة الملك وقد سحرته تلك الفتاة بجمالها ولطفها ولا سيما بعد ان دارت الاقداح وفيها الخمور اللذيذة واصبح لا يعرف غير تلك الساعة ولم يبق في ذهنه الا النعيم الخيالي

ولما رأت تلك الفتاة ميله ورضاه اخذت بالاعراض عنه وهو يزداد شغفاً وقد زادته الخمور اندفاعاً حتى أصبح يرتمي عليها ويعانقها وهي تمتنع . فلما تحققت افتتانه بها قالت « لا تخرج عن حدك فانك انما جئت الى هنا على سبيل التجربة . وليس الوصول الى ما تطمع فيه سهلا . ان من دونه بذل النفس في طاعة الامام الاكبر »

فشق عليه هذا الاعراض لكنه زاد افتتانا وقال « قد كنت منذ هنيهة تقربيني والآن بعد هل كنت تخدعيني ؟ »

قالت « كلا ولكني لا [illegible] ان [illegible] الى التمام في هذا [illegible] الدنيا [illegible] لا [illegible] ذلك [illegible] وقد [illegible] ذلك [illegible] [illegible] ولكن لا [illegible] ولا قدر [illegible]

فاحص القلوب يطلع على خفايا السرائر ولكنني تأكيداً لعلائق المودة بيننا ادهن شعرك بطيب خاص بى » قالت ذلك واستخرجت حقاً من بين أثوابها فتحته ففاحت منه رائحة لم يشم مثلها في حياته . فأخذت بعض الطيب ودهنت به يديه وشعره : فلذ له ذلك وطابت نفسه . ثم قالت « احفظ هذه الرائحة تذكاراً بيننا حتى نلتقي اللقاء الدائم ان شاء الله » وبان الاعجاب بعينيها فازداد هو تهيباً من ذلك الشيخ العجيب فسكت

وبعد الفراغ من الطعام والشراب أحس عماد الدين بميل الى النعاس . فتوسد فراشاً من الحرير المحشو بريش النعام وتلك الحورية الى جانبه تداعبه وتعرض عنه ولم تمض دقائق قليلة حتى غلب عليه النوم واستغرق في رقاده

الفصل التاسع والخمسون

اطال الله بقاء صلاح الدين

وأفاق في اليوم التالي فاذا هو في قاعة راشد الدين كما كان من قبل وعليه الثوب الابيض وشعره محلول . فجعل يتلفت يميناً وشمالاً وينظر في ثوبه فتبادر الى ذهنه لاول وهلة أنه رأى حلماً . ثم ما لبث ان شم رائحة الطيب في شعره ويديه فلم يبق عنده شك أنه رأى ما رآه حقيقة . وانتبه بعد قليل لنفسه فرأى راشد الدين جالساً كما تركه ورأى صديقه عبد الرحيم بجانبه وهو يشير له ويضمه الى صدره فقال له عبد الرحيم « ان رائحة الجنة تنبعث من شعرك . هنيئاً لك وعسى أن يتاح لك النعيم الدائم . ثم وأجث عند قدمي مولانا وقبل ركبته وادع بطول بقائه »

فنهض وترامى على قدمي الشيخ عن اعتقاد صحيح بكرامته . وقبل

ركبته فمنعه ودفع اليه يده فقبلها ثم قال له الشيخ « أنت الآن من أبنائنا الفدائيين ويلوح لي أنك لا تلبث أن ترتقي الى مصاف المستنيرين . قم الى غرفتك وقد أوصيت الشيخ دوس بك خيراً . ولكنني أحب قبل خروجك ان ازودك بعهد مني » قال ذلك ونهض وانهض عماد الدين معه وهو يحدق في عينيه وعماد الدين يشعر بقوة تنبعث من عيني ذلك الرجل وتوشك أن تغلبه على أمره . وقد قبض الشيخ على يدى عماد الدين بيديه قبضاً شديداً

مكث كذلك عدة دقائق ثم صاح به « افتح فمك » ففتحه فتفل فيه وقال « كن فدائياً مطيعاً » وتركه واشار الى عبد الرحيم أن يذهب به الى غرفته

فمشيا الى غرفة الشيخ دوس وهما صامتان وقد استولت الدهشة على عماد الدين وأصبح كالمأخوذ أو من أصابه السحر . فلما وصلا الى الشيخ دوس بدل عماد الدين ثيابه وهيأه دوس [illegible] من زي الشيخ الأكبر وأعاد اليه خنجره ونقوده وجواهره وأصبح واحداً منهم

على أنه حالما عاد من دار النعيم الى دار الشقاء عاد الى ذكرى صلاح الدين وسيدة الملك فأصبح همه أن [illegible] عبد الرحيم ليسأله سؤالاً شغل خاطره بالامس — وهو قول [illegible] اسد الدين « أطال الله بقاء صلاح الدين » فانه لم يقدر على تعليله وهو يعلم تعمده قتله مراراً

أما عبد الرحيم فاستأذن [illegible] عماد الدين [illegible] الغياب تلك الليلة التي عينها لترقيته الى درجة المستنيرين [illegible] عماد الدين على [illegible] الحمر وقد تراكمت عليه الهواجس [illegible] العواطف . [illegible] الطيب [illegible] تذكر [illegible] ولاقاه هناك من أسباب السعادة

نام تلك الليلة نوما متقطعا [illegible]

عبد الرحيم حاء والبشر يتجلى في عينيه . فنهض له عماد الدين وقبله وقال « قد أصبحت منذ الآن أرقى مني ولا يحق لي أن أناديك أخي كما كنت أفعل ».

وضحك عبد الرحيم وقال « ان صداقتنا امتن من ذلك كثيراً كنا غريبين وتحاببنا ونحن الآن أخوان من عهد واحد . ولا تلبث أنت ان ترتقي الى مثل رتبتي . أتمنى ذلك لك قريباً بل أنا أتوقعه عن ثقة »

ولم يكن ذلك الشرف ليهمه وإنما أصبح همه استطلاع رأي راشد الدين في صلاح الدين فاذا علم أنه لا يزال ينوي قتله عاد الى مهمته الاولى . وأما اذا تحقق صدق دعائه بطول العمر كان له رأي آخر فقال « أما أنا فلا أتوقع قرب الترقي كما تظن . . ويكفيني ان تكون لي صديقاً . . ولا أحب أن احملك ثقله صداقتي لشيء اطمع به على يدك . وإنما اتقدم اليك أن تفسر لي كلاماً قد سمعته من الشيخ الاكبر بالامس فوقع عندي موقع الاستغراب ولم أصدقه ولعلك شعرت بمثل شعوري . . »

فقال « أظنك تعني قوله : أطال الله بقاء صلاح الدين ؟ »

قال « نعم هذا الذي أعني كيف ترى ، ألا تستغرب قوله ؟ وهل هو يعني ما يقوله حقيقة ، وأنا أعلم أنه بعث أناساً لقتل صلاح الدين غير مرة وكيف يفعل ذلك وهو يطلب بقاءه ؟ هذا هو الامر الذي أحب تفسيره »

فابتسم عبد الرحيم وهو ينظر الى عماد الدين ويهم بالكلام ويمسك نفسه فلما رآه عماد الدين يتردد قال له « اذا كنت تعرف الحقيقة أرجو ان تخبرني بها لان ذلك يهمني كما تعلم . ولعلك من أعلم الناس بامري مع هذا السلطان »

فاعتدل عبد الرحيم بمجلسه وأظهر الاهتمام وقال « اعلم يا صديقي عماد الدين ان عبارة الشيخ الامام التي ذكرتها كانت مغلقة عليّ الى مساء الامس

فلما صرت من المستنيرين دخلت في جملة ما عرفته . وليست هي سرا أؤتمنت عليه مثل سائر أسرار هذه العشيرة لكنني اطلعت عليه بالعرض ولذلك لا يمنعني الواجب ولا الخوف من أن أجيبك على سؤالك »

فتطاول عماد الدين بعنقه وقال « قل بالله . هل يريد الشيخ الأكبر حقيقة أن يطول بقاء مولاي السلطان صلاح الدين ؟ »

قال « نعم إنه يتمنى ذلك من كل قلبه وهو يطلبه ليل نهار »

قال « يا للعجب كيف يبعث من يقتله ثم هو يدعو بطول بقائه ؟ »

قال « ألم تعلم ما حدث لصلاح الدين قبيل خروجك من مصر إذ نهض في الصباح فوجد الخنجر فوق رأسه ورسالة التهديد بجانبه »

قال « نعم هذا ما أعنيه »

قال « هذا دليل على رغبة [illegible] صلاح الدين ولولا ذلك لأمر الفدائي الذي تمكن من الدخول إليه [illegible] الخنجر في [illegible] رأسه [illegible] ولكن ثقة ما [illegible] أمره أن يكتفي بالتهديد مع رغبته في بقائه حيا »

واستغرب عماد الدين ذلك وقال « [illegible] على تلك الرغبة [illegible] والسلاطين . ولم [illegible] أحياء [illegible]

[illegible] لا [illegible] هؤلاء [illegible]

فقال [illegible]

[illegible] في [illegible] صاحبه

لا بد للتاني ان يتمه في تلك السنة . . فهو لذلك حريص على حياة صلاح الدين حرصه على حياة نفسه . وهل عندك شك بصدق هذا الشيخ العظيم. قد رأيت من معجزاته ما يكفي وان كان قليلا من كثير »

فاطرق عماد الدين واخذ يفكر في ما سمعه ـ وهو مصدق لما قاله راشد الدين بعد ما شاهده بنفسه فاعتقد موت الرجلين في سنة واحدة واصبح من مصلحة صلاح الدين ان يطول عمر راشد الدين فتحولت مهمته الى المحافظة على حياة هذا الرجل لا قتله [1] واعتبر مهمته قد انقضت واصبح في ميل الى الخروج من ذلك الحصن والاسراع الى صلاح الدين لينقل اليه تلك البشرى ويرى حبيبته سيدة الملك. واعترضت افكاره رائحة الطيب ومناظر تلك الجنة لكن الحقيقة تغلبت على الوهم . واشتد ميله الى الخروج ولا سبيل الى ذلك الا ان يرسله راشد الدين بمهمة لقتل احد الملوك او الامراء. فالتفت الى صديقه عبد الرحيم والامتنان باد في وجهه وقال « لا انسى صداقتك يا عبد الرحيم اني أشعر بصدق مودتك شعورًا يكاد يلمس باليد . ولذلك كانت ثقتي بك عظيمة ولا ينبغي لي ان اخفي عنك شيئًا فهل تأذن لي ان استخدم تلك الثقة ؟ »

قال « قل ما بدا لك فانت في موضع ثقتك »

قال « لا حاجة بي الى بيان الاسباب التي تلجئني الى سرعة الخروج من هذا الحصن فانت تعلم علاقتي بمصر واتقدم اليك ان تساعدني على ذلك »

قال « خروجك لا يتم الا اذا دبروا لك مهمة تذهب في انفاذها لقتل كبير من الكبراء »

قال « فليكن ذلك وأنا فاعل ما يأمرون به »

قال « انتظر يومًا أو يومين لاغتنم فرصة تساعدني على ذلك . »

---

(١) مات راشد الدين وصلاح الدين كلاهما سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م)

قال « اني في انتظار وعدك بارك الله فيك »

قال « واسمح لي بالذهاب الآن وان عليّ واجبات تتعلق برتبتي الجديدة لا بد من انجازها وساعود اليك بما اوفق اليه »

قال « اشكرك يا أخي »

ونهض عبد الرحيم وانصرف

الفصل الستون

الفاق والشكوك

لما خلا صلاح الدين بنفسه بعد ما انتابه من الاهوال وما مر به من الغرائب أخذ يفكر في ما رآه وسمعه فلم يزده الا استغراباً وراجع ما كان سمعه عن تدجيل ذلك الزعيم فاخذ اعتقاده بكراماته يضعف ولكنه لم يستطع تعليل ما شاهده من المعجزات تعليلاً معقولاً . كيف يطلع على الوقائع قبل وصول اخبارها وكيف يكلم الميت فيجيبه و[illegible]شعرة فتطلعه على اسرار وهذه الجنة بما فيها من الطيبات والحور اللواتي يمشين على سطح الماء فلا يغرقن ويخاطبن الاطيار فتطيعهن و[illegible] الاسود فلا تؤذيهن . واذا تفتات له هذه الظواهر لم ير مندوحة عن الاعتقاد بكرامة الشيخ راشد الدين

[illegible]

استطلاع خبره واين يمكن ان تكون . فصعد الى بعض المرتفعات لعله يشرف منها على تلك الحديقة فلم يوفق الى شيء من ذلك . لكنه وقع نظره وهو يجيل بصره في السهل الذي نزل فيه يوم وصوله الى هناك على ركب لم يستطع ان يتبين وجوههم لبعد المسافة . ولما اقتربوا وجدهم ملتمين وهم بضعة فرسان في ركابهم جماعة من المشاة كالخدم . فلم يهمه امرهم وعاد الى التفكير بما هو فيه من الهواجس التماساً لسرعة الخروج من هناك

وحدثته نفسه ان يفر فوجد ذلك مستحيلاً عليه الا بالتعرض للخطر الشديد وهو في غنى عن ذلك اذا استعان بصديقه عبد الرحيم ولا شك عنده انه لا يدخر وسعاً في سبيل انقاذه

واعاد نظره الى ذلك الركب فرآهم دنوا من الجبل حتى حجبهم سفحه عن عينيه . فترجح لديه انهم من اهل ذلك الجبل او النازلين في جواره . واحس بالجوع فتحول الى مجتمع الفدائيين فتناول الطعام معهم ولم يجد فيهم من يبلغ مبلغه من علو النفس ورقة الاحساس . فازداد رغبة في الخروج من هناك وابت ينتظر عوده عبد الرحيم وهو على مثل الجمر

قضى ذلك اليوم واليوم التالي ولم ير عبد الرحيم فاشتغل خاطره ولم يعرف سبب تخلفه . وزاد بلباله لما شاهد غياب الشيخ دوس ايضاً عن غرفته في أثناء ذينك اليومين . وبلغه انه في شاغل مع الشيخ الاكبر للمباحثة في أمور هامة حدثت بعد مجيء اناس وصلوا بالامس . فتذكر الركب الذين رآهم قادمين اول البارحة فمال الى استطلاع حقيقتهم ولم ينتبه منهم . لان هذه الاخبار لا يتناولها الا الخاصة من المستنيرين . فصبر نفسه حتى يأتي صديقه عبد الرحيم فلما استبطأه استفهم بعض الرفاق عنه فقيل له أنه مع نخبة المستنيرين في شاغل عند الشيخ الاكبر

وازداد شوقاً الى الاستطلاع لكنه لم ير بداً من الانتظار ومضى نصف

اليوم الرابع ولم يره فضاق ذرعاً واخذ المال منه مأخذاً عظيماً وهمّ بالبحث عنه فاذا هو قادم نحوه فاستقبله استقبال الظمآن للماء . فاكب عليه عبد الرحيم وقبله واخذ يعتذر من تأخره وقال « اعذرني يا اخي . . كنت في مسائل لم يكن في الحسبان وكنا عزمنا على المجيء اليك بحديث مسائل جديدة »

قال « نسيت قلقي واضطرابي حال رؤيتك والله اني اسبب لك تعباً . . لا بأس يمكنك ان تتخلص من هذه لا تعاب بتدبير حيلة اخرج بها من هذا الحصن -- هل وفقت الى شيء من ذلك ؟ »

قال « وهو يضحك المداعبة » وفقت الى نصف الطلب فقط »

قال « كيف ذلك »

قال « ان تطلب أمر الخروج من هذا الحصن تقبل احد الامراء وقد استعددت لك امر اعمال احد الامراء ولكن بلا خروج من هذا الحصن »

فاستغرب [illegible] على المراد فقال [illegible] الصحيح ألم توفق الى [illegible] »

قال [illegible]

[illegible]

ورأى [illegible]

[illegible]

[illegible]

قال « كلا . سوف يستقدمك السيح الامام نفسه ويبث فيك روح العزمة والثبات ويأمرك بما يريد . اما انا فاخاطبك مخاطبة الصديق سراً لعلمي انك في قلق »

فقطع كلامه وقال « اسمح لي يا اخي ان اقول لك انك زدتني بهذا الخبر قلقاً »

قال « ستحمد عاقبة هذا القلق يا عبدالجبار . . » وابتسم كانه يكتم سرًّا لا يريد ان يبوح به

فقال « لم افهم مرادك . . الله الا خففت بعض ما بي ولو بالتلميح . انا اعلم وصية المحافظة على السر . ولا أطلب منك أن تبوح بسر مقدس اؤتمنت عليه لكنني ارجو تخفيف قلقي بعض الشيء . قل لي من هو الامير أو الكبير الذي سيعهد الي قتله وهو مقيم هنا لاني لا أعرف كبراء هذا الحصن »

قال « هو ليس من كبرائنا وانما هو طارق جاءنا منذ يومين .. »

فانتبه عماد الدين للركب الذي رآهم قادمين في ذلك السهل فقال « رأيت ركبا قادماً الى هذا الجبل منذ بضعة ايام ألعله كان فيه ؟ »

قال « نعم هو جاء في ركب . . اعلم أني اسر اليك امراً خطيراً . . » وخفض صوته

فقال عماد الدين « اعلم ذلك ولكني استغرب قدوم هذا العدو الى حماه [illegible] يدي عدوه . وهو يعلم قدرته على قتله »

قال « ليس هو عدوا [illegible] بل هو من اصدق اصدقائه واخص اخصائه . [illegible] ان تسير المسيحة الى مولانا راشد الدين . ولعلك تعلم ان مولانا [illegible] ان صاحب [illegible] الامامة كان يقيم في مكان اسمه عقر السدن وخدم [illegible] الاموت والديلم وتفقه على يده بالعلم والدين ثم

انتقل الى سوريا ونزل حلب واخذ يعظ ويعلم واشتهر بالتقوى فتقاطر اليه الناس افواجاً . وكان يجلس على صخر ويعظهم وهو جامد كالصخر . وانما سحر الناس ببيانه فكثر اصحابه ومريدوه . وكان شيخ الاسماعيلية يومئذ رجلاً اسمه ابو محمد خافه على منصبه فبعث اليه من يقتله فاختفى في كهف قرب حلب وما زال مختفيا حتى ضعف امر ابي محمد فخلفه وانتقل الى هذا المكان . هذه خلاصة سيرة مولانا . فضيف اليوم من اعز اصدقائه الذين جاهدوا في نصرته ورافقه الى الكهف ثم شغل عنه بالاسفار . وعاد الآن بمهمة لا أعلم ما هي ولاقاه مولانا احسن ملاقاة واختلى به غير مرة لا ادري ما دار بينهما لكن الشائع بين رجالنا ان مولانا فرح به كثيراً وانه من اعز اصدقائه . ومع ذلك فانه بعث الي بالامس سراً واخبرني عن تقديره لبسالتك حق قدرها وسألني اذا كنت تليق لمهمة خطيرة فذكرت له اقتدارك على ذلك وانك راغب في مهمة تعهد اليك . ولم اكن احسبه خطيراً داخل هذا الحصن . ورأيته ابدى اهتماما كثيرا ووضع ثقته الكبرى واسرّ اليّ انه يجب ان يتخلص من هذا الصاحب القديم على يدك . ولا يخفى عليك انها ثقة عظيمة فيك وانت لم تستقر في ذلك المكان الا منذ بضعة ايام »

وكان عماد الدين في اثناء حديث عبد الرحيم صامتاً يفكر في دواعي هذا العلاقة وكيف أنه عمد الى اغتيال صديق قديم له لانه رأى فيه حجر عثرة في طريقه — وضعف اعتقاده بكرامته لانه لا يعرف ولاية أو كرامة تأمر بخيانة الاصدقاء . ولحظ عبد الرحيم [illegible] . واستدل [illegible] او قد توهم خيراً [illegible] فقال انك أحب [illegible] من هذا الحادث ولم [illegible] الى التصريح به [illegible]

ولكن [illegible]

[illegible]

تؤيد ذلك لا اقدر ان اقولها لك الآن . . ولكنك ستعلمها في حينها .
وقد يخطر لك ان تنتقد عمل مولانا الشيخ لانه عمد الى قتل صديقه ولكنك
ستحمد عمله بعد حين .. فالآن ... »

فقطع كلامه قائلاً « ربما كان مصيباً بعمله من حيث دواعيه عن
سلطته واعذره عليه . لكنني اصبحت منذ الان اخاف على حياتي
وحياتك » قال ذلك بالحث التصريح عما في الضمير ولو تحت الخطر

ووافق ذلك التصريح هوى من نفس عبد الرحيم فابتسم ابتسام
المصادقة وقال « لا ألومك على هذا الشك لانه خطر لي ايضاً . وهناك
امور خطرت لي بعد انتظامي في سلك المستنيرين ربما سمحت الفرصة ببيانها
واما الآن فالمطلوب ان نعلم المهمة التي ستعهد اليك فلا تتردد بقبولها
وسترى اني ناصح لك .. لا يلبث أن يأتيك رسول الشيخ يدعوك اليه...
انا ذاهب الآن وسنلتقي بعدئذ » قال ذلك وانصرف

الفصل الحادي والستون

الشيخ سليمان

ومكث عماد الدين على مثل الجمر وهو يردد ما سمعه من راشد الدين
وغلبت عليه السكوت في كلامه . لكنه ما زال مكبراً اقتداره . وهو في
ذلك جاء خادم الشيخ [illegible] مثل سائر خدمه — وانما يقتني الصم
البكم [illegible] لا يفهموا شيئاً مما يدور بينه وبين رجاله . وهم يحملون
الاوامر بالاشارة . [illegible] يطالبه بالمشي في أثره حتى دخل به
على راشد الدين [illegible] سواه . وقد تخفف بعمامة

صغيرة وجعل يتمشى ذهاباً واياباً و يداه وراء ظهره وفيه عرج قليل

فلما وقع نظر عماد الدين عليه تهيب ووقف وقفة الاحترام . فاشار راشد الدين الى الحرسي ان ينصرف . واقفل الباب وراءه ولم يبق عنده الا عماد الدين . فناداه اليه فمشى فابتسم راشد الدين وقال له « انظر في عينيّ »

فنظر فاذا هما لامعان و يكاد الشرر يتطاير منهما

فقال راشد الدين « ماذا ترى فيهما ؟ »

فاستغرب سؤاله وقال «لا أرى فيهما شيئاً يامولاي غير النور والذكاء »

قال « أما انا فارى في عينيك اشياء كثيرة . . انى أقرأ فيهما ما يكنه ضميرك »

فخاف عماد الدين ان يطلع راشد الدين على ما خامره من الشكوك فيه فقال « لا غرابة في ذلك فقد تحققناه من قبل »

قال « و [illegible] اني تحققت صدق طاعتك واخلاصك ولذلك رأيت ان أسرع في مكافأتك وهذا لا يكون لا بمهمة تقضيها . ورغبة في التعجيل جعلت ذلك قريباً في هذا الخصوص . [illegible] »

قال « أنى طوع أمرك يامولاى »

قال « ان في هذا [illegible] كبيرا [illegible] على [illegible]

[illegible]

[illegible] »

[illegible]

له «أريد يا عبدالجبار أن تقتل الشيخ سليمان اللعين . تقتله وتخمد أنفاسه . هكذا أريد . . »

فاحس عماد الدين عند سماع ذلك الصوت على هذا الشكل بقشعريرة جرت في عروقه وكأن شرارة كهربائية تطايرت أمام بصره . فاغمض عينيه رغم ارادته فقال راشد الدين « قد احسنت يا عبد الجبار انك فاعل ما أريد وسوف تنال جزاء أمانتك . . واعلم انك منذ الآن خادم لسليمان أو الشيخ سليمان كما يسمونه تخدمه في حاجياته — فالبس لباس الخدم وغير قيافتك وابذل جهدك في ارضائه حتى تغتنم منه غرة تقتله فيها ولا يشعر أحد بك . واحب أن يكون ذلك خارج القلعة . وانت بعد ذلك من طبقة المستنيرين . ثم أدنى شفتيه من أذنه وقال له ومع الرجل امرأة بارعة في الجمال ستكون غنيمة لك مع سائر ما يمتلكه من أثاث وغيره ويمكنك التعويل على صديقك ولدنا عبدالرحيم في بعض التفصيل . وهذا يكفي . . أمض الآن الى نائبنا الشيخ دبوس وهو يتم جهازك بما يلزم » قال ذلك وترك أنامله فودعه وخرج وهو يرتجف من عظم التأثر واخذ يفكر فيمن عساه أن يكون سليمان هذا . ولم يهمه ان تكون امرأته جميلة وهو لا يرضى من سيدة الملك بدلا

فسار تواً الى الشيخ دبوس ولم يحتج في تفهيمه الى كلام لانه كان على بينة مما يطلب منه حال دخوله عليه قال له « أدخل يا عبد الجبار واقفل الباب »

فدخل ونهض الشيخ دبوس بنفسه اعطاه لباس الخدم واصلح شعره وقيافته حتى تغيرت هيئته كثيراً ودفع اليه كتابا وقال له « تأخذ هذا الكتاب الى ذلك المنزل وتكون خادماً لصاحبه كما أمرك مولانا الشيخ الاكبر أذهب . . .

فاشار مطيعاً وخرج وهو كالخادم تماماً . وقبل خروجه نظر الى وجهه في المرآة فانكر نفسه . وفي يده بطاقة الشيخ دبوس الى سليمان وهو يردد في ذهابه و يقول في نفسه « كيف أقتل هذا الرجل ولا ثأر بيني و بينه » ثم خطر له قول عبد الرحيم انه سيجد في قتله راحة فوقع في حيرة

وما عتم ان وصل الى المنزل الذي ذكروه له فوجد الباب مقفلا. فاخذ في البحث عن الشيخ سليمان في ذلك الجوار فلم يهتد اليه على خبر فقعد على صخر في ظل البيت ينتظر قدومه لعله ذهب في حاجة لا يلبث ان يعود منها . واستغرق في هواجسه وتفقد الخنجر الذي خبأه تحت أثوابه عند سنوح الفرصة . لكنه ما زال يتردد في أمر القتل

وهو في ذلك رأى رجلا قادما عن بعد وعلى رأسه عمامة خضراء اللون كبيرة الحجم وقد أرسل شعره خلفها حول رأسه الى كتفيه ونزل لحية طويلة وعلق في صدره سبحة طويلة وحمل سبحة أخرى بيده يعدد حباتها ويتمتم كأنه يصلي أو يسبح كأنه منقطع عن العالم الى الصلوات والدعوات وتحقق أنه الشيخ سليمان لا محالة فظل يراقب حركاته وهو قادم حتى دنا منه فتقدم اليه وهم بتقبيل يديه ودفع اليه بطاقة الشيخ دبوس فتناولها وفضها وقرأها وهو لم ينظر الى عماد الدين بعد فلما أتم قراءتها رفع بصره اليه وقال « يقول اخونا الشيخ دبوس ان مولانا [illegible] لا [illegible] بعثك لخدمتنا »

قال « نعم يا سيدي وهل يتم لي هذا الحظ »

قال « كنت في [illegible] من [illegible] لأن [illegible] الخلوة [illegible] والدعاء وطعامنا [illegible] »

وكان عماد الدين [illegible] رأى ذلك [illegible] من قوله اجابه عماد الدين [illegible] مولاي اخدمه [illegible]

يحتاج اليه فان كان في شاغل بالصلاة او غيرها فلا شأن لي به وانما ابي أمره اذا أمرني فاجلب له الطعام او ما يحتاج اليه من الامور

قال « حسناً . ما هو اسمك »

قال « عبد الجبار »

قال « طيب اقعد هنا واني شاكر لاخينا الشيخ على فضله . وعلى كل حال لا حاجة لي بك في الليل فاذا غابت الشمس انصرف الى مكانك »

ومشى نحو الباب وتناول المفتاح ليفتحه وعماد الدين يراقب حركاته ويبحث في ذاكرته عما يعرفه عن ذلك الرجل واين رآه في دمشق او القدس او مصر فلم يخطر له شيخ يعرفه بهذا الاسم

دخل الشيخ سليمان المنزل وظل عماد الدين جالساً على حجر وقد شغل خاطره بامر هذا الرجل . ولم يتذكر اين رآه قط نفسه واهماً في تصوره فصرف فكره عنه وعاد الى التفكير في صلاح الدين والخروج من ذلك الحصن ليخبره بما علمه ويرى سيدة الملك على فراغ واطمئنان

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فذهب ليأتيه بالعشاء وكانوا قد اعدوه له في اطباق فحملها فوق رأسه حتى أتى الباب وقرعه وطال انتظاره قبل ان فتحه له . ولما فتحه تناول الطعام منه وادخله بيده ودفع اليه ديناراً وقال له « قد جاء الغروب فانصرف وسأدعوك يا عبد الجبار »

فتناول الدينار واظهر الامتنان وانصرف وهو يفكر في امر هذا الرجل وحرصه الشديد على منزله حتى لا يأذن لخادمه بالدخول اليه . وهو في الطريق لقيه عبد الرحيم فسلم عليه وسأله عما جرى فاخبره بما شاهده وما استغربه من حال الشيخ سليمان فضحك عبد الرحيم وقال « لم يسمح لك بالدخول لا بأس . . . ألم تتذكر انك تعرفه من قبل »

قال « تصورت لاول وهلة اني رأيت ذلك الوجه او على الاقل سمعت

ذات الصوت . لكنني غيرت فكري لأني وجدت نفسي واهماً »

فقال وهو يحك عثنونه ويخفي ضحكه « قد تكون واهماً وستبدو لك الخيبة بعد قليل . لكن كيف أشار بانصرافك الآن وهو قد يحتاج اليك في الايام ؟ »

قال « لا أدري ويظهر لي انه يكتم اشياء لا يحب ان اطلع عليها . أظنك عرفت عنه شيئاً لم تقصه عليّ »

قال عبد الرحيم « عرفت عنه اشياء كثيرة لا اقدر ان ابوح بها كما تعلم لكنني اقدر ان اقول لك بانه من أصحاب المطامع السياسية وهي التي ستجر اليه حتفه ويظهر لي انه أراد ان يشارك شيحا [illegible] بسلطانه او انه طلب منه أموراً لا يوافقه عليها وهو يروده صعباً فخاف اذا اعصاه ان [illegible] عنه اموراً تنال [illegible] فاحب التخلص من حياته . هذا الذي [illegible] الى الآن وسيرى الخيبة وانت أول من [illegible] »

فقال « هذا أول يوم أقمت فيه وقد صرفني [illegible] وسأعود اليه في صباح الغد »

قال « هب انه صرفك فيمكنك أن تبقى [illegible] من منزله لعله يحتاج الملك أو [illegible] [illegible] لقيام [illegible] »

الفصل الثاني والستون

في الطريق

و [illegible] وقد [illegible] [illegible] ان [illegible]

[illegible]

فقال [illegible]

قال «أحب أن احادثك ببعض الامور»

قال« تعال الى غرفتي انها على مقربة من هذا المكان » ومشى حتى دخل الغرفة وفيها مصباح ضعيف اضاءه له بعض الخدم . فقال عماد الدين « احب ان نكون في خلوة »

فأومأ عبد الرحيم الى خادمه بالانصراف وقعد واشار الى صديقه ان يقعدفقعد وهو يتنهد فقال له عبد الرحيم « مابالك ياصاحبي لماذا تتنهد؟ »

قال اتنهد يا اخي لاني اشعر كاني في قفص لا أرى لي منه مخرجاً وقد أطعتك في كل شيء كما رأيت ولا يمكنني أن انكر صدق نصيحتك لي كل مرة . لكنك تعلم ايضاً أني لا اقدر على البقاء هنا طويلاً ولي في مصر اناس ينتظرون رجوعي و . . . . » وسكت

فادرك عبد الرحيم ما يعنيه فقال « أتريد ان تخرج من هذا الحصن ؟ »

قال « نعم أريد ذلك . ارجو ان تساعدني عليه »

قال« وعدتك اني افعل ما تريد واكل أجل كتاب . اني مدبر طريقة لخروجنا كلينا »

ففرح عماد الدين بهذه البشرى وقال « وانت ايضاً عازم على الخروج ؟ »

قال « نعم وربما اتفق خروجنا معا»

قال« هذا هو الافضل . قد اطمأن بالي الآن — وان كنت لا أعرف سبب رغبتك في الخروج بعد أن صرت من خاصة الاسماعيلية واطلعت على اسرارها . . »

فأشار اليه بسبابته على فمه ان يسكت وقال « سوف نتكلم عن ذلك في فرصة أخرى . اما من جهة رغبتك في الخروج فتدبيره عليّ حالما تفرغ من مهمتك . تعال الى الحديقة هنا في اكثر الاوقات وانما يطلب منك ان

تسهر على مهمتك المعلومة »

قال « حسناً .. اني ذاهب كما قلت . » وأشار الى خصره وقال « وهذا هو الخنجر الذي سأغمده في صدر هذا الشيخ لغير ذنب له عندي » ثم استأنف الكلام قائلا « ولكن الشيخ راشد الدين قال لي ان للرجل زوجة ستكون لي غنيمة فهل هي معه في هـذا المنزل . وقد اوعز الي الشيخ أن اعول عليك ببعض التفاصيل فما هو رأيك ؟ »

قال « رأيي ان تفتك بهذا الضيف باول فرصة . أما امرأته التي أشار اليها شيخنا فاسمها [illegible] . وانما هي في منزل خارج الحصن بجوار القرية القريبة منه مع سائر أهله وخدمه »

قال « وسمعت من شيخنا انه يحتمل ان اقتله خارج الحصن . فهل هو يذهب الى هناك ؟ »

قال « قد أذن له بالذهاب من [illegible] وهو يذهب كل ليلة تقريباً . فالافضل ان تغتنم وجوده خارجاً وتقضي عليه ومن قتلته اصبحت امرأته وسائر ما يملكه حلالا لك »

وقال عماد الدين « اسمح لي ان استشيرك بامر آخر . ما العمل اذا قضيت مهمتي هذه وانا خارج هـذا الحصن ان ابقى خارجاً وانصرف في طريقي »

قال « نعم الرأي هو وانا اتبعك [illegible] »

فقال « وكيف تعلم اني فرغت من مهمتي »

قال « [illegible] في آخر هذا الليل اوقد مشعلا [illegible] وحالما أرى المشعل من هنا أخرج [illegible] »

فاستأذن [illegible]

عبد الرحمن [illegible] الحصن

أن تفرّ بدون ان تقتل الشيخ سليمان . بل يجب ان تقتله ولو لم تستطع الفرار .. اسمع نصحي هذه المرة أيضاً .. »

قال « حسناً سأفعل ما تقول . . ولكن هل أقدر على الخروج من باب الحصن بلا اذن ؟ »

قال « اذا داهمك الوقت قبل ان استأذن لك يكفي ان تقول للبواب شعار الخروج فيفتح لك الباب »

قال « وما هو ذلك الشعار »

قال « قل له · حسن بن الصباح في لاموت · فيطلق سراحك »

قال « بارك الله فيك - قد انشرح صدري الآن وسأذكر لك هذا الفضل في جملة افضالك » قال ذلك ومشى نحو منزل الشيخ سليمان وقد اشتد الظلام . فلما دنا من المنزل رأى ذلك الشيخ خارجاً منه وبيده مصباح

فتقدم كأنه رآه بالصدفة وحياه واكب على يده يقبلها وقال « كيف تحمل المصباح لنفسك وانا خادمك قد أمرني مولانا الشيخ بخدمتك »قال ذلك وتناول المصباح منه ومشى بين يديه حتى دنا من الباب ففتحوه له . وأحب الشيخ أن يسترجع المصباح منه فأبى ان يعطيه اياه تخفيفاً للثقلة عنه وقال « اذا علم مولانا الشيخ الاكبر اني لم أقم بحق خدمتك غضب عليّ وعنفني »

فأطاعه ومشى ولم يعترضه احد لانه أسرّ الشعار الى البواب . مشى بين يدي الشيخ والطريق ... منحدر حتى اذا فرغ من الانحدار وقف الشيخ وقال « بارك الله فيك هات المصباح . اني على مقربة من منزلي »

قال « اني أسير بين يديك الى باب المنزل »

قال « لا حاجة الى تعبك .. هذا هو المنزل » وأشار باصبعه الى نور ضعيف لا يظهر سواه في ذلك السهل

فقال « بل أسير معك حسب امر مولاى »

فوقف الشيخ ومد يده ليتناول المصباح منه فامتنع عماد الدين عن ان يناوله اياه فغضب الشيخ وقال بانتهار « هات المصباح يا غلام. وانصرف لسبيلك . . . »

فقال عماد الدين « أهذا جزاء من يريد القيام بخدمتك ؟ » قال ذلك واستل خنجره واغمده في قلبه . فوضع الشيخ كفه على موقع الضربة وصاح « آه . قتلني الغلام . ويلاه آه .. ماذا فعلت معك ؟ . »

وهم عماد الدين ان يثني الضربة فأمسكه بيده الأخرى وهي ترتعد وقال « هذه الطعنة تكفي لقتلي .. فالضربة الثانية صارت ثالثة .. الجائزة . . . انتظر . . انى ما اعدك على قولي . لأني أستحق القتل . . ولكن هناك امرأة .. هناك . في هذا المنزل حيث ترى النور . . . امرأتي . . . ألحق بالمنزل .. ولا تدعها تذهب .. وقدم لها وحدها ما في في حجري من النقود والجواهر مكافأة لك . . . » قال ذلك وسقط وعماد الدين مستغرب قوله فانكب عليه وفتش ثيابه فوجد فيه اكياسا نقودا وجواهر استخرجها وتركه يتخبط بدمه

مشى وهو يفكر في ما يفعل [illegible] الى [illegible] النقود . [illegible] المنزل ما يعجبه عن [illegible] وقد ذكر في [illegible] أن [illegible] قتله [illegible] وهو لا يعلم [illegible]

الفصل الثالث والستون

المنزل

فلما رجح الفرار وقف يفكر في الطريق المؤدي الى مصر وقد اشتد الظلام وهو لا يميز الطرق ولا يعرف الجهات. وتذكر وصية القتيل وغرابتها واستدل منها انه ناقم على امرأة يريد قتلها . فرأى ان يذهب الى المنزل ويستدل من هناك على الطريق . فمسح خنجره واغمده وأصلح من شأنه واطفأ المصباح حتى لا يراه أحد ومشى نحو النور . ولما اقترب من المنزل جعل خطاه خفيفة كأنه يتلمس الطريق وأصغى بسمعه وتطاول بعنقه . وخطا خطوات قليلة حتى أوشك ان يدق الباب . فسمع رجلا يخاطب رفيقاً له في ذلك البيت قائلاً « ألم تر مصباح الشيخ ؟ »

فاجابه الآخر « رأيت مصباحاً منذ هنيهة على بعد يشبه مصباحه »

قال « بل هو هو بعينه ثم انطفأ ... ماذا جرى له يا ترى ؟ »

قال « لا تخف عليه .. انه طويل العمر . »

قال « أراك تحسده على حياته وهو من أشقى خلق الله .. »

قال « صدقت لم أر أشقى حياة منه . »

فقطع الآخر كلامه قائلاً « بل أشقى منه هذه المسكينة التي لا يبرح يعذبها ويضر بها و .. »

فقال « صدقت .. مسكينة . ان قلبي يتقطع عليها احياناً . وكم حدثتني نفسي ان انتصر لها .. »

فقال ذاك « ما لنا ولها . انما نحن خدمنا الى مصلحتنا واذا وفى لنا بما وعدنا به [illegible] السعادة [illegible]

من كبار الامراء . . . »

فقال الآخر « هل تعتقد كل ما يقوله الشيخ صحيحاً ؟ . »

فقال « اذا لم يصح الا بعضه فاننا نكون سعداء .. يظهر انك لم تفهم حقيقة مهمته عند شيخ الاسماعيلية »

قال « فهمتها . كيف لا ؟ »

قال « لا . لم تفهمها كما هي .. اعلم ان مولانا الشيخ هذا كان صديقاً للشيخ راشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية الآن قبل ان صار رئيساً وقد أعانه وارتكب معه أموراً كبيرة حتى تمكن راشد الدين من هذه الرئاسة . فحسده صاحبنا فاراد أن يعمل عملا يفوق به على صاحبه فذهب الى مصر وطمع بالخلافة . »

فضحك الآخر وقال « بالخلافة ؟ »

قال « نعم طمع أن يكون خليفة وسمى نفسه ابا الحسن وادعى النسب الفاطمي وصدقه الناس . ولما مات خليفة مصر العاضد تابعه جماعة من المصريين . ثم انكشف امره لصلاح الدين وقبض على رفاقه ونجا هو بنفسه وجاء الشام .. وانت تعلم ما جرى بعد ذلك . كيف كان بعض الفدائيين الذين يقتلون القتيل بدرهمين فاختطفوا له هذه المرأة من بيتها وهي تكرهه ولا تطيق أن تراه . . »

فقطع الآخر كلامه وقال همساً « احذر ان تذكر الفدائيين بسوء وانا في دارهم . أما هذه المرأة فانت لا تعرف من هي [illegible] مسكينة كم قاست منه . . هي [illegible] لا [illegible] لا تحبه . »

فضحك [illegible] وقال [illegible] . . لا خوف عليه لا سيما اذا نجح بمهمته عند راشد الدين [illegible] هذه المرأة [illegible] [illegible] »

ففهم عماد الدين من هذا الحديث انه قتل ابا الحسن لكنه لا يعرف علاقته بسيدة الملك وانما يعرف انه من الناقمين على صلاح الدين وانه نجا من القتل . فرقص قلبه فرحاً لانه سيذهب الى صلاح الدين بخبرين مهمين : الاول ذهاب الخطر عن حياته من راشد الدين والثاني انه نجا من ابي الحسن . لكنه سمع في أثناء الحديث انه يعذب امرأته حتى أشفق عليها الخدم . وتذكر ان ابا الحسن أمره بقتلها وأجاره عليه سلفاً . وكان عماد الدين قد أصبح بعد تعلقه بسيدة الملك يشفق على كل انثى لاجلها . واحس بميل الى انقاذ هذه المسكينة . ورأى الخدم مشغولين بظلامتها فتقدم الى الباب وطرقه فاجفل الرجلان وصاح أحدهما « من الطارق ؟ » وقال لرفيقه « لعله مولانا الشيخ سليمان ألم أقل لك اني رأيت حصانه ؟ »

فقال عماد الدين « افتح اني رسول من الشيخ سليمان »

ففتح احدهما الباب ودخل الآخر وأتى بالنور وأدناه من وجه عماد الدين فرآياه ورآهما فلم يذكر انه يعرف أحدهما لكنه عرف من زيهما انهما من أهل دمشق . وكان قد لحظ ذلك من لهجتهما وكانا في حدود الكهولة فتقدم أحدهما وقال لعماد الدين « ماذا تريد ؟ »

قال « بعثني الشيخ سليمان بمهمة ومعي هذا الحصان علامة صدق الرسالة فاحلفا في أثناء الطريق »

قال « صدقت وما الذي تريده ؟ »

قال « أمرني أن آتيه بامرأته على عجل وهو في انتظارها عند الحسن »

فالتفت الرجلان أحدهما الى الآخر لفتة الاستغراب ولسان حالهما يقول « كيف يبعث الرجل بطلب امرأته على عجل الى الحسن وهو الذي يريده منها هناك » وقال أحدهما « وهل يطلب امرأته وحدها ؟ »

قال « يطلبها مع ما تريد حمله من متاعها وثيابها »

قال « علينا أن نبلغها الرسالة » ودخل الرجل والنور بيده وظل عماد الدين واقفاً وقد أصاخ بسمعه . وأول شيء سمعه قبل وصول الرسول أنين وتأوه وصوت ضعيف يقول : « ويلك من الله يا خائن .. ألا تخاف العقاب يوم الدين ؟ . أين انت يا موت .. متى تأتي ساعتي وأتخلص من هذه الحياة .. آه .. ما بالهم يتآمرون علي ؟ . »

ولما سمع عماد الدين ذلك الصوت اقشعر بدنه لأنه كثير الشبه بصوت سيدة الملك . وحدثته نفسه أن يتقدم ليراها ولكنه صبر ليسمع ما يدور بينها وبين الخادم . فاذا هو يقول لها « ان سيدي المسيح بعث يطلب مولاتي اليه في هذا الحصن »

فصاحت فيه « الى اين ؟ من هو سيدك هذا . ما بالكم تزعجونني بالاسئلة . دعوني لعلي انام لحظة أنسى فيها مصائبي »

قال « لا تغضبي يا سيدتي .. ان مولاي بعث رسولاً خصوصياً من خدمه المسيح راشد الدين أن يحملك اليه كما يريدون حمله من متاعك وثيابك و . . »

فقالت « لا . . لا أذهب اليه [illegible] الا تحمولني على حسبة . دعوني منه . لعنة الله عليه . وياويله من الله .. ومن يوم الدين . . . آه . . . آه . حملني الى بلاد ليس فيها من يعرفني . ولم [illegible] على قلبي .. آه . . . كل بلائي من هذا الملب . »

واستبح عماد الدين [illegible] هذه [illegible] صوت سيدة الملك . وله كان [illegible] وصولها الى هذه الحال وهي [illegible] . ولما [illegible] مظلومة اكراماً لخطيبته [illegible]

ثم سمع الرجل يخاطبها قائلاً [illegible]

لا بد لنا من أخذك اليه حسب أمره وهذا رسوله واقف بالباب . وهل في الامكان رد طلبه . . ؟ فالاولى أن تنهضي راضية . . »

فلما سمعت تهديده صاحت صيحة وصل لها شعر عماد الدين قائلة « اتهددوني بالاخذ قهراً ؟ . يريد هذا الشقي ان يحملني على ايدي اللصوص كما فعل قبل الآن ؟ . . » ثم انخفضت صوتها وغصت بدموعها وقالت « ولكن الله بعث اليّ في تلك المرة فلاكاً شجاعاً أنقذني من مخالب الموت وانقذ شرفي وحياتي » ثم تنهدت وقالت « آه اين أنت يا عماد الدين ؟ . »

فلما سمع عماد الدين ندا ها لم يتمالك عن الوثوب كالاسد الكاسر وقد تحقق ان تلك المظلومة حبيبته سيدة الملك واجابها « لبيك . . لبيك . . يا سيدتي . . »

وما لبثت ان سمعت صوته حتى رأته بين يديها وقد ازاح الخادم بيده وتقدم نحوها وهو يقول « مولاتي سيدة الملك أنت هنا في هذا العذاب ؟ »

فشخصت اليه شخوص الابله كأنها أصيبت بجنه وقد جمدت عيناها وعقد لسانها ولم تعد تستطيع النطق لكنها تماسكت وتوهمت نفسها في حلم فقالت وصوتها متقطع وهو مختنق « عماد الدين ؟ عماد . . . الدين ! آه . يا ليت ذلك كان في يقظة » وغطت وجهها بكفيها وأخذت في البكاء

فتقدم عماد الدين نحوها وقد تقطع قلبه لرؤيتها من شدة الضعف ولو ساعدها بدون أن تماديه الامر - فأمسك يدها وقال « انت في يقظة يا سيدتي . . انا عماد الدين . . انت في يقظه . . روحي فداك لا تخافي . . »

الفصل الرابع والستون

الحقيقة

فلما سمعت صوته ثانية فتحت عينيها والدمع يغشاهما ونظرت اليه وهو في زي غير زيه . لكنها عرفت صوته وتفرست في وجهه وهي لا ترى شيئاً من الدمع فمسحت عينيها بكمها فعرفت عينيه فصاحت « عماد الدين ! انت عماد الدين ؟ من أرسلك اليّ ؟ لا . لا لست عماد الدين . انت خادم ذلك الخائن جئت لتأخذني اليه .. بالله قل لي . هل انت عماد الدين ؟ » وضحكت كالابله المعتوه وقالت « أنت عماد الدين ؟ .. ان المعجزات لا تنكر .. نعم أتى عماد الدين لانقاذي في مثل هذا الضيق ويا ليته يأتي الآن » ثم سكتت كأنها استرجعت رشدها ومسحت عينيها ثانية ونظرت الى عماد الدين نظر متفرس وهو جاث بين يديهـا وعيناه شاخصتان في عينيها وقلبه يتفطر . فما لبثت ان تحققت انها ترى عماد الدين فصاحت ملء فيها « عماد الدين ! عماد الدين ! » وترامت عليه وقد أغمي عليها . فانهضها وترامى كمثل الخادم بالماء فرشها به وهو يمسح وجهها وعينيها بمنديله وسقاها جرعة من الماء . فانتعشت وأعادت النظر الى عماد الدين وهي تضحك ضحكات الطفل استرجع شيئاً كان يبكي فراقه

لكن تلك الضحكة أبكت عماد الدين وقد شق عليه أن يرى تلك المسكينة أخت الخليفة قد [illegible] صلاح الدين ثم سيقت كرهاً مع ذلك السيء [illegible] لكنه حالاً تذكر أنها [illegible] سرّي عنه وعاد الى تطمين سيدته الملكة وقال « صدقيني اني انا عبدك عماد الدين »

فصاحت « ألا تزال تقول أنك عبدي أنت سيدي وتاج رأسي . أنت منقذي من الموت والعار مرتين .. انت روحي .. أنت حياتي .. انت .. آه أنت .. دعني بعد خلعت العذار . » وغطت عينيها خجلاً

فانتبه عماد الدين لوجود ذينك الخادمين وكان قد عرف كرههما لابي الحسن وحنقهما على سيدة الملك فقال لكبيرهما « ربما استغربتما ما رأيتماه في هذه الليلة وقد علمت انكما تأنفان على ذلك السرير وان تبقيا مع هذه السيدة أليس هكذا ؟ » قال ذلك ومد يده الى جيبه وفيه نقود ابي الحسن واعطاهما بلا حساب

فاخذهما كرمه وا[illegible] واجاب احدهما « صدقت .. ويظهر أنك لست خادماً كما ادعيت . بل أنت امير أرسلك الله لانقاذ هذه السيدة .. أنها عاملت عليها واوصلها أن أحد ينقذها ويخلصها من ذلك الظالم »

قال « [illegible] »

قال [illegible] لا [illegible] أي [illegible] تريدها منا ولو كانت بقتل ذلك [illegible]

قال « لا حاجة الى [illegible] وقد كفانا الله شره في هذه الليلة . وهذه النقود التي كانت معه [illegible] وهذا البعض الآخر » ودفع اليهما دفعة أخرى

[illegible] . لا رحمه الله . »

[illegible] الرجلين نظر [illegible] الهزال وقد امتقع لونها . [illegible] عماد الدين واحتضنته [illegible]

قال « نعم . وكنت اود اني عرفته قبل قتله لاتبعه قتلاً واخبره وهو في حشرجة الموت اني قتلته في سبيل طاعتك انتقاماً لفظاعته »

فقالت « ولماذا قتلته وكيف ؟ »

قال « فعلت ذلك بامر رجل يظهر انه كان عارفاً نقمتي عليه وألح عليّ ان اقتله وقال اني سأحمد مغبة عملي وقد اصاب » — ثم تذكر وصية ابي الحسن قبل موته وقال « لعنة الله عليه .. لم أسمع برجل اعظم شراً منه أتعلمون ماذا قال لي ؟ قال انه يستحق الموت ودفع اليّ هذه النقود وقال اطلب اليك ان تقتل امرأتي التي في منزلي لانها احق بالقتل مني . انظروا ماذا قال وهو في آخر لحظة من لحظات الحياة وقد اشرف على الآخرة . انه يريد أن ينتقم من هذا الملاك ودفع اجراً على ذلك قد انخدعوه فانتم اولى به »

ثم التفت الى الرجلين وقال لهما « هل تحبان البقاء معنا ؟ »

قالا « نعم .. نحن في خدمتكما كما تشاءان »

قال « فانقدم اليكما ان تتأهبا للمسير الساعة .. هيا الى الاحمال ولنسافر الآن »

وأخذا في الاستعداد وجلس عماد الدين بين يدي ست الملك يسألها عن سبب وصولها الى هناك .. فأخبرته ان ذلك اللص احتال في اختطافها على يد وداني جعل نفسه خادماً وراقبها حتى خرجت من القصر الى بعض البساتين ومعها جاريتها ياقوته وقد كمن لها جماعة منهم ابو الحسن فهجموا عليهما ودافعت ياقوته دفاعاً ... ولكنهم ضربوها حتى سقطت لا تبدي حراكا . وان اولئك الاشقياء حملوها وحدها وخرجوا بها وهي مكمومة الفم مغلولة الايدي . وكان ابو الحسن بانتظارهم في ضواحي القاهرة واخذ يعاملها انتقاماً منها لأنها كانت سبب شقائه وسجنه ثم انتقل بها الى الشام وهناك

استخدام هذين الحصنين وتمرهما بالمال . ثم جاء بهم جميعاً الى هذا الحصن فتركها معها في ذلك المنزل ودخل على راشد الدين ليستعين به على الانتقام من صلاح الدين امل بعض الفدائيين يقتله

هذه خلاصة ما قصته سيدة الملك على عماد الدين وهو جالس بين يديها يصغي اليها بكل جوارحه . وهي لم يمر عليها يوم في حياتها شعرت فيه بلذة الحياة مثل شعورها في تلك الساعة مع انها في برية مقفرة وقد اضناها الضعف — ولكن الحب مصدر السعادة كما هو مصدر الشقاء ولولاه لكانت الحياة جامدة باردة لا لذة لها ولا معنى فيها

وقص عليها عماد الدين مهمته في مصلحة صلاح الدين وما قاساه من العناء وكيف انتهت الامور واصبح صلاح الدين في مأمن من الفدائيين . فلما سمعت اسم صلاح الدين اشرق وجهها وقالت « بارك الله في صلاح الدين انه نادر المثال »

فضحك وقال لها « ألم اقل لك ذلك في آخر ليلة رأيتك فيها وأنت ناقمة عليه ؟ »

قالت « لم اكن اعرفه . وفي كل حال فاني امتدح مروءته وعلو همته . وأما انت فكنت تمتدحه في معرض آخر . وفي ذلك المعرض لا يزال حكمي عليه كما كان . ولا سيما اذا قابلته بعماد الدين .. »

وضحكت وكانت تتكلم وعيناها شاخصتان فيه تكاد تلتهمه بهما

ثم جاء الخادمان وقد [illegible] . وشدوا الاحمال وركبوا جميعاً وقد توسط الليل [illegible] ذكر عماد الدين صديقه عبد الرحيم وما اوصاه به [illegible] ان يوقد مشعالاً مزدوجاً ففعل

وسار الركب [illegible] سيدة الملك [illegible] وهما تقصان

ما جرى لهما في تلك المدة الطويلة — والمحب اذا غاب عن حبيبه ساعة عاد ومعه عدة حكايات يرويها وهو يرى في ذلك لذة خصوصية لا يشعر بها غير المحبين . والغريب ان المحب لا يصبر على كتمان شيء عن حبيبه كأنه يرى في كتمانه خيانة او كان قلبهما يطالبان المكاشفة في كل شيء فكلما يتشاكيان ويتعاتبان وهما ايضاً يلذ لهما نقل ما في قلب الواحد الى قلب الآخر من حب او عتب او شكاية او حديث

الفصل الخامس والستون

عبد الرحيم

وهم في ذلك وقد ابتعدوا عن محل السباق سمعوا وقع حوافر جواد وراءهم وكان عماد الدين لا يشك في ان ذلك انما هو مجيء صديقه عبد الرحيم وقد أصبح في شوق لرؤيته ليستطلع منه ما اتصل اليه علمه في الحصن

فلما سمع وقع حوافر الفرس تباطأ في المسير ووقف معه سيف الملك . فاشار الى ان تبقى سائرة والخادمان يتبعانها ففعلت وتأخر هو لحظة فوجد صديقه عبد الرحيم يسوق فرسه [illegible] ووراءه اناساً يطاردونه فناداه «عبد الرحيم [illegible]»

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وتربصت بعد ذلك وأنا اراقب حركاتك حتى علمت انك دخلت منزله ثم طال انتظاري ولم أشاهد منعالك فخفت أن تكون قد أصبت بسوء فركبت نحو المنزل من طريق آخر فلم أجد هناك أحداً ثم رأيت المنعال فهرعت اليك .. هل عليكم بأس ؟ »

قال « لا بأس علينا والحمد لله بل نحن في خير وبركة »

قال « هل علمت من هو الشيخ سليمان الذي قتلته ؟ »

قال « نعم علمت انه أبو الحسن صاحب ثورة القاهرة التي ذهبت بسببها الى مصر بتلك الرساله المباركه وجئتني بذلك الجواب الثمين .. وقد ظهر لي من الحاحك عليّ بقتله ان في الامر سراً وقد ظهر الآن انك أعنتني على التخلص من هذا السرير وهذه بشرى سنزفها الى مولاي صلاح الدين ولك الفضل فيها »

قال « وستزف اليه بشرى اخرى ان حياته في مأمن من عائلة الاسماعيليين »

قال « طبعاً . وسأزف اليه واليك بشرى هي في نظري أهم مما تقدم »

فقال « وما هي ؟ »

قال « لم تسألني عن هؤلاء الرفاق من هم »

قال « كنت عازماً على سؤالك لكنني تنبأت انهم زوجة ذلك الشرير وخادماها وهي الآن زوجك طبعاً »

قال « لا . لا . لم تكن زوجاً له قط »

قال « من هي ؟ . »

قال « أتذكر الرساله التي جئتني بها من القاهرة والسيدة التي خاطبتك وذكرت لي اصحابك بالفها وكافها ؟ »

قال بدهشة « سيدة الملك .. اخت الخليفة ؟ »

قال « نعم .. سيدة الملك .. اختطفها هذا الخائن على يد بعض الفدائيين أصحابنا وجاء بها الى هنا تحت العذاب الشديد وقدر لي أن أنقذها »

فقال « هذه الراكبة على البغلة سيدة الملك ؟ »

قال « نعم هل تريد أن تراها »

قال « كيف لا .. ولكن مهل قليلا ريثما نصل الى مكان ننزل فيه عند الفجر . اذ لا بد لها من الراحة »

قال « هل انت ذاهب معنا الى مصر ؟ »

قال « اذا كنتم تقبلونني »

واسرع في الجواب بلهجة قائلاً « ان ذلك يكون من حسن طالعي . كم أحب أن تكون معي فنعيش سوية لعلي أقدر على مكافأتك وسأخبر السلطان صلاح الدين بما كان من فضلك في اتمام هذه المهمة وهي بشرى رائعة أزفها اليه . ولكن كيف تركت الطائفة الاسماعيلية بعد أن صرت من كبار رجالها وصارت لك هذه الدالة على رئيسها العجيب الغريب . اني لا أنسى ما شاهدته من المدهشات في هذين اليومين .. »

فتنهد وقال « لو لم ارتق الى درجة المستنيرين لم يخطر ببالي أن اعتزل هذه الطائفة . ألم تسمه الى تعبيري بعد ذلك الارتقاء . لو بقيت فدائياً لظللت مشتاقا الى الارتقاء والاطلاع على الاسرار ولما أطلعت عليها رأيتني كنت مخدوعاً وندمت على دخولي »

فقال « [illegible] ذلك الذين ترقوا الى مثل هذه الدرجة [illegible] »

قال « لأنهم يرون [illegible] من اللذات وأسباب السعادة المادية لا يهمهم أن [illegible] الفدائيين

أمثالك . أما أنا فلا أحب هذه العيشة بما فيها من الغدر »

فاطرق عماد الدين وتشاغل بمشيط عرف فرسه بأنامله وهو يعجب بكمال ذلك الصديق . ثم قال « ألا تزال تعتقد كرامة الشيخ راشد الدين ومعجزاته ؟ »

قال « كنت أعتقدها حتى ارتقيت وعرفت سرّها فانكرتها . . وفي الدنيا كثير من الظواهر المدهشة اذا عرفت سرّها احتقرتها »

قال « اني شديد الرغبة في معرفة سر ما شاهدته من معجزات الرجل مثل اطلاعه على الاخبار قبل وصولها ومخاطبة الاموات والاحجار وسماع جوابها وناهيك بجثته التي يمشي حورها على سطح الماء وتخاطبه الاطيار وغير ذلك . انها من المعجزات المدهشة »

قال « صدقت انها مدهشة وكنت أود ان أكاشفك سرها لولا اني أقسمت على الاحتفاظ بها الايمان المغلظة وأنت لا ترضى لي الحنث باليمين . لاني وان تركت الجمعية وتخليت عنها فلم أتحلّ عن شرفي وضميري . لكنني أقول لك ان هذه المعجزات ليس فيها شيء من الخوارق التي لا يقدر عليها الناس وليست من قبيل الوحي الالهي او المقدرة الخصوصية كما كنا نظن . والآن قد دنونا من محطة فيها عين ماء وخان أعرف صاحبه فأرى ان ننزل هنا ريثما نستريح ثم نستأنف المسير كما تشاؤون »

واسرع عماد الدين الى سيدة الملك وأخبرها برأي رفيقه عبد الرحيم فوافقت عليه وكان الفجر قد لاح فنزلوا . وتقدم عماد الدين ومعه عبد الرحيم الى سيدة الملك فقدمه لها وأخبرها عن فضله في نجاح مهمته فاثنت عليه كثيراً

الفصل السادس والستون

اللقاء

فلنتركهم ريثما يسترخون ولنعد الى القاهرة. فقد طال سكوتنا عن أهلها تركناهم بعد صلب عمارة وأصحابه المتآمرين وخروج رسول عز الدين (عبد الرحيم) بالكتاب والجواهر الى بيت المقدس. وقد اطمأن بال سيدة الملك وسرّها أنها خطرت ببال حبيبها وقد ذكرنا ما كان من نقمة ابي الحسن بعد قتله في دمشق. وأنه أسبق منه الانتقام من سيدة الملك بأي وجه كان فأغرى بعض الاسمعيلية من الفدائيين على الاحتيال باختطافها وذهب هو الى مصر. فاستمروا حتى وجدها مع خاصتها الى البساتين على مقربة من قصر صلاح الدين فاختطفوها كلٌّ تفقده وسقطت بأفوتة وقد اغمي عليها ولم تفق الا بعد ساعات. وكان الفداويون قد نجوا بغنيمتهم فأخبر قراقوش بذلك فأبلغ صلاح الدين فأبلغه الخبر وأمر بالتفتيش عن سيدة الملك في كل مكان وبث الجواسيس في الأطراف فلم يقفوا لها على خبر

فشق ذلك عليه كثيراً وزاد همه لانقطاع أخبار عماد الدين وندم على الاذن له في الذهاب لأنه أحس شيئاً من غربته بعد ما رآه من ثبات عزمه في حملته. وكان يود أن يعود اليه بخبر سيدة الملك ويفرح به فكان [illegible] مع [illegible]

وهي على [illegible]

وهو في ذلك [illegible]

في [illegible]

متأدباً وقال له [illegible]

قال « ان ذلك بتوفيق الله وبركة مولانا السلطان . اخبر مولاي ان عبده عماد الدين عاد من مهمته سالماً ظافراً وكان يود ان يحمل هذه البشرى بنفسه لكنه شغل بسيدة الملك واستأذنته ان احمل هذه البشرى اليكم قبل وصوله »

فصاح فيه صلاح الدين « وسيدة الملك معه ؟ »

قال « نعم يا مولاي ؟ »

فالتفت الى بهاء الدين يلتمس مشاركته في الاستغراب فقال بهاء الدين « ان ذلك غريب .. هذه المرة انقذها ايضاً من الخطر ؟ — أليس ذلك دليلاً على انهما خلقا ليقترنا ؟ »

قال « لا شك في ذلك وهذا غاية ما أتمناه فابعث من يستقبلهما في موكب يليق بمقامهما »

فاعد قراقوش موكباً حافلاً استقبل القادمين في الخانقاه بجوار القاهرة ومعه هودج لسيدة الملك . ولما دنا الموكب من قصر صلاح الدين حولوا الهودج الى قصر سيدة الملك وكانت ياقوتة قد علمت بقدومها فاستقبلتها وترامت على يديها تقبلهما وشكرت الله على هذه النعمة . ورأت الضعف لا يزال ظاهراً في وجهها فاخذت تداعبها بذكر عماد الدين وانه لا يلبث ان يصير زوجها فقالت لها « هل رأيت يا ياقوتة ان هذا الشاب يستحق قلبي ؟ . انه انقذني من الموت والعار مرة اخرى » وقصت عليها خبرها باختصار

اما عماد الدين فترجل قبل الوصول الى قصر السلطان ومشى حتى دخل عليه واكب على ركبته يقبلها ويقول « اشكر الله لانه أراني وجه مولاي السلطان في خير » وتقدم اليه الوزراء والقواد وسلموا عليه وهم لا يعرفون

الغرض من مهمته ولكنهم جاروا السلطان باكرامه

ثم أمر السلطان بخلوة لم يشهدها غير بهاء الدين وعماد الدين . وسأله عن نتيجة مهمته فقص عليه ما جرى من أوله الى آخره فاعجب بهمته وما أظهره من الصبر وما لاقاه من المصاعب والمتاعب وتغلب عليها جميعاً . وكان اغرب ما سمعه قتله ابا الحسن وانقاذه سيدة الملك . فلما وصل الى هنا ابتسم السلطان وقال « بارك الله فيك . هذه همة عالية . رحم الله والدي انه كان صادق النظر في الرجال . توسم فيك مناقب كبار القواد وقد صدق توسمه لانك أتيت ما لم يستطعه سواك من رجالنا . فانت الآن من كبار قوادنا ورجال خاصتنا »

والتفت الى بهاء الدين وقال « يا بهاء الدين هذا هو الشاب الذي فر من بين يديك من قصر النساء وشكوته الي – ألا تراه يستحق أن يكون زوجاً لسيدة الملك وقد انقذنا من أبي الحسن كما سمعت »

قال « انه أهل لكل المكافآت ويكفي أن يكون مولانا نجم الدين قد توسم فيه ذلك . »

قال « قد آن له الآن ان يستريح من وعثاء السفر – واحب أن تحتفلوا بزواجه احتفالاً يليق بالملوك وكبار القواد »

فاكب عماد الدين على يدي صلاح الدين يقبلها فقبل صلاح الدين رأسه ثم قال عماد الدين « استأذن مولاي بكلمة عن صديقي عبد الرحيم المسمت الذي في خدمتنا وسيكون عوناً لنا في حروب الافرنج لأنه يعرف بيت المقدس يده بيده . »

فلم يصبر صلاح الدين حتى يتم حديثه فقال « انه أهل لكون من خدمتنا وعهدنا بهاء الدين يعرف له قدره وينزله في منزلته . وأحب الآن ان أرى سيدة الملك وأهنئها بالسلامة »

فهرع بهاء الدين الى قصر النساء يبشر سيدة الملك بزيارة السلطان . فاستعدت لاستقباله فلما أقبل عليها حياها وقال « قد أصبت لانك فضلت عماد الدين عليّ فانه أنقذك من الموت مرتين وخلصنا من أشر الاعداء . فهو جدير بك وبعقد له عليك بما يقتضيه مقامك »

فحلت سيدة الملك خجلاً ممازجه الفرح والاعجاب واطرقت حياء ثم رفعت بصرها اليه وقالت « لم أفضل عماد الدين الا لمناقب تعجب السلطان صلاح الدين وقد رفعه بسببها من عامة الناس الى خاصتهم وجعله جليسه . وهب اني قلت بتفضيله من بعض الوجوه لكنني انا وهو لا نفضل أحداً على صلاح الدين . ونحن في رعايته وتحت ظله »

فاعجبه جوابها فقال « كنت في رعايتي ولكنك الان في رعاية البطل عماد الدين ويحق لك أن تفتخري به كما يحق له الافتخار بك فاهنأا »

قال ذلك وخرج وغادر سيدة الملك وقلبها يرقص فرحاً وقد نسيت كل مصائبها الماضية

واحتفلت مصر بزفاف سيدة الملك الى عماد الدين احتفالهم بزواج الملوك

﴿ تمت الرواية ﴾